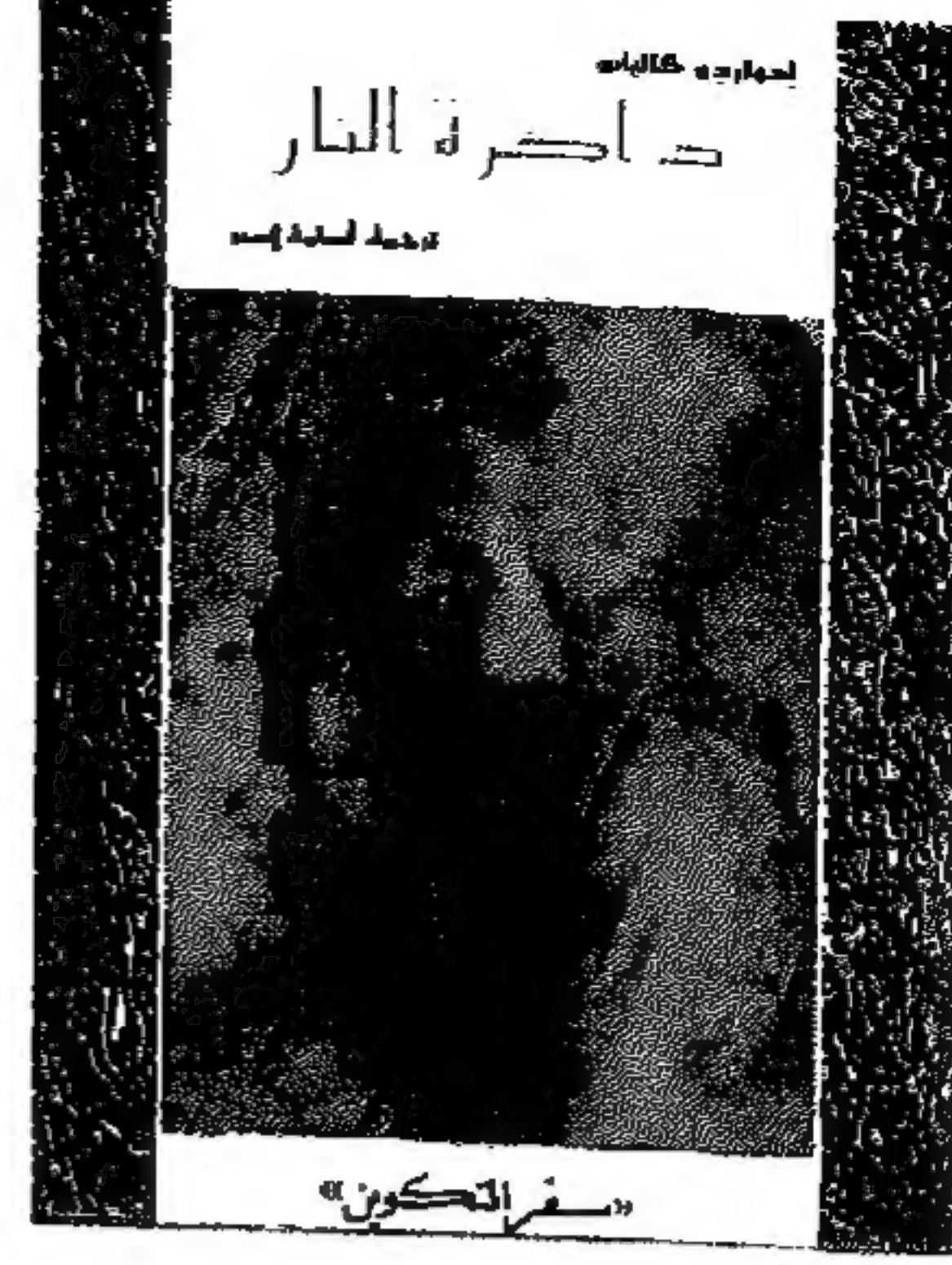


ذاكرة النار



كنت طالب تاريخ بائس. كان حضور دروس التاريخ يشبه الذهاب إلى معرض التماثيل الشمعية أو إلى إقليم الموتى. كان الماضي ميتاً، أجوف وأخرس، علمونا عن الماضي بطريقة جعلتنا نستكين للحاضر بضمائر جافة: لا لنصنع التاريخ الذي صنع سابقاً بل لكي نقبله. توقف التاريخ المسكين عن التنفس، تمت خيانتته في النصوص الأكاديمية، كذب عليه في المدارس، أغرق بالتواريخ، سجنوه في المتاحف ودفنوه تحت أكاليل الزهر ووراء تماثيل برونزية ورخام تذكاري.

ربما يساعده «ذاكرة النار» على التنفس ويستحضر حريته والكلمة. جرّدت أميركا اللاتينية طوال قرون من الذهب والفضة، من النترات والمطاط والنحاس والزيت وانتهكت ذاكرتها.

حكم عليها من البداية بداء النسيان أولئك الذين منعوها من الوجود. إن التاريخ الرسمي لأميركا اللاتينية يقتصر على استعراض عسكري لطغاة يرتدون بزات عسكرية لم تستخدم من قبل.

لست مؤرخاً: أنا كاتب يحب أن يساهم في إنقاذ الذاكرة المخطوفة لكل أميركا وخصوصاً لأميركا اللاتينية، الأرض المحترقة والمحبوقة: أحب أن أتحدث معها، أن أتناقش معها أسرارها، أن أسألها من أي صلصال شاق ولدت ومن أية ممارسات جنسية واغتصابات جاءت.

لا أعرف إلى أي شكل أدبي ينتمي صوت الأصوات هذا. ليس «ذاكرة النار» مقتطفات أدبية مختارة وهذا واضح. ولكن لا أعرف إن كان رواية أو مقالة أو ملحمة شعرية أو شهادة أو تاريخاً أو... إن اتخاذ قرار حول هذا الأمر لا يسرق مني النوم، كما لا أؤمن بالحدود التي تفصل بين الأجناس الأدبية استناداً إلى ضباط جمارك الأدب.

لم أرغب بكتابة كتاب موضوعي ولا أستطيع ذلك. ولا يوجد شيء حيادي حيال هذا السرد التاريخي، ولأنني لم أستطع أن أبعد نفسي اتخذت موقفاً متعاطفاً: أعترف بذلك ولست آسفاً.

على أية حال، إن كل قطعة من هذا الموزاييك الضخم مبنية على أساس توثيقي صلب. ما قيل هنا حدث سابقاً رغم أنني أقوله بأسلوب وبطريقتي.

إدواردو كاليانو

إدواردو كاليانو

ذاكرة النار

ترجمة: أسامة إسبر



«سفر التكوين»





ذاكرة النار

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى - 1995

دار الطليعة الجديدة

سوريا - دمشق - ص.ب: 34494

هـ: 7775872

تصميم الغلاف: بتول محمود السيد

ذاكرة النار

سفر التكوين

تأليف: إدواردو كاليانو

ترجمة: أسامة إسير

العنوان الأصلي للكتاب:

Memory of Fire
«Genesis»

Edwardo Galeano

مقدمة

كنت طالب تاريخ بائس. كان حضور دروس التاريخ يشبه الذهاب إلى معرض التماثيل الشمعية أو إلى إقليم الموتى. كان الماضي ميتاً، أجوف وأخرس، علمونا عن الماضي بطريقة جعلتنا نستكين للحاضر بضمائر جافة: لا لنصنع التاريخ الذي صُنِعَ سابقاً بل لكي نقبله. توقف التاريخ المسكين عن التنفس، تمت خيانتته في النصوص الأكاديمية، كُذِبَ عليه في المدارس، أغرق بالتواريخ، سجنوه في المتاحف ودفنوه تحت أكاليل الزهر ووراء تماثيل برونزية ورخام تذكاري.

ربما يساعده «ذاكرة النار» على التنفس ويستحضر حريته والكلمة.

جُرِّدَت أميركا اللاتينية طوال قرون من الذهب والفضة، من النترات والمطاط والنحاس والزيت وانتُهكت ذاكرتها.

حكم عليها من البداية بداء النسيان أولئك الذين منعوها من الوجود. إن التاريخ الرسمي لأميركا اللاتينية يقتصر على استعراض عسكري لطغاة يرتدون بزات عسكرية لم تستخدم من قبل. لست مؤرخاً. أنا كاتب يحب أن يساهم في إنقاذ الذاكرة المخطوفة لكل أميركا وخصوصاً لأميركا اللاتينية، الأرض المحتقرة والمحبوبة: أحب أن أتحدث معها، أن أتقاسم معها أسرارها، أن أسألها من أي صلصال شاق ولدت ومن أية ممارسات جنسية واغتصابات جاءت.

لا أعرف إلى أي شكل أدبي ينتمي صوت الأصوات هذا. ليس «ذاكرة النار» مقتطفات أدبية مختارة وهذا واضح. ولكن لا أعرف إن كان رواية أو مقالة أو ملحمة شعرية أو شهادة أو تاريخاً أو... إن اتخاذ قرار حول هذا الأمر لا يسرق مني النوم، كما لا أؤمن بالحدود التي تفصل بين الأجناس الأدبية استناداً إلى ضباط جمارك الأدب.

لم أرغب بكتابة كتاب موضوعي ولا أستطيع ذلك. ولا يوجد شيء حيادي حيال هذا السرد التاريخي، ولأنني لم أستطع أن أبعد نفسي اتخذت موقعاً متعاطفاً: أعتزف بذلك ولست آسفاً. على أية حال. إن كل قطعة من هذا الموزاييك الضخم مبنية على أساس توثيقي صلب. مافيل هنا حدث سابقاً رغم أنني أقوله بأسلوبى وبطريقتى.

إدواردو كاليانو



الأصوات الأولى

.

« إن العشب الجاف سيحرق العشب الرطب »

مثل أفريقي أحضره العبيد إلى الأمريكيتين

- الخلق -

حلمت المرأة والرجل بأن الإله يحلم بهما.
 كان الإله يغني ويهز خشاخيشه حين حلم حلمه في سحابة من دخان التبغ شاعراً بالسعادة
 إلا أن الشك يبلبله واللغز يحيره.
 يعرف هنود «الماكيريبتير» أن الإله إذا حلم بتناول الطعام يمنح الخصب والطعام، وإذا حلم
 بالحياة يولد ويمنح الولادة.
 حين حلمت المرأة والرجل بأن الإله يحلم بهما كانا داخل بيضة كبيرة متألثة يغنيان
 ويرقصان ويخبطان بقدميهما محدثين جلبة وصخباً لأنهما كانا يتلهفان بجنون ليولدا. كانت
 السعادة في حلم الإله أقوى من الشك واللغز وهكذا خلقهما الإله وهو يغني حالماً:
 «أكسر البيضة فتولد المرأة ويولد الرجل. معاً سوف يعيشان ويموتان إلا أنهما سيولدان ثانية،
 ثم سيولدان ويموتان من جديد ثم سيولدان. لن يتوقفا عن الولادة أبداً لأن الموت كذبة».

- الزمن -

يعتقد هنود المايا أن الزمن ولد وسمي قبل أن توجد السماء وتستيقظ الأرض:
 انطلقت الأيام من جهة الشرق وبدأت تمشي.
 خلق اليوم الأول السماء والأرض من أحشائه.
 نصب اليوم الثاني سلماً لينزل عليه المطر.
 أما البحار والأراضي وتعدد الأشياء فكانت من عمل اليوم الثالث.

شاء اليوم الرابع أن يجمع بين السماء والأرض.
 قرر اليوم الخامس أن الجميع يجب أن يعملوا.
 انبثق النور من اليوم السادس.
 ملأ اليوم السابع الأمكنة الخاوية بالتربة.
 دفن اليوم الثامن يديه وقدميه في التربة.
 خلق اليوم التاسع العوالم السفلية. ووضع العاشر علامات على أولئك الذين يملكون أرواحاً مسمومة.
 داخل الشمس صاغ اليوم الحادي عشر الشجر والحجر.
 صنع اليوم الثاني عشر الريح. هبَّت الريح وسميت الروح لأنه لم يكن يوجد فيها موت.
 بلل اليوم الثالث عشر التراب وصاغ من الوحل جسداً مثل أجسادنا.
 هذا ما يُذكر في «يوكاتان».

- الشمس والقمر (١) -

حمل الطوفان الشمس المائية الأولى. تحوّل جميع من يعيش في العالم إلى أسماك.
 افترست النمر الشمس الثانية.
 دمر مطر ناري الشمس الثالثة وهيج البشر.
 بعثرت العاصفة الشمس الرابعة، شمس الريح. تحوّل البشر إلى قروود انتشرت في التلال.
 بدأت الآلهة بالتفكير ثم اجتمعت في «تيوتيهواكان».

- من سيجعل الفجر يبرز؟

خطأ إله الأصداف المشهور بقوته إلى الأمام وقال:

- سأكون أنا الشمس.

- من أيضاً؟

خيم الصمت.

نظر الجميع إلى الإله المزهور (٢) الأكثر دمامة وسوءاً بين الآلهة وقالوا: «أنت».

انسحب إله الأصداف والإله المزهور إلى التلال التي هي الآن أهرامات الشمس والقمر. هناك صاما وتأملا.

(١) - في هذا الكتاب يذكر المؤلف الشمس ويؤنّت القمر ويجوز في العربية تذكير أو تانيث أي منهما رغم أن الدارج هو تذكير القمر وتانيث الشمس.

(٢) - المزهور: المصاب بالسفلس أو بالزهري.

الأصوات الأولى

بعد ذلك جمعت الآلهة حطباً وبنّت ناراً ودَعَتُهُمَا.
أسرع الإله الصغير ورمى نفسه في ألسنة اللهب وبزغ حالاً متوهجاً في السماء.
نظر إله الأصداف مقطباً إلى النار وبدأ يتقدم ويتراجع متردداً ثم دار دورتين. كان عليهم أن يدفعوه لأنه لم يستطع أن يقرّر. صعد إلى السماء بعد تأخر طويل. غضبت الآلهة وضربته على وجهه بأرنب عدة مرات إلى أن أطفأت توهجه. وهكذا أصبح إله الأصداف المغرور قمراً. أما البقع الظاهرة على القمر هي الندوب الناجمة عن ذلك الضرب.
إلا أن الشمس اللامعة لم تتحرك. طار الباشق السبجي نحو الإله المزهور الصغير وسأله: «لماذا لا تتحرك؟».

أجابه الإله الصديدي الأحذب المشلول المحتقر: «لأنني أحتاج إلى الدم والقوة». منحت الشمس الخامسة، الشمس التي تتحرك، الضوء «للتوليكس» ومنحته للآزتيكيين. لها مخالب وتتغذى على قلوب البشر.

- الغيوم -

ألقت غيمة قطرة مطر على جسد امرأة فأنجبت توأماً بعد تسعة أشهر.
حين كبرا رغبا أن يعرفا من هو والدهما.
قالت: «انظرا جهة الشرق في الصباح الباكر وسوف تشاهدانه في السماء مرتفعاً كبرج». يَمَمَا عبر الأرض والسماء بحثاً عن والدهما.
شكّت الغيمة بهما فطلبت: «برهانا أنكما ولدي». أرسل الأول لمعة برق إلى الأرض والثاني قصف رعد. وحين استمر شكّ الغيمة عبرا طوفاناً وخرجا سالمين.
رتبت الغيمة لهما مكاناً قريباً بين أخوتها وأولاد أخوتها الكثيرين.

- الريح -

حين خلق الإله أوائل هنود «الواوينوك». بقيت بعض نتف الصلصال على الأرض. من هذه النطف خلق «غلوساكابي» نفسه.
من علٍ، سأله الإله مندهشاً: «كيف نشأت؟»
أجاب غلوساكابي: «أنا صانع معجزات. لم يخلقني أحد». وقف الإله إلى جانبه ومدّ يده نحو الكون متحدياً: «انظر إلى خلقي. إذا كنت صانع معجزات أرني أشياء خلقتها».

«أستطيع أن أخلق ريحاً إذا أردت». ونفخ غلوسكابي بملء رتتيه.
ولدت الريح وماتت حالاً.
اعترف غلوسكابي خجلاً: «أستطيع أن أخلق الريح لكن ليس بوسعي أن أجعلها تعيش»
عندئذ نفخ الإله بقوة حتى أن غلوسكابي سقط وفقد كل شعره.

- المطر -

اكتشفت فتاة فجأة أنها حية في إقليم البحيرات الشمالية الكبرى. فتحت عجائب العالم
عينها فانطلقت خبط عشواء.
حين اقتفت أثر صيادي أمة «الينوميني» والخطابين وصلت إلى كوخ خشبي يعيش فيه عشرة
أخوة وطيور الرعد^(١)، فاستقبلوها وقدموا لها الطعام والمأوى.
في صباح سيء، حين كانت تحضر الماء من النبع قبض عليها ثعبان مُشعِرٌ وحملها إلى أعماق
جبل صخري. كانت الثعابين على وشك أن تلتهمها حين غنت.
من بعيد، سمعت طيور الرعد الغناء فهاجمت الجبل الصخري بالبروق وأنقذت الفتاة وقتلت
الثعابين.

وضعت طيور الرعد الفتاة في قفل شجرة وقالت لها:
«سوف تعيشين هنا وسنعود في كل مرة تغنين فيها».
وفي كل مرة تغني فيها ضفدعة الشجرة الخضراء يقصف الرعد وتمطر على العالم.

- قوس قزح -

نصب أقزام الغابة كميناً لـ «يوبوينا هوايوشكا» وقبضوا عليه وقطعوا رأسه.
تخبط الرأس عائداً إلى أرض «الكاشيناهاواز».
ورغم أنه تعلم أن يقفز برشاقة وأن يوازن نفسه لم يرغب أحد برأس بلا جسد.
قال متنهداً: «أمي، أخوتي، أبناء بلدي، لماذا ترفضونني؟ لماذا تشعرون بالعار مني؟».
في محاولة منها لتوقف الشكاوى وتتخلص من الرأس اقترحت الأم أن يُحوّل نفسه إلى شيء
ما، إلا أن الرأس رفض أن يتحوّل إلى شيء وُجد سابقاً. فكر الرأس وحلم وخمن. لم يكن القمر
وقد وجد ولا قوس قزح.
طلب سبع كراتٍ من الخيوط الصغيرة من جميع الألوان.

(١) - طيور الرعد : طيور خرافية يعتقد الهنود الحمر أنها تحدث البرق والرعد.

الأصوات الأولى

صَوَّبَ ورَمَى الكرات نحو السماء واحدة بعد أخرى.
 علقت الكرات وراء الغيوم وبدأت الخيوط تنحلُّ بنعومةٍ نحو الأرض.
 قبل أن يصعد قال الرأس محذراً: «إن من لا يتعرَّف عليَّ سيُعاقب. حين تشاهدونني هناك قولوا: هذا هو «يوبويانا هوابوشكا» العالي والأنيق»
 ضفر الخيوط السبعة المتدلّية وتسلق على الحبل إلى السماء.
 في تلك الليلة ظهر جُرْحٌ بليغٌ للمرة الأولى بين النجوم. رفعت فتاةٌ عينيها وسألت: «ما هذا؟»
 انقضَّ عليها حالاً ببغاء أحمر. دار دورةً مفاجئةً ونخسها بذيله الحاد المدبب بين ساقَيْها.
 نزفت الفتاة ومنذ تلك اللحظة تنزف النساء حين تأمر القمر بذلك.
 في الصباح التالي توهج حبل الألوان السبعة في السماء.
 أشار رجل إليه بإصبعه: «انظروا! انظروا كم هو فائق للعادة» قال ذلك وسقط.
 وكانت تلك هي المرة الأولى التي مات فيها أحد ما.

- النهار -

كان الغراب الذي يهيمن الآن على طوطم أمة الهايدا حفيد الرئيس الكبير المقدس الذي خلق العالم.

حين بكى الغراب طالباً القمر التي كانت تتدلى عبر جذوع الأشجار أعطاه جده القمر. رماها الغرابُ نحو السماء من فتحة المدخنة ثم بكى ثانية طالباً النجوم. حين حصل عليها نثرها حول القمر ثم بكى وقفز وصرخ إلى أن أعطاه جده الصندوق الخشبي الذي حُفِظَ فيه ضوء النهار. منعه الرئيس الكبير المقدس أن يُخرج الصندوق من المنزل لأنه قرَّر أن العالم يجب أن يعيش في الظلام.
 لعب الغراب بالصندوق متظاهراً بالقبول وبدأ يراقب من زاوية عينه الحراس الذين كانوا يراقبونه

في إحدى المرات وحين أشاحوا بصرهم عنه حمل الصندوق بمخالبه وطار عبر المدخنة فانشق مخالبه واحترق ريشه وأصبح أسود اللون منذ ذلك الوقت.

وصل الغراب إلى بعض الجزر الواقعة ناحية الشاطئ الشمالي. سمع أصواتاً بشرية فطلب الطعام. لم يمنحه أحد شيئاً. عندئذ هدد بأن يحطم الصندوق الخشبي محذراً:

«إن النهار موجود مغي هنا إذا خرج لن تطفئ السماء ضوءها أبداً ولن يقدر أحد على النوم أو على حفظ الأسرار وسيعرف الجميع من هم البشر وما هي الطيور والحيوانات والغابة».

سخرُوا منه. فتح الغراب الصندوق وانتشر النور في الكون.

- الليل -

لم تتوقف الشمس أبداً عن الإضاءة ولم يذق هنود «الكاشيناهوا» طعم الراحة. ولأنهم بحاجة إلى الهدوء ومرهقين من الضوء المتواصل استعاروا الليل من الفأر. خيم الليل، إلا أن ليل الفأر لم يكن طويلاً بما يكفي للقمة طعام وتدخين سيجارة قرب النار. حين جاء الصباح كان الناس لتوهم قد جلسوا في أراجيحهم. بعد ذلك جربوا ليل التابير^(١). بليل التابير استطاعوا أن يناموا بعمق وتمتعوا بالراحة الطويلة المستحقة. ولكن حين استيقظوا كان قد مرّ وقت طويل حتى أن نباتاً معرّشاً هجم من التلال غزا أراضيهم ودمّر منازلهم. وبعد بحث طويل استقروا على ليل المدرّع^(٢). استعاروه منه ولم يعيدوه أبداً. مجرداً من الليل، ينام المدرّع أثناء النهار.

- النجوم -

بالعزف على المزمار يُعلن عن الحب أو عودة الصيادين. يستدعي هنود الواي واي ضيوفهم بإطالة أصوات المزمار. بالنسبة «للتوكانوز» المزمار يبكي. أما بالنسبة «للكاليناس» فهو يتحدث لأنه البوق الذي يصيح. على ضفاف نهر «النيغرو» يؤكد المزمار قوة الرجال. إن المزامير مقدسة ومخبأة وأي امرأة تقترب منها عقابها الموت. في الأزمنة الغابرة، حين كانت النساء تمتلك المزامير كان الرجال يجمعون الحطب ويحفرسون خبز «المنيهوت»، وكما يروي الرجال، شعر الشمس بالإهانة لأن النساء يدرن العالم فنزل إلى الغابة وأخصب عذراء بوضع عصير أوراق بين ساقها. هكذا ولد «جوروباري». سرق جوروباري المزامير المقدسة ومنحها للرجال. علّم الرجال أن يخبئوها ويدافعوا عنها وقيموا احتفالات طقسية بدون نساء. كشف لهم أيضاً الأسرار التي يجب أن ينقلوها إلى أبنائهم الذكور. حين اكتشفت والدّة جوروباري مخبأ المزامير المقدسة حكمت عليه بالموت ومن التفت النبي بقيت منه صنعت النجوم السماوية.

(١) - التابير: حيوان أميركي استوائي شبيه بالخنزير.

(٢) - المدرّع: حيوان ثديي يعيش في أمريكا الجنوبية من الدردارات لرأسه وجسمه درع من الصفائح العظمية الصغيرة يستطيع أن ينكمش فيه إذا هوجم على صورة كرة.

- حرج الثبانة -

أكل قلب الطيور وليس أكبر من دودة. كان والده أفضل صياد في شعب «الموسيتين».

تحول حالاً إلى ثعبان يبلغ طوله ذراعاً وبدأ يطلب قلوباً أكثر. كان الصياد يقضي اليوم كله في الغابة يقتل من أجل ولده.

حين أصبح الكوخ لا يتسع للثعبان فرغت الغابة من الطيور. أحضر له والده، رامي السهام الخبير قلوب اليغاور.

وكان الثعبان يتلهمها ويكبر. فرغت الغابة من اليغاور.

فقال الثعبان: «أريد قلوباً بشرية».

أفرغ الصياد قريته وجوارها من الناس إلى أن جاء يوم قُتِلَ فيه في قرية بعيدة.

مدفوعاً بالجوع والحنين خرج الثعبان ليبحث عنه.

لفَّ جسده حول القرية المذنبة كي لا ينجو أحد. وبينما كان الرجال يرشقون الحلقة العملاقة التي فرضت عليهم الحصار بسهامهم، أنقذ الثعبان جسد والده ونما باتجاه الأعلى. هناك ما يزال مرثياً متموجاً مشعاً بسهام مضيئة في سماء الليل.

- نجم المساء -

سألت القمر، الأم المنحنية ولدها: لا أعرف أين والدك. اعثر عليه وأوصل له كلمتي.

انطلق الولد ليبحث عن الضوء الأكثر تألقاً بين الأضواء.

لم يعثر عليه في ضوء الظهيرة حين يحتسي شمس شعب «التاراسكان» خمرة ويرقص مع نسائه على قرع الطبول. لم يعثر عليه في آفاق وأقاليم الموتى. لم يكن الشمس في أي من منازل الأربعة.

ما يزال نجمة المساء يبحث عن والده في السماء ودائماً يصل مبكراً جداً أو متأخراً جداً.

- اللغة -

نهض الأب الأول «للكوارانيين» في الظلمة التي أضاءتها تأملات قلبه وخلق اللهب والضباب الرقيق. خلق الحب ولم يكن يوجد أحد ليقدمه إليه. وخلق اللغة ولم يكن هناك أحد يستمع إليه.

ثم طلب من الآلهة أن تبني العالم وحملها مسؤولية النار والضباب والمطر والرياح ثم منحها الموسيقى وكلمات الأغنية المقدسة لتمنح الحياة للرجال والنساء.
وهكذا أصبح الحب مشتركاً ودخلت اللغة إلى الحياة وتخلّص الأب الأول من عزله ليرافق الرجال والنساء الذين يغنون حين يمشون:

نحن نمشي على هذه الأرض
نحن نمشي على هذه الأرض المشعة.

- النار -

كانت الليالي جليديةً لأن الآلهة أخذت النار بعيداً. كان البرد يقطع لحم وكلمات البشر. كانوا يتوسلون مرتجفين بأصواتٍ منكسرة وكانت الآلهة تدير آذاناً صماءً.
مرة، أعادت الآلهة النار فرقص البشر من الفرح وعبروا عن امتنانهم بالأغاني. إلا أن الآلهة أرسلت حالاً المطر والبرد وأطفأت النيران.
تحدثت الآلهة وطلبت: «لكي يحظوا بالنار، على البشر أن يشقوا صدورهم بخناجر سبجية ويقدموا قلوبهم».

قدّم هنود الكويتشي دم سجنائهم وأنقذوا أنفسهم من البرد.
لم يقبل «الكايكويتشليون» الصفقة. «الكايكويتشليون»، أبناء عمومة الكويتشين والذين ينحدرون مثلهم من «المايا»، انسلوا بأقدام مريشة عبر الدخان وسرقوا النار وخبأوها في كهوف جبلهم.

- الغابة -

لمح والد هنود «الويتوتو» في حلمه ضباباً مشعاً. كان الضباب حياً بالطحالب والأشنيات وصداهاً بالرياح والعصافير والثعابين. استطاع الأب أن يمسك بالضباب وحمله بخيط من نفسه وسحبه خارج الحلم ومزجه بالتراب.

بصق عدة مراتٍ على الأرض الضبابية وفي الخليط الزبدى نهضت الغابة ونشرت الأشجار تيجانها الضخمة وأينعت الثمار وتفتحت الأزهار. وعلى الأرض المنداة أخذ الخنزير البري والمدرع والأيل والفهد وآكل النمل شكلاً وصوتاً. وحلّق في الجو النسر الذهبي والمقو والصقر والطنان ومالك الحزين الأبيض والبطّة والخفاش.

وصل الدبور بسرعة كبيرة. وضع صفادع الطين وبشراً لا أذيال لهم ثم استراح بعد ذلك.

- شجرة الأرز -

استحضر الأب الأول العالم إلى الولادة بطرف صولجانه وغطاه بالزغب. من الزغب خرجت شجرة الأرز، الشجرة المقدسة التي تتدفق منها الكلمة. ثم أخبر الأب الأول الكوارانيين أن يجوفوا الجذع ويصغوا لما يوجد داخله. قال إن كل من يستطيع أن يصغي إلى شجرة الأرز، علبة الكلمات، سيعرف أين يبني موقده ومن لا يستطيع سيعود إلى الغبار المحتقر.

- شجرة الغويقم^(١) -

خرجت امرأة شابة من شعب «النيفاكل» لتبحث عن الماء. شاهدت شجرة الغويقم ناسوك وشعرت بنداها. عانقت جذعها الضخم ضاغطة عليه بجسمها وحفرت بأظفارها على لحائها. نذفت الشجرة.

تركبتها قائلة: «كم أرغب ياناسوك لو كنت رجلاً». تحولت شجرة الغويقم إلى رجل وركضت وراءها. حين وجدها أظهر لها كتفه المخدوش واستلقى إلى جانبها.

- الألوان -

كان الأبيض مرة ريشاً للطيور وجلداً للحيوانات. أما الأزرق فهو الذين استحموا في بحيرة لا يصب فيها ولا يخرج منها نهر. الأحمر هو الذين غُمسوا في بحيرة الدم الذي سفحه طفل من قبيلة «كاديو». أما لون التراب: فهو الذين تدحرجوا في الوحل. والرمادي هو الذين بحثوا عن الدفء في نيران المخيم المطفاة. الأخضر: هو الذين حكوا أجسادهم بالأوراق. والأبيض: هو الذين بقوا صامتين.

- الحبة -

في الغابة الأمازونية نظر الرجل الأول والمرأة الأولى إلى بعضهما بفضول. لم يعرفا مكان يوجد بين ساقيهما.

سأل الرجل: «هل قطعوه؟»

(١) - الغويقم: شجر أميركي استوائي.

أجابت: «لا، كنت دائماً هكذا».

تفحصها عن كثب. حك رأسه، كان يوجد جرح مفتوح هناك. قال: «من الأفضل ألا تأكلي المنيهوت أو الموز أو أية فاكهة تنشق حين تنضج. سوف أسفيك، ادخلي إلى الأرجوحة الشبكية واستريحي».

أطاعته. وبصبر ابتلعت الشاي المعطر وتركته يدلكها بالمراهم العطرية. صرّت علي أسنانها لتمتنع عن الضحك حين قال لها: «لاتقلقي».

أمتعتها اللعبة رغم أنها بدأت تتعب من الصيام في الأرجوحة، سال لعبها من تذكر الفاكهة. وفي أحد المساءات جاء الرجل راكضاً عبر الغابة. قفز من الاهتياج وصاح: «وجدتها».

كان قد شاهد لتوه قرداً يعالج أنثاه على ذراع الشجرة.

قال الرجل وهو يقترب من المرأة: «هكذا يفعل».

حين انتهى العناق الطويل، امتلأ الجو بشذى كثيف من الأزهار والفاكهة. ومن الجسدين المستلقين صعدت أبخرة وسطعت توهجات لم يسمع بها من قبل. كان كل شيء جميلاً حتى أن الشموس والآلهة ماتت من الإرتباك.

- الأنهار والبحر -

لم يكن يوجد ماء في غابة الشوكوز. عرف الإله أن النملة كانت تمتلكه وطلب منها بعضاً منه. لم ترغب بالإصغاء. شدّ الإله خصرها وجعلها نحيلة بشكل دائم فأخرجت النملة الماء الذي كانت تحتفظ به في جوفها.

- والآن أخبريني من أين حصلت عليه.

قادت النملة الإله إلى شجرة لم يكن فيها أي صفة غير عادية.

أربعة أيام وأربع ليال ضربها البشر والضفادع بالفؤوس ولم تسقط. كان يوجد نبتة متسلقة تمنعها من لمس الأرض.

أمر الإله طائر الطوقان: «اقطعها».

لم يستطع الطوقان ولهذا حُكم عليه أن يأكل ثمرة كاملة.

قطع «المقو» النبتة بمنقاره الحاد الصلب.

حين سقطت شجرة الماء ولد البحر من جذعها والأنهار من أغصانها.

كانت المياه كلها عذبة. كان الشيطان هو الذي يواصل إلقاء قبضات من الملح فيها.

- المدّ والجزر -

في الأزمنة الغابرة كانت الرياح تهبّ بلا انقطاع على جزيرة «فانكوفر». لم يخيم طقس جيد أبداً ولم يكن يوجد مدّ منخفض. قرّر الرجال أن يقتلوا الرياح. أرسلوا الجواسيس، فشل شحروور الشتاء وأيضاً فشل السردين، ورغم ضعف بصره وذراعيه المكسورتين كان النورس هو الذي استطاع أن يراوغ حارس الأعاصير الكامن حول بيت الرياح. ثم أرسل جيشاً من الأسماك تحت قيادة النورس. اندفعت الأسماك جسداً واحداً وضربت الباب. الرياح المندفعة إلى الخارج دعست عليها وانزلقت وسقطت واحدة بعد أخرى على سمك الراي اللساع الذي وخزها بذيله والتهمها. أسيرت الرياح الغربية. بعد أن أصبحت سجيناً لدى البشر. وعَدَت أنها لن تهب بشكل متواصل وبأنه سيكون هناك هواء عليل ونسائم خفيفة وأن المياه ستتراجع مرتين في اليوم بحيث يمكن أن تجمع قواقع الأسماك في مدّ منخفض. تمّ العفو عنها. وحافظت الرياح الغربية على وعدّها.

- الثلج -

قال سيد المنزل: «أريدك أن تطير». أقلع المنزل وطار. سافر في الجوّ والظلام وهو يُصَفّر إلى أن أمره السيد: «أريدك أن تقف هنا». وقف المنزل وتدلّى في الليل والثلج المتساقط. لم يكن يوجد دهن حوت لإشعال المصابيح وهكذا جمع السيد حفنة من الثلج الطري فمنحه الثلج الضوء. هبط المنزل في قرية «اكوليك». جاء شخص ليحيّيه وحين رأى المصباح مضاءً بالثلج تعجّب قائلاً: «الثلج يشتعل...!؟»، فانطلق المصباح.

- الطوفان -

في سفح جبال الأنديز عقد رؤساء الجماعات لقاءً. دخنوا وتناقشوا. رفعت شجرة الوفرة تاجها الغني عالياً فوق سقف العالم. من الأسفل، بدت الأغصان العالية مثقلة بالثمار ومليئة بالانتاس وجوز الهند والبيبايا والفوانبانز والحنطة والمنيهوت واللوبياء... كانت الفئران والطيور تستمتع بالوليمة أما البشر فلا. كان الثعلب يتسلق، يقيم لنفسه الولايم ولا يشارك أحداً. البشر الذين حاولوا الصعود سقطوا وتحطموا.

- ما الذي يجب أن نفعله؟

استحضر أحد الزعماء فأساً أثناء نومه. استيقظ وفي يده صفعدة ضرب بها الجذع الضخم لشجرة الوفرة إلا أن المخلوقة الصغيرة تقيأت كبدها.

- كان الحلم كاذباً.

توسّل زعيم آخر في حلمه إلى أب الجميع ليمنحه فأساً. حذّره الأب أن الشجرة ستسترجع أشياءها إلا أنه أرسل ببغاء أحمر. ضرب الرئيس جذع الشجرة وهو ممسك بالببغاء. سقط مطر من الطعام على الأرض وصُمّت الأرض من الصخب. عندئذ هبّت عاصفة غريبة من أعماق الأنهار. ارتفعت المياه وغطت العالم.

نجا شخص واحد فقط وبدأ يسبح أياماً وليالي إلى أن استطاع التمسك برأس شجرة نخيل نَقاً خارج الماء.

- السلحفاة -

عندما انحسر الطوفان تحول وادي أوهاكا إلى مستنقع.

عاشت حفنة من الوحل وبدأت تمشي. مشى ذكر السلحفاة ببطء شديد. تحرك برأسٍ يمتد إلى الأمام وبعينين مفتوحتين مكتشفاً العالم الذي كانت تعيده الشمس إلى الحياة.

في المكان الذي أُنْتَنَ شاهد ذكر السلحفاة نسراً يلتهم الجثث.

قال له: «خذني إلى السماء. أريد أن أقابل الإله».

أجبره النسر على الإستمرار في الطلب لأن الجثث كانت طيبة المذاق. أخرج ذكر السلحفاة رأسه متوسلاً ثم أعاده إلى تحت درعه غير قادر على تحمّل الرائحة الكريهة.

توسّل إليه: «أنت، يا من يملك جناحين خُذْني».

متأففاً من إلحاحه بسط النسر جناحيه الكبيرين وحمل ذكر السلحفاة على ظهره وطار. طار به عبر السحاب. اشتكى ذكر السلحفاة الذي كان يشيح برأسه: «رائحتك مقرفة جداً».

تظاهر النسر بأنه لا يسمع.

كرّر ذكر السلحفاة: «يالنتانة التعفن».

أبقاه الطائر الكريه إلى أن فقد صبره ثم رماه بفضاظة إلى الأرض.

جاء الإله، جمع بقاياها ورَمَمَها.

وتبدو على الدرع آثار الترميم.

- البغاء -

كانت الغابة خضراء بعد الطوفان إلا أنها خالية. أطلق الذي بقي على قيد الحياة سهامه عبر الأشجار. لم تصيب السهام شيئاً سوى الظلال والورق.

في أحد المساءات وبعد أن بحث طويلاً عاد الذي بقي على قيد الحياة إلى معتزله فوجد لحمًا مشويا وكعك منيهوت. حدث الشيء نفسه في اليوم التالي. وبسبب الجوع اليأس والعزلة بدأ يتساءل من سيشكر على هذا الحظ الجيد. في الصباح اختبأ وانتظر.

ظهر ببغاوان من السماء. وحالاً حطاً على الأرض تحولاً إلى امرأتين. أشعلتا النار وبدأتا تطبخان.

اختار الرجل الوحيد المرأة ذات الشعر الأطول والريش الأروع الأكثر بهاء. طارت المرأة الأخرى المرفوضة.

يلعن هنود «المينا» المنحدرون من هذا الزواج جدّهم حين يزداد كسل نسائهم أو تدمرهن. يقولون لقد أخطأ لأنه اختار المرأة التي لا فائدة منها. أصبحت الأخرى أماً وأباً لجميع الببغاوات التي تعيش في الغابة.

- الطائر الطنان -

يُحيي الشمس حين يبزغ الفجر. يخيم الليل وهو مايزال يعمل. يتنقل وهو يطن من غصن إلى آخر ومن زهرة إلى أخرى سريعاً وضرورياً كالنور. ينتابه الشك أحياناً فيقف متدلياً في الهواء ويطير أحياناً أخرى إلى الخلف كما لا يستطيع طائر أن يفعل. أحياناً يسكره العسل الذي يمتصه. حين يحلق يطلق ومضات من اللون.

يُحضّر الرسائل من الآلهة. يتحوّل إلى سهم من البرق ليُنْفَذ انتقامها. ينفخ النبوءات في آذان العرافين وحين يموت طفل كواراني وترقد روحه في تويج زهرة ينقذها ويحملها بمنقاره الإبري إلى الأرض التي تخلو من الشر. عرف الطريق إلى هناك منذ بداية الزمن. وُجِدَ قبل أن يولد العالم. أنعش فم الأب الأول بقطرات الندى وسكن جوعه بنكتار الآلهة.

قاد الرحلة الطويلة «للتولتيكز» إلى مدينة «تولا» المقدسة قبل أن يُحضِر دفء الشمس إلى «الآزتيك».

كقائد «لشونتالز» يُحلق فوق مخيمات الأعداء، يحصي عددهم. ينقض عليهم ويقتل زعيمهم أثناء نومه. كشمس «لكيتشي» يطير إلى القمر، يفاجئها في مخدعها ويمارس معها الحب.

بحجم اللوزة جسده، من بيضة ليست أكبر من حبة فاصولياء ولد في عش تتسع له جوزة. حين ينام يتغطى بورقة صغيرة.

- طائر الليل (أوروتاو) -

«أنا ابنة النحاس»، هذا ما قالته نيمبيو ابنة الزعيم حين منعها والدها عن حب رجل من الأعداء.

قالت ذلك وطار

عثروا عليها بعد فترة في جبال الأوكوازو. عثروا على تمثال. كانت نيمبو تنظر دون أن تشاهد. كان فمها صامتاً وقلبها نائماً.

طلب الرئيس إحضار الشخص الذي يقرأ الأسرار ويشفي المرض. جاءت القبيلة كلها لتشهد الإنبعاث.

طلب الشامان النصيحة من المتة وخمرة المنيهوت. اتجه إلى نيمبيو وأسر في أذنيها:
- لقد مات الرجل الذي تحببته لتوه.

حوّلت صرخة نيمبيو البشر إلى صفصاف باك. طارت وتحولت إلى عصفور.

يمكن أن تُسمع صرخة الأوروتاو التي تهزّ الجبال في الليل على بعد أكثر من فرسخ. من الصعب رؤية الأوروتاو، من المستحيل اصطياده. لأحد يستطيع أن يصطاد الطائر الشبح.

- الطائر الفرّان^(١) -

حين وصل إلى سن الاختبارات الثلاثة للبطولة ركض الفتى وسبح بشكل أفضل من أي شخص آخر وأمضى تسعة أيام دون طعام وتمدّد على السير الجلدي دون أن يتحرك أو يشكو. سمع أثناء الاختبارات صوت امرأة تغني له من بعيد فساعده هذا على التحمل.

قرّر زعيم القبيلة أن يزوج ابنته للفتى إلا أنه طار وضاع في غابات نهر البارغواي باحثاً عن المغنية.

هناك، ما يزال بوسعك أن تقابل الطائر الفرّان يخفق جناحيه بقوة ويطلق أصواتاً بهيجة حين يفكر أن الصوت الذي يبحث عنه يطير في طريقه نفسها. بنى منزلاً من الوحل بباب مفتوح باتجاه نسيم الشمال في مكان آمن من الضوء منتظراً مالا يجي.

يحترمه الجميع. كل من يقتل الطائر الفرّان أو يخرب منزله ستنقضّ عليه العاصفة.

(١) - طائر أميركي يبني عشه على الأرض بشكل قبة أو فرن.

- الغراب -

جافة كانت البحيرات وفارغة مجاري الأنهار، فأرسل هنود «التاكيما» الذين كانوا يحتضرون من العطش ذكر الغراب وأنثاه ليلبثا عن الماء.
تعب ذكر الغراب حالاً. بال في وعاء وقال بأن هذا هو الماء الذي أحضره من مكان بعيد.
تابعت الأنثى الطيران ثم عادت فيما بعد بحمل من الماء العذب وأنقذت شعب التاكيما من الظمأ.
عوقب الغراب وحكم عليه بأن يعاني من العطش في الصيف. ولأنه غير قادر على ترطيب حنجرتة يتحدث بصوت أجش حين يكون الطقس حاراً.

- الكندور^(١) -

كانت كويلاكا تنسج القماش في ظل شجرة وفوقها كان يحلق كونيرايا الذي تحوّل إلى طائر. لم تكثر الفتاة مطلقاً بشدوه ورفرفته.
كان كونيرايا يعرف أن الآلهة الأخرى الأكبر سناً وأهميةً تشتعل بالشهوة من أجل كويلاكا.
على أية حال أرسل إليها من الأعلى بذرتة على شكل ثمرة ناضجة. حين رأت الثمرة المتوردة عند قدميها التقطتها وأكلت منها. شعرت بلذة غريبة وحملت.
بعد ذلك تحوّل إلى رجل حزين يرتدي ثياباً رثة فضفاضة وطاردها في جميع أنحاء البيرو.
طارت كويلاكا نحو المحيط حاملةً طفلها الصغير على ظهرها وخلفها كان كونيرايا الغاضب يحاول اصطيادها.
سأل الظربان^(٢). أجاب الظربان الذي شاهد قدميه النازفتين واستياءه العام: «أيها الأبله ألا ترى أنه لا فائدة من ملاحقتها؟»
صبّ عليه كوينرايا لعناته: «سوف تتجوّل في الليل وتترك خلفك رائحة كريهة أينما ذهبت وحين تموت لن يلتقطك أحد عن الأرض».
أمّا الكندور فقد شجّع معنويات الصياد قائلاً له: «أسرع وسوف تمسكُ بها».
وهكذا باركه كونيرايا: «سوف تطير في أي مكان تريد. لن يوجد مكان في السماء أو على الأرض لا تستطيع الذهاب إليه. لن يصل أحدٌ إلى حيث بُني عشك ولن تفتقد الطعام أبداً ومن يقتلك ستكون عقوبته الموت».
بعد أن تسلق عدداً من الجبال، وصل كونيرايا إلى الساحل متأخراً جداً إذ تحولت المرأة وولدها إلى جزيرة في وسط المحيط.

(١) - الكندور: نسر أميركي ضخم.

(٢) - الظربان: حيوان ثديي صغير نث الرائحة.

- الیغور -

كان الیغور یصطاد بالقوس والنشاب حین قابل ظلاً. حاول أن یصطاده غیر أنه لم یفلح. رفع رأسه. كان صاحب الشبح الشاب بوتوك من قبيلة کایابو وكان على وشك أن یموت من الجوع ممدداً على قمة صخرة.

لم یمتلك بوتوك القوة لیتحرك كان بوسعه فقط أن یتتم بعض الكلمات. أنزل الیغور قوسه ودعاه إلى عشاء من اللحم المشوي في منزله. ورغم أن الشاب لم یعرف معنى كلمة مشوي وافق ورمى نفسه على ظهر الصیاد.

قالت زوجة الیغور: «أنت تحمل ولد أحد الغرباء»

قال الیغور: «إنه لی الآن».

شاهد بوتوك النار للمرة الأولى. تعرف على القرن الحجري وعلى رائحة التابیر المشوي ولحوم الطرائد. تعلم أن النار تضيء وتبعث الدفء. أعطاه الیغور قوساً ونشاباً وعلمه أن یدافع عن نفسه.

هرب بوتوك في أحد الأيام بعد أن قتل زوجة الیغور.

ركض یائساً مسافةً طويلةً ولم یتوقف إلى أن وصل إلى قریته. هناك روى قصته وكشف الأسرار. السلاح الجديد واللحم المشوي. قرر «الكایابوس» أن یتولوا على النار والأسلحة فقادهم إلى المنزل البعيد. لم یبق شيء للیغور من النار سوى انعكاسها المشع في عینیه.

منذ ذلك الوقت كره الیغور البشر. كل ما یمتلكه من أجل الصید أنیباه ومخالبه بها یأكل لحم ضحیته نیثاً.

- الدب -

اجتمعت حیوانات النهار وحیوانات اللیل لتقرر ما الذي ستفعله حیال الشمس التي كانت تأتي وتذهب على هواها. قررت الحیوانات أن تترك المسألة للقدر. ستقرر المجموعة الرابعة في لعبة الأسرار كم ستطول فترة حصول العالم على ضوء الشمس في المستقبل.

كانوا ما یزالون یتحدثون حین اقتربت الشمس التي أسرتها المحادثة. اقتربت الشمس فكان على حیوانات اللیل أن تتبعثر. كان الدب ضحیة الإهتیاج العام. وضع قدمه الیمنی في فردة حدائه الیسرى وقدمه الیسرى في فردة حدائه الیمنی. وانطلق راكضاً قدر استطاعته.

استناداً إلى الكوماتشیز، منذ ذلك الوقت یمشي الدب متمايلاً.

- التمساح -

كان شمس شعب الماكيوزي قلقاً. كان عدد الأسماك في البرك ينقص كل يوم. عيّن التمساح حارساً. ازداد نقص الأحواض من السمك. لفق التمساح الحارس والسارق قصةً جيدة عن مهاجمين لامرئيين إلا أن الشمس لم يصدقها فتناول منجلاً وترك جسم التمساح متصالباً بالجراح.

ليسترضيه قدم له التمساح ابنته الجميلة زوجة.

قال الشمس: «سأنتظر وصولها».

وبما أن التمساح لا يمتلك فتاةً نحت امرأة على جذع شجرة برقوق برية.

قال: «هذه هي»، ثم غاص في الماء وبدأ ينظر من طرف عينه وهذه هي الطريقة التي ينظر فيها دائماً.

كان نقار الخشب هو من أنقذ حياته. قبل أن يصل الشمس نقر نقار الخشب الفتاة الخشبية تحت بطنها. وهكذا أصبحت المرأة التي لم تكن مكتملة مفتوحة لدخول إله الشمس.

- المدرع -

أعلن عن احتفالٍ ضخمٍ قرب بحيرة تيتيكاكا، فرغب المدرع الذي كان مخلوقاً متفوقاً جداً. أن يدهش الجميع.

كان قد بدأ قبل ذلك بوقت طويل بحياكة رداء فائق الروعة سيخرج جميع العيون من محاجرهما.

رآه الثعلب وهو يعمل: «هل مزاجك عكر؟»

- لا تقاطعني أنا مشغول.

- من أجل ماذا أنت تفعل هذا؟

شرح له المدرع.

قال الثعلب مستمتعاً بالكلمات: «آه الحفلة ستبدأ اليوم».

- ماذا تعني، الليلة؟

غاص قلب المدرع. لم يكن متأكداً أبداً من حساباته للوقت: «كيف ولم ينته سوى نصف الرداء

بعد؟»

بينما كان الثعلب يغادرُ بضحكةٍ مختنقة أنهى المدرع الرداء. كان عليه أن يستخدم خيطاناً

أكثر خشونة حين كان الوقت يمرّ. وهكذا أصبح الرداء كبيراً. لهذا السبب تبدو قوقعة المدرع

مشدودة حول العنق ومفتوحة جداً من الخلف.

- الأرنب -

أراد الأرنب أن يكبر.

وعده الإله أن يزيد حجمه إذا أحضر له جلد نمر وقرد وسحلية وثعبان.

ذهب الأرنب ليزور النمر. قال له بثقة: «لقد كشف الإله لي سراً».

رغبَ النمر أن يعرف السرّ فأعلن الأرنب عن إعصار وشيك: «سوف أنقذ نفسي لأنني صغير الحجم سأختبئ في ثقب. لكن ماذا ستفعل أنت؟ لن يعفو عنك الإعصار».

تدحرجت دمعة بين شاربي النمر.

قال الأرنب: «هناك طريقة واحدة لإنقاذك. سنبحث عن شجرة جذعها قوي جداً. سأربطك إلى الجذع من مخلييك وعنقك وهكذا لن يقدر الإعصار على حملك».

سمح النمر بأن يقيّد وهو شاكراً، ثم قتله الأرنب بضربة واحدة وسلخه وتابع طريقه إلى غابات بلاد «الزيبوتك».

توقف تحت شجرة كان يوجد فيها قرد يأكل. أخذ الأرنب سكيناً وبدأ يضرب رقبتة بالجزء الكليل منها. كان يقوّىء بخفوت مع كل ضربة سكين. بعد أن ضرب نفسه كثيراً وضحك كثيراً رمى السكين على الأرض وركض بعيداً.

اختبأ بين الأغصان مراقباً. نزل القرد حالاً. فحص الأداة التي سببت الضحك وحك رأسه. أمسك بالسكين ومن الضربة الأولى قطع حنجرتة.

بعد أن حصل على جلدين. دعا الأرنب السحلية إلى لعب الكرة. كانت الكرة حجرية. ضرب السحلية على قاعدة الذيل وقتلها.

تظاهر الأرنب أنه نائم قرب الأفعى.. تماماً قبل أن تتوتر الأفعى وقبل أن تقدر على القفز ضرب عينيها بمخلييه.

صعد إلى السماء حاملاً الجلود الأربعة.

طلب من الإله: «والآن زد من حجمي».

فكر الإله: «هذا الأرنب صغير ورغم ذلك فعل جميع هذه الأشياء فإذا جعلته يكبر لن يعجز عن فعل أي شيء. إذا كبر الأرنب ربما لن أستمع إليها».

انتظر الأرنب. مسد الإله ظهره بنعومة وفجأة أمسكه من أذنيه ودوره وقذفه إلى الأرض.

منذ ذلك الوقت أصبح للأرنب أذنان كبيرتان وقدمان أماميتان قصيرتان لأنه استخدمهما ليووقف سقطته وأصبحت عيناه قرنفليتين من الهلع.

- الثعبان -

قال له الإله: «ستمر ثلاثة قوارب في النهر. سيسافر الموت في اثنين منها. إذا حذرت أيًا منهما يخلو من الموت فسوف أجعلك خالدًا».

ترك الثعبان القارب الذي كان محملاً بسلال اللحم الفاسد يمر. لم يكثرث بالثاني الذي كان مليئاً بالبشر. بدا الثالث فارغاً وحين وصل رحّب به.

لهذا السبب أصبح الثعبان خالدًا في إقليم شيبياس.

وفي كل مرة يدبّ فيه الهرم يمنحه الإله ثوباً جديداً.

- الضفدعة -

جاء هنود «التينو» الأوائل من كهفٍ في هايتي.

لم يشفق الشمس عليهم. فجأة وبدون سابق إنذار خطفهم وبدأ يمسخهم. حوّل الشخص الذي كان يحرس الليل إلى حجر. صنع من الصياد أشجاراً وحوّل الشخص الذي ذهب ليجمع الأعشاب العطرية إلى طائر يغني في الصباح.

هرب أحدهم من الشمس آخذاً معه جميع النساء.

لا يوجد ضحك في أغنية الضفادع الصغيرة في الجزر الكاريبية. كان هؤلاء هم أطفال «التينو» في تلك الأيام حين كانوا ينادون أمهاتهم كانوا يقولون: «تو، تو».

- الخفاش -

حين كان الزمن ما يزال في مهده، لم يكن يوجد في العالم مخلوق أقبح من الخفاش.

صعد الخفاش إلى السماء ليبحث عن الإله لم يقل له أنا ضجر من كوني أبدو قبيحاً وأريدك أن تمنحني ريشاً ملوناً. قال له: «من فضلك امنحني ريشاً فأنا أموت من البرد».

ولأنه لم يبق لدى الإله ريشة واحدة قرّر الإله: «سيمنحك كل طائر ريشة».

وهكذا حصل الخفاش على الريشة البيضاء من الحمامة وعلى الخضراء من الببغاء وعلى القزحية من الطنان وعلى الوردية من البشروس وعلى الحمراء من قنزعة الكاردينال وعلى الزرقاء من ظهر الرقراق وعلى الصلصالية من جناح النسر وعلى الريشة الشمسية التي تتوهج في صدر الطوقان.

وبدأ الخفاش الغني بالألوان والنعموة يطير بين الأرض والسماء وفي كل مكان يذهب إليه يصبح الهواء منعشاً وتخرس الطيور إعجاباً. يروي شعوب الزابوتيك أن قوس قزح ولد من صدى طيرانه. نفخ الغرور صدره واكتسب نظرة ازدرائية ووجه ملاحظات مهينة. دعت الطيور إلى مؤتمر ثم طارت جميعاً إلى الإله. شرحت له: «إن الخفاش يسخر منا ونشعر بالبرد بسبب الريش الذي أخذه منا».

وفي اليوم التالي حين حلق الخفاش أصبح فجأة عارياً وسقط مطر من الريش على الأرض. ما يزال يبحث عنه. هذا الأعمى الدميم، عدو الضوء يحيا مختبئاً في الكهوف. حين يخيم الليل يخرج للبحث عن الريش المفقود طائراً بسرعة كبيرة ولا يتوقف أبداً لأنه يشعر بالعار إن رآه أحد ما.

- البعوض -

كان هناك كثير من الموتى في قرية النكتاز. كان يوجد في كل جسم ميت ثقب يُسرق منه الدم. كان المجرم طفلاً بدأ يقتل قبل أن يتعلم المشي. تلقى الحكم بالموت وهو يزأر من الضحك. اخترقوه بالرماح فأخرجها من جسمه وهو يضحك كأنها أشواك. قال الطفل: «سأعلمكم كيف تقتلونني».

اقترح على جلاديه أنه يجب عليهم أن يشعلوا ناراً كبيرة ويرموه فيها. تبعثر رماده في الجو وهكذا بدأت البعوضات الأولى المتلهفة للأذى بالطيران.

- العسل -

كان العسل هارباً من زوجتي أخيه بعد أن رميته مرات عديدة خارج الأرجوحة. طاردته ليلاً ونهاراً. شاهدته وهذا جعل اللعب يسيل من فميهما. نجحتنا فقط في الحلم في لمسه ولعقه وأكله.

استمر حقدتهما بالنمو. وفي أحد الصباحات وبينما كانت زوجتنا أخيه تستحمان عثرتا على العسل على ضفة النهر. ركضتا نحوه فتبلل بالماء. وحالما أصبح رطباً انحل العسل.

ليس من السهل العثور على العسل الضائع في خليج «باريا»، عليك أن تتسلق الأشجار وفأسك في يدك وتفتح الجذوع وتقوم بكثير من التنقيبات. يؤكل العسل النادر بمتعة وخوف لأنه يقتل أحياناً.

- البذور -

صنع «باتشاكاماك» الذي كان ولداً للشمس رجلاً وامرأة في كئبان «لورين».
لم يكن يوجد شيء يؤكل فمات الرجل من الجوع.
حين كانت المرأة منحنية لتبحث عن الجذور دخل إليها الشمس وصنع طفلاً.
غار باتشاماك فقبض على الطفل الحديث الولادة وقطعه إرباً لكنه تاب فجأة أو خاف من
غضب أبيه الشمس، فبعثر في العالم أشلاء أخيه المقتول.
نبئت الذرة من أسنان الطفل الميت ونما المنيهوت من عظامه. أخصب دمه الأرض، وبزغت
الأشجار المثمرة والتي تمنح ظلاً من اللحم المتناثر.
هكذا ولد الرجال والنساء على هذه الشواطئ وحيث لا تمطر السماء أبداً يعثرون على الطعام.

- الذرة -

صنعت الآلهة (كوييتشز- المايا) الأوائل من الطين عاش بعض منهم. كانوا ناعمين يفتقدون
للقوة، تساقطوا قبل أن يقدرُوا على المشي.
بعد ذلك جرّبت الآلهة الخشب. تحدثت الدمى الخشبية ومشيت إلا أنها كانت يابسة ولم
تمتلك دماً أو جوهرًا، ذاكرةً أو هدفاً. لم تعرف كيف تتحدث مع الآلهة، أو لم تستطع أن تفكر
بأي شيء تقوله لها.
بعد ذلك صنعت الآلهة الأمهات والآباء من الذرة. صاغت لحمها من الذرة البيضاء والصفراء
النساء والرجال الذين ولدوا من الذرة رأوا مثل الآلهة وشملت نظرتهم جميع أنحاء العالم.
أرسلت الآلهة عليهم نفساً وتركزت أعينهم مظلمة إلى الأبد لأن الآلهة لم ترغب أن يرى الناس
ما وراء الأفق.

- التبغ -

توسّل هنود «الكاريري» إلى الجدّ أن يسمح لهم بتجريب لحم الخنازير البرية التي لم تكن قد
وجدت بعد، إلا أن الجدّ، والذي يدعى مهندس الكون اختطف أطفال الكاريري الصغار وحولهم
إلى خنازير برية ثم خلق شجرة مرتفعة جداً ليتمكنهم من الهرب إلى السماء.
طارد الناس الخنازير في الشجرة من غصن إلى آخر، واستطاعوا أن يقتلوا بعضها. أمر الجد
النمل أن يقوّض الشجرة. حين سقطت تعرّض الصيادون لكسور في عظامهم. ومنذ أن حدث السقوط
الكبير أصبحنا جميعاً نمتلك عظاماً مقسمة وأصبحنا قادرين على تحريك أصابعنا وأرجلنا وأجسادنا.

أقيمت مأدبة كبيرة من لحم الخنازير الميته في القرية.
وجه الناس دعوة إلى الجد ليهبط من السماء حيث كان يعتني بالأطفال الذين نجوا من الصيد
إلا أنه فضل أن يبقى فيها.
أرسل الجد التبغ ليأخذ مكانه بين البشر. حين يدخنون يتحدثون مع الإله.

- المته -

كانت القمر متلهفة لتخطو على الأرض. رغبت أن تتذوق الفاكهة وتستحم في أحد الأنهار.
شكراً للسحاب الذي مكنها من النزول. غطت السحب السماء من المغيب إلى الفجر فلم يلمح
أحد غياب القمر.
كان الليل مدهشاً على الأرض. مشت القمر في غابة «البارانا» وحصلت على عطور سرية
وأطاييب وسبحت طويلاً في النهر. أنقذها فلاح عجوز مرتين. حين كان الينور على وشك أن يغرز
أنياقه في عنقها قطع العجوز حنجرة الوحش بمديته. وحين جاعت القمر أخذها إلى منزله. قدمت
لها زوجة الفلاح كمكات الذرة المدورة ثم اعتذرت شاكية من الفقر.
في الليلة التالية نظرت القمر من السماء إلى الأسفل حيث كان منزل صديقها الذي بناه في
فسحة غابية بعيدة جداً عن القرى وعاش فيه منفياً مع زوجته وابنته.
ورأت القمر أنه لم يعد يوجد طعام في الكوخ بعد أن قُدمت لها آخر كمكات الذرة. فالتفتت
إلى أنوارها الأكثر إشعاعاً وطلبت من الغيوم أن تمطر مطراً خاصاً جداً حول الكوخ.
في الصباح نمت أشجار مجهولة وظهرت بين أوراقها السوداء أزهار بيضاء.
لم تمت ابنة الفلاح العجوز أبداً. أصبحت ملكة المته وبدأت تتجول في أنحاء العالم لتقدمها إلى
الآخرين. إن المته توقف النائمين وتُنشط الخاملين وتواخي بين البشر الذين لا يعرفون بعضهم.

- المنيموت -

لم يمسه رجل، إلا أن ولداً ذكراً نما في حوض ابنة الزعيم.
سموه ماني. بعد بضعة أيام من ولادته بدأ يجري ويتحدث. جاء البشر من زوايا الغابة البعيدة
ليقابلوا ماني الإستثنائي.
لم يُصب ماني بأي مرض لكنه حين بلغ العام قال: «سأموت»، ومات.
بعد وقت قصير نمت نبتة لم ترى من قبل على قبر ماني وكانت الأم تسقيها كل يوم. نمت
النبتة. أزهرت وأثمرت كانت الطيور التي تنقرها تطير بشكل غريب تغني وتدور بجنون.

الأصوات الأولى

في أحد الأيام انشقت الأرض في المكان الذي يستلقي فيه ماني. أدخل الرئيس يده وسحب جذراً لحمياً كبيراً. طحنه بالحجر ووصنع عجينة ثم عصرها وبدفء النار صنع الخبز للجميع. سموا الجذر «ماني أوكا»، «منزل ماني»، ويسمى «مانيوك» في الحوض الأمازوني وأماكن أخرى.

- البطاطس -

رغب زعيم من جزيرة «تشيلو» المزدحمة بنوارس البحر أن يمارس الحب مع الآلهة. حين تعانقت الآلهة المتزوجة اهتزت الأرض وارتفعت أمواج كبيرة. كان هذا معروفاً كثيراً جداً إلا أنه لم يشاهد أحد ذلك. سبح الزعيم إلى الجزيرة الممنوعة متلهفاً لمفاجئة الآلهة. كل ما استطاع رؤيته عطاءة عملاقة، فمها مفتوح مليء بالزبد. لسانها كبير بشكل غير مألوف ويخرج من رأسها النار. دفنت الآلهة الزعيم الذي لا يمتلك حكمة في الأرض وحكمت عليه بأن يأكله الآخرون. وكعقاب على فضوله غطت جسده بأعين عمياء.

- المطبخ -

عثرت امرأة من شعب «التيلاموك» على كوخ في وسط الغابة كان يصدر دخاناً. دفعها الفضول إلى الإقتراب والدخول. كانت النار تشتعل بين أحجار في وسط الكوخ وتتدلى من السقف أسماك السلمون. سقطت واحدة على رأسها. التقطتها المرأة وعلقتها في مكانها. سقطت السمكة مرة ثانية وضربت على رأسها. علقتها ثانية إلا أنها كررت السقوط. رمت المرأة الجذور التي جمعتها لتأكلها في النار. أحرقتها النار في ومضة. غاضبة، ضربت المرأة النار بالمسعر بعنف حتى أن النار كانت على وشك الإنطفاء حين وصل صاحب المنزل وهدأ ذراعها.

بعث الرجل الغامض الحياة في ألسنة اللهب وجلس إلى جانب المرأة وشرح لها: «لم تفهمي». كانت على وشك اطفاء النار لأنها ضربتها وبعثرت جمارها. وهذا عقاب لا تستحقه. أكلت النار الجذور لأنها اعتقدت أن المرأة قدمتها إليها. وقبل ذلك كانت النار هي التي سببت سقوط السمكة عدة مرات على رأس المرأة لا لتؤذيها بل لتخبرها أنه بوسعها أن تطبخها. - أطبخها؟ ماذا يعني هذا؟

وهكذا علم صاحب المنزل المرأة كيف تتحدث مع النار وتشوي السمك على الجمر وتأكله بشهية.

- الموسيقى -

حين أصدر الروح (بوبي - جوكو) لحناً بزغت الذرة من الأرض دون توقف، نيرةً وقدمت آذاناً عملاقةً مليئةً بالحبوب.

قطفت امرأة الذرة بطريقة خاطئة. شددت أذنًا بقوة فآذنتها. انتقمت الأذن وجرحت يدها.

أهانَت المرأة (بوبي جوكو) ولعنت صفيرة.

حين أغلق بوبي جوكو شفّتيه ذبلت الذرة ويبست ولم يُسمع بعد ذلك الصغير المرح الذي جعل حقول الذرة تتبرعم ومنحها القوة والجمال. كان شعب «البورورو» يحرق الذرة بألم ومشقة ويحصد محاصيل بائسة.

إن الأرواح تعبّر عن نفسها بالصغير وحين تبزغ النجوم في الليل تحييها بهذه الطريقة وتستجيب كل نجمة إلى نغم هو اسمها.

- الموت -

بنى «كوموكمز» هنديّ المودوك الأول قرية على ضفة نهر. ورغم أنها تحتوي مساحةً واسعةً لتتحرك فيها الدببة وتنام، شكت الأيائل أن الطقس باردٌ جداً ولا يوجد عشبٌ كافٍ.

بنى «كوموكمز» قرية أخرى بعيدة وقرّر أن يقضي نصف سنة في كل من القريتين. وقسم السنة من أجل هذا إلى ستة أشهر صيفية، وستة أشهر شتوية وخصّص الشهر المتبقي للحركة.

مضت الحياة هانئة في القريتين. ازدادت الولادات بشكل مدهش إلا إن الموتى رفضوا أن يخرجوا من القرية فأصبح عدد السكان كبيراً ولم يعد يوجد طريقة لإطعامهم.

قرّر «كوموكمز» أن يتخلّص من الموتى. كان يعرف أن رئيس أرض الموتى رجل عظيم لا يسيء معاملة أحد.

حين توفيت ابنة «كوموكمز» الصغيرة غادرت بلاد المودوك كما أمر والدها.

يائساً، استشار «كوموكمز» الشيهم فقال له:

«أنت اتخذت القرار ويجب أن تتحمّل عواقبه كأى شخص آخر».

إلا أن «كوموكمز» سافر إلى أرض الموتى البعيدة وطالب باسترداد ابنته.

فقال له الهيكل العظمي الكبير الذي كان مسؤولاً هناك: «إن ابنتك هي ابنتي الآن. ليس فيها لحم ولا دمّ فما الذي تستطيع أن تفعله في بلادك؟»

قال كوموكمز: «أريدها مهما حصل».

فكر رئيس الموتى وقتاً طويلاً.

الأصوات الأولى

قال له محذراً: «خذها. ستمشي خلفك. وعندما تقترب من أرض الأحياء سيعود اللحم ويغطي عظامها. ولكن لا تلتفت إلى الوراء إلى أن تصل، أتفهم؟ سأمنحك هذه الفرصة». انطلق «كوموكمز» ومشى الفتاة خلفه.

لمس يدها عدة مرات. كان لحمها ينمو ودفنها يزداد في كل مرة. ولم ينظر أبداً إلى الخلف. ولكن حين ظهرت الغابات الخضراء في الأفق لم يستطع أن يتحمل القيد فأدار رأسه ملتفتاً، عندئذٍ تفتت حفنة من العظام أمام عينيه.

- الإنبعاش -

كان من عادة الميت أن يعود بعد خمسة أيام في البيرو. كان يشرب كأساً من «الشيك» ويقول: «أنا الآن خالد».

كان يوجد كثير من البشر في العالم. كانت المحاصيل تزرع في قاع الجروف وعلى حواف المهوي ومع ذلك لم يكن الطعام كافياً. بعد ذلك مات رجل في «هواروتشيري».

اجتمعت القبيلة كلها في اليوم الخامس لتستقبله. انتظروه من الصباح إلى ما بعد حلول الليل. بردت الصحون الساخنة وبدأ النوم يطبق الجفون. لم يعد الرجل الميت.

جاء في اليوم التالي. كان الجميع غاضبين. صرخت زوجته التي شعرت بالإهانة أكثر من الجميع: «أنت لا تصلح لشيء، دائماً لا تصلح لشيء». يتقيد جميع الأموات بالمواعيد إلا أنت». تلثم المنبعث مطلقاً بعض الأعذار إلا أن المرأة ضربته بعرنوس ذرة على رأسه وتركته في الخارج ممدداً على الأرض. عندئذ غادرت الروح الجسد وطارَت متحوّلةً إلى حشرة سريعة تصدر طيناً ولم تعد أبداً.

منذ ذلك الوقت لم ينبعث أي ميت ليختلط بالأحياء وينافسهم على طعامهم.

- السحر -

عاقبت امرأة عجوز من «التوكونا» بعض الفتيات اللواتي لم يقدمن لها الطعام. نزعت في الليل عظامهن من سيقانهن والتهمت لبيها وهكذا لم تستطع الفتيات أن يمشين أبداً.

تلقت العجوز في طفولتها وبعد ولادتها حلاً قوياً للإشفاء والإنقاذ من الضفدعة. علمتها الضفدعة أن تشفي وتقتل، أن تسمع أصواتاً لا تسمع وأن ترى ألواناً لا تلمح. تعلمت أن تدافع عن نفسها قبل أن تكتسب النطق. وقبل أن تتمكن من السير عرفت كيف تكون حيث لم تكن لأن رماح الحب والكراهية تخترق حلاً الأدغال الأكثر كثافة والأنهار الأكثر عمقاً.

حين قطع «التوكوناز» رأسها جمعت العجوز دمها بيديها ونفخته باتجاه الشمس وصرخت: - «روحي تدخل إليك أيضاً».

منذ ذلك الوقت يتلقى أي شخص يمارس القتل في جسده ودون أن يريد أو يعرف، روح ضحيته.

- الضحك -

رأى الخفاش الذي كان معلقاً إلى غصن من قدميه محارباً من «الكايابو» منحنيّاً على جدول. أراد أن يصادقه.

نزل إلى المحارب وعانقه. وبما أنه لم يكن يعرف لغة «الكايابو» تحدث معه بيديه. سحبت مداعبات الخفاش من الرجل الضحكة الأولى. وكلما كان يضحك كان يدبّ فيه الضعف. ضحك كثيراً إلى أن فقد كل قوته وسقط مغشياً عليه.

حين علم القرويون بذلك غضبوا كثيراً. حرق المحاربون كومة من الأوراق الجافة في كهف الخفاش وأغلقوا مدخله.

بعد ذلك تناقشوا، قرّر المحاربون أن الضحك يجب أن يقوم به فقط الأطفال والنساء.

- الخوف -

نادتهم الأجساد التي لا تُصدّق إلا أن رجال «النيفاكل» لم يتجاسروا على الدخول. شاهدوا النساء تأكل وتبتلع لحم السمك بالفم الأعلى بعد أن تمضغه بالفم الأسفل. كان يوجد أسنان بين سيقانهم.

وهكذا أشعل الرجال نيراناً ونادوا النساء وغنوا ورقصوا معهن.

جلست النساء في حلقة بأرجل متقاطعة.

رقص الرجال طوال الليل. تموجوا. التفتسوا. طاروا كالدخان والعصافير. وحين جاء الفجر سقطوا أرضاً مغشياً عليهم. رفعتهم النساء بلطف وقدمت لهم الماء ليشربوا.

كانت الأرض منقطة بالأسنان حيث كن يجلسن.

- السلطة -

كانت النساء في الأزمنة الغابرة تجلس في مقدمة المركب والرجال في مؤخرته. كانت النساء تصطاد الحيوانات والأسماك تغادر القرية وتعود إليها أنى شاءت. كان الرجال يبنون الأكواخ، يحضرون الطعام، يغذون النار ليطردوا البرد ويدبغون الجلود من أجل الملابس.

الأطوات الأولى

هكذا كانت حياة هنود «الأونا» و «الياغان» في تييرا ديل فوينو، إلى أن جاء يوم قتل فيه الرجال جميع النساء، وارتدوا الأقنعة التي صنعتها النساء لتخيفهم بها. أُعفيت فقط الفتيات الحديثات الولادة من القتل. حين كن يتربّين. كرّر القتل لهن أن قدرهنّ خدمة الرجال. صدّقن ذلك، أيضاً بناتهنّ صدّقن ذلك وبنات بناتهن.

- القوة -

في الأراضي التي وُلد فيها نهر «جوروا» كان «ميني» العجوز مالك الذرة يقدّم الحبوب مشويةً وهكذا لم يستطع أحد أن يزرعها. نجحت العظاءة في سرقة حبة طازجة منه. قبض عليها العجوز «ميني» ونزع حنكها وأصابها إلا أنها نجحت في تخبئة الحبة وراء ضرسها الخلفي، ثم بصقتها في الأرض المشاع. كان فكها كبيراً وأصابها طويلة جداً صعبة الانتزاع. كان العجوز ميني مالك النار أيضاً. انسلت الببغاء إلى جوارها، بدأت تصرخ بصوت مرتفع. ضربها العجوز ميني بكل شيء كان في متناول يده إلا أن الببغاء صدت القذائف إلى أن شاهدت عصا مضاءة في طريقها إليها، عندئذ أمسكتها بمنقارها الذي كان ضخماً كمنقار الطوقان وهربت. تبعها سيل من الشرر. أحرقت الجمار، التي كانت تهويها الريح، منقارها، إلا أنها كانت قد وصلت إلى الأشجار حين قرع العجوز ميني طبله وحرك عاصفة مطرية. وضعت الببغاء العصا المحترقة في جوف شجرة تحت حماية الطيور الأخرى، وطار راجعةً إلى المطر. أراحت المياه حروقها إلا أن منقارها قصّر وتحذّب وما يزال يظهر فيه ندبة بيضاء سببتها النار. حمت الطيور النار المسروقة بأجسادها.

- الحرب -

عند الفجر، أعلن البوق من الجبل أن الوقت قد حان للقوس والنشاب وبنادق النفخ. حين خيم الليل لم يبق شيء في القرية سوى الدخان. استلقى رجل بين الموتى دون أن يتحرك. لطح جسده بالدم وانتظر. كان الشخص الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من شعب «البلاوينغ». حين ذهب العدو نهض الرجل وتأمّل عالمه المدمر. سار بين البشر الذين تقاسموا معه الجوع والشبع. وبحث بلا جدوى عن شخص أو أثر لم يُمخ. خذره الصمت المرعب. أمرضته رائحة الدم والنار. شعر بقرف كونه حياً. فرمى نفسه بين أبناء قومه.

مع الضوء الأول جاءت النسور. لم يبق شيء داخل ذلك الرجل سوى ضباب، وتوق للنوم، وبقي أيضاً: أن يترك نفسه لأن يلتهم.
إلا أن ابنة الكندور فتحت باباً عبر الطيور آكلة الجثث المتحلقة. ضربت بقسوة بجناحيها وغاصت، فتمسك بقدميها وأخذته ابنة الكندور بعيداً.

- حفلات -

كان رجل من «الأنويت» يصطاد رنةً حين ظهر خلفه فجأة نسر.
قال النسر: «لقد قتلت شقيقك. إذا أردت أن تنقذ نفسك يجب أن تقيم حفلة في قريتك ليغني الجميع ويرقصوا».
- حفلة؟ غناء؟ ما هذا؟ ماهو الرقص؟

- تعال معي.
أراه النسر حفلةً. كان يوجد الكثير من الطعام الجيد والشراب، والطبل يقرع بقوة كقوة قلب أم النسر العجوز، وإيقاعه يرشد أبناءها عبر المساحات الواسعة للجليد والجبل. كانت الذئاب والثعالب وضيوف آخرون يرقصون ويغنون إلى شروق الشمس.
عاد الصياد إلى قريته.

فيما بعد، وبعد وقت طويل، عرف أن أم النسر العجوز وجميع عجائز العالم النسري كانوا أقوىاء ورشيقين وسريعين. تعلم البشر أخيراً أن يُغَنّوا ويرقصوا وأرسلوا إليهم، من بعيد، مباحج أدفأت الدم.

- الضمير -

حين انخفضت مياه «الأورينوكو» أحضرت القوارب الكاريبيين بفؤوس قتالهم.
لم يمتلك أحد فرصةً ضدّ أبناء اليغور. مهدوا القرى وصنعوا العيدان من عظام ضحاياهم. لم يخشوا أحداً. كان الشيء الوحيد الذي زرع الهلع فيهم شبح ولد في قلوبهم.
كان الشبح ينتظرهم خلف الأشجار. حطم جسورهم ووضع في ممراتهم نباتات متعرشة ومتشابكة. كان يسافر في الليل وليحرفهم عن الطريق كان يمشي إلى الخلف. كمن في المنحدر الذي تحطمت عليه الصخور، في الوحل الذي غاص تحت أقدامهم، في ورقة النبات السام، في لمسة العنكبوت. بنفس صرعهم. أدخل الحمى عبر آذانهم وسرق منهم الظل.
لم يكن ألماً، إلا أنه يؤذي. لم يكن موتاً، إلا أنه يقتل. كان اسمه «كاينما». ولد بين الغزاة لينتقم للمغزوين.

- المدينة المقدسة -

أمر «ويراكوتشا» الذي هرب من الظلمة الشمس أن يرسل فتاة وطفلاً إلى العالم ليضيئا الطريق للعميان.

وصل ولدا الشمس إلى ضفة بحيرة «تيتيكاكا» وانطلقا عبر الوهاد «الآندية». كانا يحملان سارية ذهبية، أينما غاصت من الضربة الأولى كانا يعثران على مملكة جديدة. وعلى العرش كانا يتصرفان كوالدهما الذي يمنح الضوء والوضوح والدفع ويسقط المطر والندى ويقوي المحاصيل ويكاثر القطعان ولا يترك يوماً يمر لا يزور فيه العالم.

حاولا أن ينصبا السارية في كل مكان إلا أن الأرض كانت تعيدها. اجتازا المرتفعات وعبرا الشلالات والهضاب. كانت أقدامهما تغير أي شيء فتتحول الأرض القاحلة إلى خصبة وتجف المستنقعات وتعود الأنهار إلى مجاريها. في الفجر كان يرافقهما إوز أبيض وفي المساء النسور. غرس ولدا الشمس أخيراً السارية قرب جبل «وانا كوري» حين ابتلعتها الأرض صعد قوس قزح في السماء.

بعد ذلك قال الآنكي الأول لأخته وزوجته:

- لنجمع البشر سوية.

كان الوادي الذي يمتد بين الجبال والمروج مغطى بأشجار خفيضة. ولم يكن أحد يمتلك منزلاً كان الناس يعيشون في الثغور أو خلف الصخور يقتاتون على الجذور ولم يعرفوا كيف ينسجون القطن أو الصوف ليحموا أنفسهم من البرد.

تبع الجميع ولدي الشمس. آمن الجميع بهما وعرف الجميع من تألق كلماتهما وأعينهما أن ولدي الشمس لم يكونا كاذبين. رافقوهما إلى المكان الذي كانت تنتظرهم فيه مدينة كوزكو العظيمة التي لم تكن قد ولدت بعد.

- الرحالة -

جاء مايا الكويتشز من الشرق.

حين وصلوا إلى الأراضي الجديدة حاملين آلهتهم على ظهورهم خافوا من أنه لن يوجد فجر. تركوا السعادة خلفهم في «تولان» ووصلوا مقطوعي النفس بعد رحلة طويلة مؤلمة. انتظروا عند حافة غابة «إزماشي» صامتين محتشدين معاً دون أن يجلس أحد منهم أو يتمدد ليسترخ. إلا أن الوقت مرّ وخيم الليل.

أخيراً ظهر نجم الصباح في السماء.

حضر هنود الكويتشز بعضهم ورقصوا، ثم، وكما يقول الكتاب المقدس: أشرقت الشمس كرجل.
منذ ذلك الوقت يجتمع هنود الكويتشز في نهاية كل ليلة ليحيوا نجم الصباح ويراقبوا ولادة الشمس حين يكون الشمس على وشك الظهور، يقولون:
- لقد جننا من هناك.

- أرض الميعاد -

تنقلوا أكثر من قرنين ليلاً ونهاراً، بلانوم، عراةً ومسحوقين. ذهبوا للبحث عن مكان تمتد فيه الأرض بين القصب والسعادي^(١)
ضاعوا مراراً. تبعثروا وتجمعوا ثانيةً. ضربتهم الرياح. اندفعوا إلى الأمام وانطلقوا. ارتطموا ببعضهم وتدافعوا. سقطوا من الجوع ونهضوا. سقطوا ثانية ثم نهضوا من جديد. وفي الإقليم البركاني حيث لا ينمو عشب أكلوا لحم الثعابين.
حملوا رايةً وعباءة الإله الذي تحدث مع الكهنة في الحلم ووعدهم بمملكة من الذهب وريش الكتزل قال لهم: «سوف تُخضعون جميع الشعوب والمدن من الماء إلى الماء، وليس بالسحر بل بشجاعة القلب وقوة الذراع».
حين اقترب من البحيرة المتألثة تحت شمس الظهيرة بكى شعب الآزتيك للمرة الأولى. كان هناك جزيرة الصلصال الصغيرة: فوق الصبار الشوكي والأسل والأعشاب البرية كان النسريد فرد جناحيه.
حين رآهم قادمين أخفض رأسه. كان هؤلاء المنبوذون المحتشدون على حافة البحيرة، القذرون، المرتجفون، الشعب المختار الذي ولد في الأزمنة الغابرة من أفواه الآلهة.
رحب بهم هويتزيلو بوتشلي: «هذا هو مكان راحتنا وعظمتنا». تعالى رنين صوته: «أمر أن تدعى هذه المدينة التي ستكون ملكة على جميع المدن الأخرى «تينوشيتلان»: هذه هي المكسيك»

- أخطار -

حذر الذي خلق الشمس والقمر «التينوز» وطلب منهم أن يراقبوا الموتى.
يختبئ الموتى في النهار ويأكلون ثمر الغواصة، ولكن في الليل يتجولون ويتحدثون الأحياء. كان الرجال الموتى يطلبون المبارزة والنساء الميتات ممارسة الحب. كانوا يختفون فوراً في المبارزات، وفي

(١) - السعادي: نوع من النبات.

الأساطير الأولى

ذروة الحبّ كان يجد العاشق نفسه وحيداً ولاشيء بين ذراعيه. على المرء أن يتحسّس البطن بيده قبل أن يقبل مبارزة رجل أو النوم مع امرأة لأن الموتى لا يمتلكون سرّاً. حذر إله السماء «التيوز» أيضاً أن يراقبوا حتى البشر الذين يرتدون ثياباً كثيرة. صام الرئيس كايسيمو لمدة أسبوع وكان جديراً بكلماته: أعلن الواحد اللامرئي، الذي له أم ولابدأية له أن متعة الحياة ستكون قصيرة. سيأتي رجال يرتدون الملابس وسوف يهيمنون ويقتلون.

- بيت العنكبوت -

حلم كاهن «السيو» شارب الماء أن مخلوقات أجنبية كانت تنسج بيت عنكبوت ضخم جداً حول شعبه. استيقظ عارفاً أن هذا سيحدث وقال لشعبه: «حين يحدث هذا ستعيشون في منازل رمادية مربعة على أرض عارية وقرب تلك المنازل الرمادية المربعة ستموتون من الجوع».

- النبي -

أصغى الكاهن - اليغور «الليوكاتان» إلى رسالة الآلهة وهو ممدّد على الحصير. تحدثوا معه عبر السقف بلغة لم يكن يعرفها أحد.

تذكر شيلاام بيلام، الذي كان الناطق باسم الآلهة مالم يحدث بعد:

«سيتبعثر في أنحاء العالم النساء اللواتي يغنين والرجال الذين يغنون.. لأحد سينجو.. لأحد سينقذ سيسود البؤس في سنوات حكم الجشع... سيحول الرجال إلى عبيد. حزينا سيكون وجه الشمس... سيخلو العالم من السكان سيصبح صغيراً وذليلاً».

عالم جديد قديم

١٤٩٢ م: البحر المحيط

- مسار الشمس إلى الأنديز -

النسائم عذبة وعليلة كالتى يجود بها ربيع «سيفيل» والبحر يشبه نهر «كواد الكويفيرى». لكن حالما ترتفع الموجة سرعان ما يصيبهم دوار البحر فيتقيأون وهم مضغوطون في مقدمات السفن، الرجال الذين يشقون البحر المجهول، البحر الذي بلا إطار على متن ثلاث سفن صغيرة متجاورة. رجال، قطرات صغيرة في الريح. ولنفترض أن البحر لا يحبهم؟ الليل يخيم على السفن الشراعية. هل ستؤرجحها الريح؟ يقفز الأدورادو وهو يطارد سمكة طائفة على سطح السفينة ويزداد الهلع. لا يُقدَّر الطاقم العطر الزعترى للبحر الذي يتموج لامبالياً ولا يصغون إلى ضجيج النوارس وطيور الطيش التي تجيء من الغرب. ذلك الأفق: هل تبدأ الهاوية من هناك؟ هل ينتهي البحر؟

عيون تشعّ منها الحمى لبحارة ضربهم الطقس في ألف رحلة، أعينٌ لامعة لمجرمين مزمنين يُجرّون من السجون الأندلسية إلى السفن بالقوة: هذه الأعين لا ترى الإنعكاسات النبوية للذهب والفضة في زبد الأمواج ولا في طيور الجبال والأنهار التي تُحلّق فوق السفن ولا في الأسل الأخضر والأغصان الكثيفة التي تعلق بها القواقع ولا في الطحلب البحري. أهذا قاع الهاوية حيث يبدأ الجحيم بالاشتعال؟ في أي نوع من الأنياب ستقذف الرياح التجارية^(١) هؤلاء الرجال الصغار؟ يحدّقون بالنجوم باحثين عن الله، إلا أن السماء غامضة كهذا البحر الذي لم يُسير من قبل. يسمعون زئيره، البحر الأم، ذو الصوت الأجش، يجيب الريح بعبارات الإدانة الأبدية. طبول غامضة تقرر في الأعماق، يصلّبون أو يصلّون ويتمتمون: الليلة سننسحب من العالم، الليلة سننسحب من العالم.

(١) - رياح تهب باطراد نحو خط الإستواء.

١٤٩٢م : غواناهاني

- كولومبس -

يركع على ركبتيه باكياً. يقبل الأرض. يخطو إلى الأمام. يترنح لأنه لم ينم منذ شهر، ويقطع رؤوس بعض الأغصان بسيفه.

بعد ذلك يرفع الراية. متكئاً على ركبة واحدة بعينين مرفوعتين إلى السماء يلفظ ثلاث مرات : اسمي إيزابيلا وفرديناند. وإلى جانبه كان الناسخ رودريغو إيسكوبيدو، البطيء بالكتابة، يخطّ السند.

بدءاً من اليوم يصبح كل شيء لهذين الملكين البعيدين : البحر المرجاني، الشواطئ، الصخور المخضرة بالطحالب، الغابات، الببغاوات، والبشر العراة الذين لا يعرفون شيئاً إلى الآن عن الثياب والخطيئة أو النقود، والذين كانوا ينظرون إلى المشهد بحذر.

يترجم لوي توغي أسئلة كريستوف كولومبس إلى العبرية : «هل تعرفون مملكة الخان العظيم؟ من أين هذا الذهب الذي تعلقونه على آذانكم وأنوفكم؟».

يحدق به الرجال الذين تشبه جلودهم ورق الغار بأفواه فاغرة، يحاول المترجم أن يستخدم ذخيرته من اللغة الكلدانية : «الذهب؟ المعابد؟ القصور؟ ملك الملوك؟ الذهب؟».

يحاول بعد ذلك باللغة العربية، بالقليل الذي يعرفه منها : «اليابان، الصين؟ الذهب؟».

يعتذر المترجم لكولومبس باللغة القشتالية يشتم كولومبس باللغة الجنوية ويرمي أوراق اعتماده على الأرض وهي مكتوبة باللاتينية وموجهة إلى الخان العظيم. يراقب الرجال العراة غضب المتطفل ذي الشعر الأحمر والبشرة الخشنة الذي يرتدي قبعة مخملية وثياباً برّاقة جداً.

حالا سينتشر الخبر في جميع الجزر.

«تعالوا وشاهدوا الرجال الذين جاؤوا من السماء. أحضروا لهم الطعام والشراب».

١٤٩٣م : برشلونة

- يوم المجد -

يعلن عن حضوره المنادون بأبواقهم. تجلجل الأجراس، وتقرع الطبول مصدرة إيقاعات احتفالية. يصعد الأميرال الذي جاء مؤخراً من الأندلس الدرجات الحجرية، ويتقدم على السجادة القرمزية وسط الانبهار المترف لتصفيق حاشية البلاط الملكي. يصل الرجل الذي جعل نبوءات القديسين صادقة إلى المنصة، يركع، ويقبل يدي الملكة والملك.

خلفه تتقدّم الغنائم. تتوهج على الأطباق نتف الذهب التي استبدلها كولومبس بمرايا صغيرة وقلنسوات حمراء في الحدائق البعيدة التي بزغت خديتاً من البحر. على الأغصان والأوراق الذابلة عُرضت جلود العظاءات والثعابين، وتدخل خلفها مرتجفةً وباكيةً الكائنات التي لم تشهد أبداً من قبل إنهم القلة التي نجت من الزكام وداء الحصبة والقرف من الطعام المسيحي والرائحة السيئة. ليسوا عراةً كما كانوا حين اقتربوا من السفن السراعية الثلاثة وأسروا. كانوا مكسوّين بالسرراويل والقمصان وبعض الببغاوات التي وُضعت على أيديهم ورؤوسهم وأكتافهم. تبدو الببغاوات بريشها الذي سرّقه الريح القذرة للرحلة هاجعةً كالرجال. لم يبق على قيد الحياة أحدٌ من الأطفال والنساء الذين أسروا.

سُمِعتْ تمتاماتٌ معاديةٌ في الصالون، الذهب قليل ولا أثر للفلل الأسود، لجوزة الطيب والثوم أو الزنجبيل ولم يُحضر كولومبس أية حوريات ملتحياتٍ أو بشرًا لهم أذبال أو أشخاصاً لهم عين واحدة أو رجل واحدة - وتلك القدم الكبيرة بما يكفي لتحمي من الشمس الحامية حين تُرفع إلى الأعلى.

١٤٩٣م: روما

- محمد آدم -

في الضوء الخافت لمبنى الفاتيكان الذي يفوح بعطور شرقية يملي البابا أمراً رسمياً. مرّ وقت قصير منذ أن مُنح رودريغو بورغيا من كسافيتا التابعة لفالنسيا اسم الإسكندر الرابع، ولم تمض سنة بعد على اليوم الذي اشترى فيه نقدياً الأصوات السبعة التي كانت تنقصه في المجمع المقدّس.

يكرس الإسكندر معظم وقته للإنغماس في الملذات ولا يفكر بسر الثالوث المقدس. الجميع يعرفون أنه يفضل القداسات القصيرة جداً ماعدا تلك القداسات الني يحتفل بها مهرجه «غابرييلينو» وهو مقنّع في غرفته الخاصة، ويعرف الجميع أن البابا قادر على إعادة تسيير موكب عيد القربان ليمر تحت شرفة امرأة جميلة.

إنه قادر أيضاً على تقطيع العالم وكأنه فُروج: يرفع يداً ويرسم حداً من رأس الكوكب إلى ذيله، عبر البحر المجهول ويسلم ممثل الله إلى الأبد كل ما اكتشف أو هو قيد الاكتشاف، في غرب هذا الحد، إلى إيزابيلا القشتالية وفرديناند الأراغوني وإلى ورثتهم على العرش الأسباني، ويعهد إليهما إرسال خبراء وحكماء ومثقفين، يخشون الله وطيبين إلى الجزر والأراضي المكتشفة أو التي ستُكتشف ليرشدوا السكان الأصليين إلى العقيدة الكاثوليكية وإلى العادات الحسنة. وتعود ملكية أي شيء يكتشف شرق الحد إلى التاج البرتغالي.

ألم وابتهاجٌ أشرعةٌ تُنشر: كان كولومبس في الأندلس يجهز لرحلة ثانية إلى الأقاليم التي ينمو فيها الذهب عناقيد على الكرمة وتنتظر الأحجار الكريمة في جماجم العظاءات.

٤٩٣م: ويهوسينكو

- أين الحقيقة؟ أين الجذور؟ -

ويهوسينكو، مدينة الموسيقى لا الحرب، التي تقع في وادي «تلاهكالا» هاجمها الآرتيكيون في ومضةٍ ودمروها وقدموا الأسرى أضاحي لآلهتهم.

في ذلك المساء، جمع ليكايهواتزن، ملك ويهوسينكو الشعراء من مناطق أخرى. تحدث الشعراء في حدائق القصر عن الزهور والأغاني التي جاءت إلى الأرض، إقليم اللحظة الهاربة، والتي جاءت من داخل السماء والتي لاتستمر إلا هناك في منزل واهب الحياة. يتحدث الشعراء ويشكون:

هل يمكن أن يكون الرجال حقيقيين؟

هل ستكون أغنيتنا حقيقية غداً؟

تتبع الأصوات بعضها الآخر. حين يخيم الليل، يشكرهم ملك ويهوسينكو ويودعهم:

نعرفُ شيئاً حقيقياً

وهو قلوب أصدقائنا

٤٩٣م: باستو

- الجميع يدفعون الجزية -

وصل جابي ضرائب إمبراطورية الأنكا حتى إلى تلك المرتفعات البعيدة في الشمال. لم يكن لدى شعب «الكويلاسينكا» شيء يدفعه، ولكن في هذه المملكة الواسعة تدفع جميع القبائل الجزية سلعاً أو عملاً. لأحد، مهما كان بعيداً أو فقيراً يستطيع أن ينسى من هو المسؤول. عند سفح البركان يخطو زعيم «الكيلاسينغاز» إلى الأمام ويضع أسطوانة خيزرانية في يد مبعوث كوزكو. كانت الأسطوانة مليئة بالقمل.

٤٩٣م: جزيرة سانتا كروز

- تجربة ميغيل كينو من سافونا -

ينتشر ظلّ الأشرعة على البحر. تنوم أعشاب الخليج وقناديل البحر التي تدفعها الأمواج على سطح الماء متجهةً إلى الشاطئ.

كان كولومبس يتأمل عن ظهر إحدى السفن الشواطئ البيضاء التي نصب عليها مرة ثانية الصليب والمسنقة هذه هي رحلته الثانية. لا يعرف كم ستطول إلا أن قلبه يخبره أنها ستنتجح. ولماذا لا يصدق الأميرال هذا؟ أليس من عادته أن يقيس سرعة السفينة ويده على صدره تحصي خفقات قلبه؟

في سفينة أخرى وفي حجرة الكابتن كانت فتاة شابة تظهر أسنانها. حين يمد ميكيل سوفيو يده إلى ثدييها تخذشه وترفسه وتصرخ. حصل عليها ميكيل منذ فترة كهديّة من كولومبس.

يجلدها بحبل يضرب بقسوة على رأسها ومعدتها وساقها يتحول صراخها إلى أنين وأنينها إلى عويل. وفي النهاية، كان كل ما يمكن سماعه هو مجيء وذهاب النوارس وصرير الأخشاب المهترئة وبين فينة وأخرى كانت الأمواج تدخل رذاذاً عبر فتحة الرمي

يرمي ميكيل نفسه على الجسد النازف ويضغط. يشهق ويصارع. كان الهواء يفوح برائحة القار والملح الصخري والتعرق بعد ذلك، وفجأة تثبتت الفتاة التي بدا أنه أغمي عليها أو ماتت أظافرها على ظهر ميكيل ثم تلتفت حول قدميه وتدحرجه في عناقٍ عنيف.

حين يقذف ميكيل، بعد وقت قليل، لا يعرف أين هو، وما الذي حدث. شاحباً، خلص نفسه منها ورمها بعيداً بقبضته.

يتعثّر على سطح السفينة، بفم فاغر يأخذ نفساً عميقاً من النسيم البحري، ثم يقول بصوت مرتفع وكأنه يعلن حقيقة أبدية: «إن جميع النساء الهنديات عاهرات».

١٤٩٥م: سالامنكا

- الكلمة الأولى من أميركا -

ينشر إيليو أنطونيو نبريخا، عالم اللغات، قاموسه الإسباني - اللاتيني هنا. يتضمن القاموس المفردات الأميركية الأولى للغة القشتالية:

«كانو»: قارب مصنوع من لوح خشبي واحد.

جاءت الكلمة الجديدة من جزر الأنتيل.

رحّبت هذه القوارب غير الشراعية المصنوعة من جذوع الأشجار السيبة بكريستوف كولومبس. جاء الرجال من الجزر، يجذفون القوارب بشعر أسود طويل وأجساد موشومة برموز الزنجفر. اقتربوا من السفن الشراعية وقدموا مياهاً عذبة واستبدلوا الذهب بنوعٍ من الأجراس التنكية التي تباع بقطعة نقدية نحاسية واحدة في قشتالة.

١٤٩٥م: لا إيزابيل

- كاأونابو -

يجلس السجين منفصلاً منعزلاً عند مدخل منزل كريستوف كولبس. كان مقيداً بالأغلال من كاحليه ورسغيه.

كان هذا كاأونابو الذي أحرق حصن نافيداد الذي بناه أميرال البحر حين اكتشف جزيرة هايتي. أحرق الحصن وقتل ساكنيه ولم يتوقف الأمر عند ذلك. عاقب لمدة عامين بالنشأب الأسبان الذين كان يعثر عليهم في منطقته الجبلية «سيبو» حيث جاؤوا ليصطادوا الذهب والبشر.

زاره ألونزوا أوخيدا الذي تمرّس في الحروب ضد المغاربة بحجّة السلام. دعاه إلى ركوب حصانه ثم قيده بأغلال من الحديد المصقول قائلاً: «هذه كانت جواهر يرتدونها ملوك قشتالة أثناء حفلاتهم الراقصة».

ويمضي الزعيم «كاأونابو» الآن الأيام جالساً قرب الباب، عيناه مثبتتان على لسان ضوئي يغزو الأرض عند الفجر ويتراجع ببطء في المساء. لا يُرْفُ له جفن حين يأتي كولومبس، أما حين يظهر «أوخيدا» يحاول الوقوف ويحييه بانحناءٍ لأنه الرجل الوحيد الذي استطاع أن يهزمه.

١٤٩٦م: لا كونسيون

- انتهاك المقدسات -

يحضر بارثولوميو كولومبس، شقيق كريستوفر وقائمقامه حرق لحم بشري. ستة رجال يحترقون في محرقة هايتي.

يسعل الجميع من الدخان. يحترق الستة كعقوبة ودرس: لقد دفنوا صور المسيح والعذراء التي منحها لهم «رامون باني» لتحميمهم وتنصحهم. علمهم فراي رامون أن يصلوا على ركبتهم ويرددوا السلام المريمي والصلاة الربانية وأن يتحصنوا باسم يسوع ضد الإغراء والأذى والموت.

لم يسألهم أحد لماذا دفنوا الصور. كانوا يأملون أن هذه الآلهة الجديدة ستخصب حقول الذرة والنيهوت واللوبياء.

تضيف النار الدفء إلى الحرارة الرطبة اللاصقة التي تنذر بمطر غزير.

١٤٩٨م: سانتو دوسينغو

- الجنة الأرضية -

كان كريستوف كولومبس يكتب رسالةً في المساء قرب نهر «أوزما». كان جسده يصرُّ من الروماتيزم أما قلبه فكان يقفز من الفرح. كان المكتشف يشرح لصاحبي الجلالة الكاثوليكين أنه يمتلك دليلاً على أن الجنة الأرضية تقع على حلمة ثدي امرأة.

أدرك هذا منذ شهرين حين دخلت سفنه الشراعية إلى خليج «باريا». هناك بدأت السفن تصعد بهدوء نحو السماء .. مبحراً ضد التيار إلى حيث يفقد الهواء وزنه وصل كولومبس إلى الحدِّ الأبعد للشرق. هنا في أكثر أراضي العالم جمالاً يظهر الرجال الذكاء والبراعة والشجاعة ولا ترتدي النساء الرائعات سوى شعرهن الطويل وعقود اللؤلؤ الملتفة حول أجسادهن هنا يوقظ الماء العذب النقي الظمأ. الشتاء لا يعاقب والصيف لا يحرق وتداعب النسائم ماتلامسه. الأشجار تهبُّ الظلال المنعشة وتتدلى على مسافة ذراع ثمار فائقة البهجة تثير الجوع

لكن لاتستطيع أية سفينة أن تبحر خلف هذا الاخضرار والجمال. هذا هو حدُّ الشرق. هنا تنتهي المياه والأراضي والجزر. هنا ترفع شجرة الحياة عالياً وبعيداً تاجها الكبير ويُرَبَّدُ منبع الأنهار المقدسة الأربعة. يُدعى أحدُ هذه الأنهار «أورينوكو» وأشك إذا كان نهر عظيم وعميق كهذا معروف في العالم.

ليس العالم كروياً. العالم حلمة امرأة تبدأ الحلمة في خليج «باريا» وتصل إلى نقطة قريبة جداً من الفردوس السماوي. أما القمة التي تتدفق عليها أنساغ الفردوس لن يصل إليها أبداً أي إنسان.

- لغة الجنة -

يسمى «الكواروس» الذين يعيشون في ضواحي الجنة الأرضية قوس قزح ثعبان العقود، والسماء البحر الأعلى. يسمون البرق توهج المطر، والصديق قلبي الآخر، والروح شمس الصدر، والبومة سيدة الليلة المظلمة، والعكاز الحفيد المستمر، وبدلاً من: نغفر لكم. يقولون: ننسى.

١٤٩٩م: غرناطة

من هم الأسبان؟

تبقى المساجد مفتوحة في غرناطة، بعد سبع سنواتٍ من استسلام معقل العرب الأخير في إسبانيا. كان تقدُّم الصليب بطيئاً خلف نصر السيف. يقرر رئيس الأساقفة سيزينيروس أن المسيح لا يستطيع الانتظار.

«المغاربة»، هو الإسم الذي أطلقه المسيحيون الأسبان على أسبانيي الثقافة الإسلامية الذين عاشوا هنا ثمانية قرون. حُكِمَ على آلاف مؤلفة من الأسبان ذوي الثقافة اليهودية بالنفي. كذلك خُيِّرَ المغاربة بين العمادة والمنفى، أما بالنسبة للمرتدين المزيفين فقد أوقدت نيران محاكم التفتيش. إن وحدة أسبانيا، أسبانيا التي اكتشفت أميركا لن تنتج من حاصل جميع أجزائها. يُساق فقهاء غرناطة المسلمين إلى السجون بأمر من رئيس الأساقفة سيزينيروس. تلتهم السنة لهبٍ عاليةٍ الكتب الدينية والشعرية والفلسفية، النسخ الوحيدة التي تحرس كلمات ثقافة رَوَتْ هذه الأراضي وعاشت فيها. كانت قصور الحمراء المزدانة بالنقوش تشهد صامتةً على العبودية بينما كانت ينابيعها ماتزال تُقدِّم الماء إلى الحدائق.

.. ١٥٠م: فلورنسا

- ليوناردو -

يعود من السوق حاملاً أقفاصاً متنوعة على ظهره. يضعها على السُرْفَة. يفتح أبوابها الصغيرة وتنطلق الطيور. يراقب الطيور وهي تضيع في السماء مرفقةً بفرح ثم يجلس ليعمل. يدقُّ يده شعاعُ الظهيرة، وعلى لوحٍ عريض يرسم ليوناردو دي فينشي العالم، وفي العالم الذي يرسمه ليوناردو تظهر الأراضي التي اكتشفها كولومبس وقت الغروب. يبتكرها الفنان كما ابتكر الطائرة والدبابة والمظلة والغواصة ويعطيها شكلاً كما جسّد لغز العذارى وأهواء القديسين: يتخيّل جسد أميركا، التي ماتزال لاتملك اسماً ويحددها كأرض جديدة وليس كجزء من آسيا. كولومبس، الذي كان يبحث عن المشرق اكتشف الغرب. يخمّن ليوناردو أن العالم كَبُرَ.

١٥٠٦م: فالادوليد

- الرحلة الخامسة -

أملى وصيته ليلة أمس وسأل في الصباح إذا وصل مبعوث الملك ثم نام. أطلق أنيناً وصدرت عنه كلمات فارغة. مايزال يتنفس ولكن بصعوبة كأنه يصارع الهواء. لم يصنع أحد في البلاط إلى توسلاته. عاد من الرحلة مقيداً بالأغلال ولم ينتبه أحد في الرحلة الرابعة إلى ألقابه الرفيعة ومناصبه.

يخرج كريستوف كولومبس عارفاً أنه لا يوجد حبّ أو مجد لايقود إلى ألم. ولكنه، من جهة أخرى لايعرف أن الراية التي نصبها لأول مرة سوف ترفرف بعد خمسة أعوام فوق مملكة الآزتيك في أراض مجهولة وفوق مملكة الأنكا، تحت السماوات المجهولة للصليب الجنوبي. لايعرف أنه

عالم جديد قديم

رغم كل كذبه ووعوده وتهويماته مايزال مقصراً. الأميرال الأعلى للبحر المحيط مايزال يؤمن أنه وصل إلى آسيا من الخلف.

لن يسمّى المحيط بحر كولومبس ولن يحمل اسمه العالم الجديد بل اسم صديقه الفلورنسي أمير يكوفيسبوتشي، البحار والربان الماهر. إلا أن كولومبس هو الذي اكتشف لوناً مذهباً لم يوجد في قوس قزح الأوروبي. يفقد بصره ويموت دون أن يشاهده.

١٥٠٦م: تينوشيتلان

- الإله الكوني -

غزا موكيتزوما تيوكتيبيك

النار تلتهم المعابد، الطبول تقرع يصعد السجناء واحداً بعد آخر الدرجات إلى حجر الأضاحي الدائري. يطعن الكاهن كل صدر بالخنجر المقدس ينتزع القلب. يرفعه إلى الأعلى ويريه للشمس الذي يشرق فوق البراكين الزرقاء.

إلى أي إله كان يمنح الدم؟ الشمس يطلبه ليولد كل يوم ويسافر من أفق إلى آخر. إلا أن طقوس الموت المذهلة تخدم أيضاً إلهاً آخر لا يظهر في المخطوطات ولا في الترانيم.

لو لم يحكم ذلك الإله العالم لما كان هناك عبيد وأسياد، إقطاعيات ومستعمرات، لما استطاع تجار الآزتيك أن يغتصبوا ماسة مقابل حبة لوبياء من الشعوب المهزومة ولا الكاكاو مقابل الأحجار، لما عبر الحمّالون شساعة الإمبراطورية حاملين أطناناً من الضرائب على ظهورهم ولقدّر العامة على ارتداء الأردية القطنية ولشربوا الشوكولاتة وتزيّنوا بجرأة بريش الكتزل المنوع وخلاخيل الذهب ونبات المغنولية والسحلبية الخاصة بالنبلاء، لسقطت عندها الأقنعة التي تخبىء وجوه الزعماء المحاربين: منقار النسر، أنياب النمر، الريش الذي يتموج ويتلألأ في الجوّ. تتلطح درجات المعبد العظيم بالدم وتتكوّم الجماجم وسط الساحة العامة. ليس هكذا فقط يجب أن يتحرك الشمس، لا، أيضاً هكذا سيقرّر الإله السريّ بدلاً من الإنسان تبجيلاً لذلك الإله وعبر البحر يشوي وكلاء محاكم التفتيش الهراطقة في النيران أو يزجون بهم في غرف التعذيب. إنه إله الخوف. إله الخوف الذي له أسنان جرد وجناحا عقاب.

١٥١١م: نهر كوارافو

- أكوينايا -

وصل الكابتن بونس ليون إلى جزيرة بوپرتوريكو منذ ثلاثة أعوام على ظهر سفينة شراعية. فتح له الزعيم أكوينايا باب منزله وقدم له طعاماً وشراباً وطلب منه أن يختار إحدى بناته. منحه اسمه أيضاً وبدأ بونس دي ليون يدعو نفسه أكوينايا واستبدل أكوينايا اسمه باسم الغازي.

منذ ثلاثة أيام جاء الجندي سالسيدو وحده إلى ضفة نهر كوارفو. قدّم الهنود ظهورهم له ليعبر عليها. حين وصلوا إلى منتصف النهر رموه عن ظهورهم ثم حملوه باتجاه قاع النهر إلى أن توقف عن الرفس بقدميه، ثم مدّوه على العشب

تحوّل سالسيدو إلى كرة أرجوانية من اللحم الملوي عُصرت إلى أن تحولت إلى درع تهاجمه الحشرات ويتعفن بسرعة تحت الشمس. ينظر إليه الهنود وأيديهم على أنوفهم. توسّلوا ليلاً ونهاراً إلى الغريب طالبين الصفح. إن مادفعهم إلى ذلك هو الشك. لافائدة الآن. تذيع الطبول الأخبار الجيدة: «الغزاة غير خالدين».

غداً ستبدأ الانتفاضة بقيادة أكوينا. سيعود زعيم المتمردين إلى اسمه القديم. سيستعيد اسمه الذي استخدم ليذل شعبه.

كو - كوي، كو - كوي: تصيح الضفادع الصغيرة. أوقفت الطبول التي تدعو إلى الحرب أنغامها الكريستالية الرتيبة المضادة.

١٥١١م: آيهاكو

- بيسيريللو -

أُخمد العصيان المسلّح للزعيمين أكوينا ومابوداماكا وقُتل جميع الأسرى. يعثر الكابتن ديبغو سالزار على المرأة العجوز المختبئة بين الأشجار المتشابكة ولا يطعننها بسيفه. يقول لها: «خذي هذه الرسالة إلى الحاكم في كابارا». تفتح العجوز عينيها قليلاً ثم تسحب أصابعها مرتجفة. تمشي مترنحة كولد صغير حاملة الظرف كأنه راية. بينما كانت العجوز ماتزال في المدى المجدي لقوس النشاب يطلق الكابتن سراح بيسيريللو. أمر الحاكم بونس دي ليون أن بيسيريللو يجب أن يحصل مرتين على ما يُدفع لرامي القوس، كخبير أدغال وصياد هنود. ليس لهنود بويرتوريكو عدو أسوأ منه. يُسقط السهم الأول المرأة. بيسيريللو ذو الأذنين المرتفعتين والعينين الناتئتين سيفترسها بعضّة واحدة.

توسّلت إليه: «أيها السيد الكلب: أنا أحمل رسالة إلى الحاكم».

لا يفهم بيسيريللو اللغة المحلية فتريه المرأة الظرف الفارغ.

- «لاتؤذيني أيها السيد الكلب».

يشمّ بيسيريللو الظرف. يدور عدّة مرات حول حقيبة العظام التي تئن، يرفع حافره ويبول عليها.

١٥١١م: يارا

- هاتوي -

في هذه الجزر، في مواضع الصلب هذه، الذين يختارون الموت بشنق أنفسهم، أو يشربون السم مع أولادهم عددهم كبير. لا يستطيع الغزاة أن يتجنبوا هذا الانتقام ولكنهم يعرفون كيف يشرحونه: الهنود متوحشون، يظنون أن كل شيء مشاع كما سيقول أفيديو. إنهم بشر كسالى بالفطرة وماكرون ويقومون بعمل قليل. وتمضية للوقت انتحر كثير منهم بالسم كي لا يعملوا وشنق آخرون أنفسهم بأيديهم.

لم يقتل هاتوي الزعيم الهندي لإقليم الكواهابا نفسه. هرب مع قومه من هايتي في قارب واختبأوا في كهوف الجبال إلى الشرق من كوبا.

هناك أشار إلى الذهب وقال: «هذا هو إله المسيحيين. إنهم يطاردوننا من أجله ومات آباؤنا وأخوتنا من أجله. دعونا نرقص له، إذا أفرحه رقصنا سيأمرهم هذا الإله ألا يسيئوا معاملتنا». قبضوا عليه بعد ثلاثة أشهر.

قيدوه وساقوه إلى المحرقة.

قبل أن تشعل النار التي ستحوطه إلى فحمٍ ورمادٍ يعده الكاهن بالمجد والراحة الأبدية إذا وافق على العمادة. يسأل هاتوي:

- «هل يوجد مسيحيون في ذلك الفردوس؟»

- «نعم».

يختار هاتوي الجحيم ويبدأ الخشب بالصرير.

١٥١١: سانتو دومينغو

- الاحتجاج الأول -

في الكنيسة المبنية من جذوع الأشجار والمسقوفة بأغصان النخيل يصخب الراهب الدومينيكاني أنطونيو مونتيسينوس كالرعد مستنكراً الإبادة الجماعية:

من منحكم حق استعباد الهنود بهذا النير المتوحش والمريع؟ تقومون بقتلهم لتحصلوا على الذهب كل يوم. أحببهم كما تحبون أنفسكم؟ ألا تفهمون هذا؟ ألا تشعرون؟

تتعالى همسات الغضب. لم يساوم على هذا فلاحو استريما دوريا ورعاة الأندلس الذين أنكروا أسماءهم وتوارى عنهم وتحركوا عشوائياً حاملين بنادق صدئة على أكتافهم بحثاً عن جبال الذهب والأميرات العاريات في هذه الجهة من المحيط. كان مايحتاج إليه هؤلاء المغامرون الذين تمّ شراؤهم بالوعود على عتبات كاتدرائية سيفيل، هؤلاء البحارة الذين لسعتهم البراغيث والذين لم يجربوا

ذاكرة النار

آية معركة، هؤلاء السجناء المحكومون الذين كان عليهم أن يختاروا بين أميركا أو السجن والمشنقة، هو قدّاس صفح وعزاء.

- «سوف نبّلع الملك فرديناند عنك. سيتمّ ترحيلك».

رجل حائر يبقى صامتاً جاء إلى هذه الأراضي منذ تسعة أعوام استملك هنوداً ومناجم ومزارع وأسّس ثروة صغيرة. هذا الرجل الذي يدعى بارتولومي لاس كاساس؟ سوف يصبح حالاً الكاهن الأول الذي تمت تسميته في العالم الجديد.

١٥١٣: كواريكّا

- ليونسيسو -

تظهر عضلاتها بشكل بارز. لا تتوقف أعينها الصفراء عن اللعان. تلهث تشهر أنيابها وتعضّ محدثةً ثقوباً في الهواء. لا تستطيع آية سلاسل أن تغلّها حين تتلقى الأمر بالهجوم.

الليلة، وبأمر من الكابتن بالبو ستغرّز الكلاب أنيابها في اللحم العاري لخمسين هندياً من بنما ستنتزع أحشاءهم وتلتهمهم. ارتكبوا ذنباً فاحشاً وهو اللواط. سيحصل المشهد في قمة الجبل بين الأشجار التي اقتلعتها العاصفة منذ بضعة أيام. كان الجنود يتقاتلون بالمشاعل ليحصلوا على المقاعد الأفضل.

يرأس فاسكو نونيز بالبو الإحتفال، أما كلبه ليونسيسو فيرأس الذي ينتقمون من أجل إرضاء الإله. جسد ليونسيسو، بن بيسيريللو مليء بالندوب. كان سيداً سابقاً للأسر والتقطيع. يحصل على راتب ملازم ثانٍ وعلى حصة من كل غنيمة ذهباً وعبيداً. بعد يومين سيكتشف بالبو المحيط الهادي.

١٥١٣: خليج سان ميكيل

- بالبو -

مخوضاً في الماء إلى خصره، يرفع سيفه ويصرخ بالرياح الأربع. يحفر رجاله صليباً كبيراً في الرمل. يسّجل الناسخ فالديرابانو أسماء الذين اكتشفوا لتوهم المحيط الجديد ويرتل الأب أندريه تسيحة الشكر.

يخلع بالبو درعه الذي يزن خمسين كيلوغراماً، يرمي سيفه بعيداً ويقفز. يطرّش ويترك الأمواج تجرّه، طائشاً من فرح لايعيه. يفتح له البحر أبوابه يعانقه ويهدده. يودّ بالبو أن يشربه إلى أن يجفّ.

١٥١٤ : نهر سينو

- المثل أمام القضاء -

عبروا كثيراً من المستنقعات والزمن وغذتهم الحرارة والغابات والبعوض. إنهم ينفذون، على أية حال، أوامر الملك بأن لا يهاجموا السكان الأصليين إلا بعد أن يطلبوا منهم الاستسلام. يعلن القديس أوغسطين الحرب ضد الذين يسيئون استعمال حريتهم لأنها ستجعلهم يشكلون خطراً إذا لم يروّضوا، ولكن، وكما يقول القديس أسيدور: «لاتكون الحرب عادلة إذا لم يعلن عنها مسبقاً».

قبل أن يبدأوا البحث عن الذهب وعن معادن نفيسة بحجم البيض يقرأ المحامي مارتين فردينانديز دي أنكيسو بشكل كامل دون أن يغفل علامات الترقيم الإنذار الذي سترجمه المترجم بألم وعلى نحو متقطع.

تحدث أنكيسو باسم الملك فردينانديز والملكة جوانا، ابنته، مروّضي الشعوب البربرية. يوضح لهنود «السينو» أن الله جاء إلى العالم وترك القديس بطرس ممثلاً له وأن وريث القديس بطرس هو البابا المقدس وأن البابا المقدس إله الكون منح ملك قشتالة، جميع أراضي الآنديز بالإضافة إلى شبه الجزيرة هذه

يتحمّص الجنود في دروعهم، يطلب أنكيسو من الهنود ببطء ووسوسة أن يغادروا هذه الأراضي بما أنهم لا ينتمون إليها، أما إذا أرادوا البقاء فعليهم أن يدفعوا الجزية لأسيادهم كدليل على الطاعة. يبذل المترجم جهده.

يصغي الزعيمان وهما جالسان لا يرفّ لهما جفن للشخصية الغريبة التي تعلن لهما أنه في حالة الرفض أو التأخير ستُشنّ الحرب عليهما وسيحولان إلى عبيد مع نساتهما وأطفالهما وسيتمّ التخلص منهما بالبيع وأن الأسباب لن يتحمّلوا مسؤولية الحرب.

يجيب الزعيمان دون أن ينظرا إلى أنكيسو: إن الإله المقدس كريم جداً في التصرف بملكيّات الآخرين ولا بد أنه سكران ليقرر مصير مالا يملكه، وأن ملك قشتالة وقح لأنه جاء ليهذّب بشراً لا يعرفهم.

يتدفق الدم.

ثم تُقرأ الخطبة الطويلة في الليل، بدون مترجم وعلى بعد نصف فرسخ من القرى التي سيفاجئها الهجوم. السكان المحليون نائمون، لن يسمعوا الكلمات التي ستعلن أنهم مذنبون بجريمة ارتكبت ضدهم.

١٥١٤ : سانتا ماريا ديل داريين

- من أجل حبة الفاكهة -

يجرب غوانزالو فردينانديز أوفيدو. الوافد الجديد، فاكهة العالم الجديد. تبدو له الغوافة متفوقة على التفاح. وتبدو «الغوانا» حسنة المنظر وتمنح لباً أبيض مائياً يمتلك طعماً لذيذاً، ومهما أكلت منها لن يصيبك الأذى أو سوء الهضم. تمتلك المامي مذاقاً يجبرك أن تلحس أصابعك وتصدر رائحة ذكية، يقرر غوانزالو أن لاشيء أفضل منها.

إلا أنه يتذوق ثمار المشملة فيغزو رأسه عطر لا يمكن مقارنته بالمسك. يصحح خطاه ويقرر أن المشملة هي أفضل ثمرة ولا يمكن العثور على شيء يُقارَن بها.

بعد ذلك يقشر ثمرة أنناس فتفوح ثمرة الأنناس الذهبية بعطر كالذي يصدره الخوخ وتمنح الشهية للبشر الذين نسوا مُتَع الطعام لا يعرف أوفيدو كلمات تستحق أن تصف فضائلها. تُمَتِّعُ عينيه وأنفه وأصابعه ولسانه. إنها تتفوق على جميع الثمار كما يتفوق ريش الطاووس على ريش جميع الطيور.

١٥١٥ : أنتويرب

- اليوتوبيا -

يصخب مغامرو العالم الجديد في حانات الميناء الفلمنكي. يقابل توماس مور أو يخترع في الواجهة المائية، رافايل هيثلودي وهو بحار في أسطول أميريكو فيسبوتشي الذي يقول إنه اكتشف جزيرة اليوتوبيا قبالة أحد الشواطئ الأميركية.

يروى البحار أنه لا يوجد في اليوتوبيا مال أو ملكية خاصة. هناك يُشجّع احتقار الذهب والإستهلاك ولا يفتخر أحد بارتداء الملابس. يقدم الجميع ثمار عملهم إلى المخازن العامة ويأخذون بحرية ما يحتاجون إليه. يسير الإقتصاد وفق خطة ولا يُخزَنُ النقد، الذي هو ابن الخوف والجوع لا يُعرف. يختار الناس أميرهم ويمتلكون القدرة على الإطاحة به وينتخبون الكهنة. يكره سكان اليوتوبيا الحرب وأمجادها رغم أنهم يدافعون بوحشية عن حدودهم. يؤمنون بدين لايسيء إلى العقل ويرفضون إماتة الجسد والإكراه في الدين. يسمح القانون بالطلاق إلا أنه يعاقب بقسوة الخيانات الزوجية ويجبر كل شخص أن يعمل ست ساعات في اليوم، يتم تقاسم الراحة والعمل والمائدة. تعتني المجموعة بالأطفال حين يذهب الآباء إلى العمل ويحظى المرضى بعناية مميزة ويخلص القتل الرحيم من الآلام المبرحة. تشغل الحقائق والبساتين معظم المكان وتسمع الموسيقى أينما يذهب المرء.

١٥١٩ : فرانكفورت

- تشارلز الخامس -

يمرّ نصف قرن على موت غوتنبيرغ. تتكاثر المطابع في جميع أنحاء أوروبا: يطبعون الكتاب المقدس بأحرف قوطية ويكتبون الأرقام بحروف فضية وزهية. يقتبس الملك الرجال. يتبرّز البشر قطعاً ذهبية في لوحة هيرونيموش بوش: حديقة المتع. وبينما كان مايكل أنجلو يرسم وينحت أنبياءه وقديسيه كتب: «يبيع دم المسيح بالملعة». لكل شيء ثمنه: عرش البابا وتاج الملك، قبعة الكاردينال وتاج الأسقف. اشتريت صكوك الغفران والحرم الكنسي وألقاب النبالة. تعتبر الكنيسة الدين بالفائدة خطيئة إلا أن البابا يرهن أراضي الفاتيكان لأصحاب البنوك، وعلى ضفة الراين قدم تاج الإمبراطورية المقدسة إلى الذي دفع سعراً أعلى.

يتنازع ثلاثة مرشحين على إرث شارلمان. يقسم النახبون بطهارة أصواتهم وأيديهم ويدلون بشهادتهم ظهراً، ساعة صلاة التبشير: يبيعون تاج أوروبا إلى ملك أسبانيا، تشارلز الأول، ابن الغاوية والمجنونة وحفيدة ملك الكاثوليكيين مقابل (٨٥٠,٠٠٠) فلورينا وضعها صاحباً البنوك الألمان «فوغر» و«فيلر» على الطاولة.

يحول تشارلز الأول نفسه إلى تشارلز الخامس امبراطور أسبانيا وألمانيا والنمسا ونابلس وصقلية والأراضي المنخفضة والعالم الجديد الكبير، المدافع عن العقيدة الكاثوليكية وحبر الله المحارب على الأرض.

في هذه الأثناء يهدد المسلمون الحدود ويقرع مارتن لوثر باب كنيسة ويتمبرغ بهرطقاته المتحدية. يكتب ميكافيللي: يجب أن تكون الحرب للأمير فكرةً وهدفاً وحيداً. يصبح الملك الجديد في سن التاسعة عشرة أقوى رجل في العالم. يقبل السيف راکعاً على ركبتيه.

١٥١٩ : آكل

- بدرارياس -

صخبٌ بحر وطبول. يخيم الليل إلا أن هناك ضوءاً يجيء من القمر. تتدلى حول الساحة الأسماك وقرون الذرة الجافة من السقوف القشبية.

يدخل بالبو مقيداً بالأغلال، يده موثقان خلف ظهره. يحلون وثاقه. يدخن بالبو سيجاره الأخير. يضع رأسه على الوضم دون أن يتفوه بكلمة. يرفع الجلاد الفأس.

يختلس بدرارياس أفيلا النظر من منزله عبر الحائط القصبي. إنه يجلس على التابوت الذي أحضره من أسبانيا. يستخدم التابوت ككرسي أو طاولة ويغطيه عاماً بعد آخر بالشموع أثناء قداس

راحة نفس الميت الذي يحتفل بانبعائه. يسمونه بدرارياس المدفون منذ أن خرج من تابوته مغلفا بكفن بينما كانت الراهبات ترتل شعيرة الموتى والأقرباء يبكون بشكل هستيري سموه سابقا بدرارياس الباسل لانه لا يقهر في المسابقات والمعارك، ورغم أنه يبلغ الثمانين من العمر الآن يستحق لقب غضب الله. حين استيقظ بدرارياس هارًا عرفه الأبيض بعد أن فقد مائة هندي الليلة الماضية في القمار كان من الأفضل تجنب نظرتة.

منذ أن هبط بدرارياس على هذه الشواطئ لم يثق ببالبو. ولأن بالبو زوج ابنته لا يقتله بدون محاكمة. لا يوجد الكثير من المحامين هنا وهكذا يعمل القاضي كمستشار ونائب عام وتأخذ المحاكمة وقتاً طويلاً.

يتدحرج رأس بالبو على الرمال.

كان بالبو هو الذي أسس مدينة «آكلا» هذه بين أشجار حنّتها الريح. في اليوم الذي ولدت فيه «آكلا» انقضّ طير أسود مفترس من وراء الغيوم وخطف الخوذة المعدنية عن رأس بالبو تم ألقع ناعباً.

هنا كان بالبو يبني قطعة بعد أخرى السفن الشراعية التي سترسل لاستقصاء البحر الجديد الذي اكتشفه.

سيكمل الجلال المشروع. سوف يغزو وسيكون بدرارياس شريكه. سيعبّح هذا الجلال الذي جاء مع كولومبس في رحلته الأخيرة مركزاً يمتلك عشرين ألف خادم في الممالك الغامضة للجنوب. اسمه فرانسيسكو بيزارو.

١٥١٩: تينوشتيتلان

- بَشَائِرُ النَّارِ وَالْمَاءِ وَالْقَرَابِ وَالْمُهْوَاءِ -

مرةً، في قديم الزمان طار العرافون إلى كهف أم إله الحرب. لم تبتسم ولم تحييهم الساحرة التي لم تغتسل لمدة ثمانية قرون. قبلت تقدماتهم من الثياب والجلود والريش دون أن تشكرهم وأصغت متجهمة إلى أخبارهم. أخبرها العرافون أن المكسيك، السيدة والملكة، وجميع المدن هي تحت أمرها. تفوهت العجوز بتعليقها الوحيد قائلة: «هزم الآزتيكيون الجميع وسيأتي آخرون ويهزمونهم».

مرّ الوقت.

كانت البشائر تتجمع في الأعوام العشرة الماضية.

سَرَبَتْ نَارُ أَلْسِنَةِ اللّهب من وسط السماء لمدة ليلة كاملة.

انبثقت فجأة نار بثلاثة ألسنة من الأفق وطارت لتقابل الشمس.

انتحر منزل إله الحرب حارقاً نفسه بالنار. القيت عليه سطول الماء وكان الماء يغذي اللهب. أحرق معبد آخر في ومضة برق في إحدى الليالي حينما لم يكن يوجد عاصفة. تحوّلت البحيرة التي بُنيت المدينة على ضفتها إلى مرجل يغلي. صعدت المياه البيضاء الساخنة في أبراج من الغضب مقتلعةً المنازل، مستأصلةً أسسها. اصطادت شبك الصيادين طائراً بلون الرماد مع الأسماك. كانت توجد مرآة مستديرة على رأس الطائر. رأى الإمبراطور «موكيتزوما» في المرآة جيشاً يتقدّم وجنوداً يركضون بأرجل الأيائل وسمع صرخاتهم القتالية، ثم عاقب العرافين الذين لم يستطيعوا قراءة المرآة ولم يمتلكوا أعيناً ليشاهدوا الوحوش ذات الرأسين التي كان «موكيتزوما» يشاهدها في نومه ويقظته. سجنهم الإمبراطور في أقفاص وحكم عليهم بالموت جوعاً.

كانت صرخات امرأة غير مرئية تُرعبُ كل ليلة جميع الذين ينامون في تينوشيتيتلان وتلاتيلوكو كانت تصرخ: «يا أبنائي الصغار علينا أن نذهب الآن بعيداً من هنا». لم يوجد جدار لم تخترقه صرخة المرأة: «إلى أين سنذهب يا أبنائي الصغار؟».

١٥١٩: سيمبولا

- كورتيز -

يُخلّق برق السنة لهب على شاطئ فيراكروز. تحترق إحدى عشرة سفينة، يحترق أيضاً الجنود المتمردون الذين يتدلون من طرف عارضة شراع بارجة الأميرال. وبينما يفتح البحر فكيه ليلتهم النيران، يضغط هيرنان كورتيز الذي يقف على الشاطئ رمانة مقبض سيفه كاشفاً رأسه. ليس فقط السفن والمشنوقون واجهوا نهايتهم. لعودة الآن، ولن توجد حياة أكثر ممّا سيولد غداً: إما الذهب والمجد أو الطيور آكلة الجثث المنهزمة. على شاطئ فيراكروز غاصت أحلام أولئك الذين أحبوا أن يعودوا إلى كوبا ليناموا في الاستراحة الإستعمارية ممدّين في الأراجيح الشبكية مغلفين بشعر النساء ودخان السيجار: البحر يقود إلى الماضي والأرض إلى الخطر. سيتقدّم الذين يستطيعون حل المشكلة على ظهور الأحصنة والآخرين على الأقدام: سبعمائة رجل يتجهون إلى المكسيك نحو الجبال والبراكين ولغز موكتيزوما.

يعدّل كورتيز ريش قبّعته ويدير ظهره للهب، يذهب إلى قرية سيمبولا، بينما كان الليل يخيم. لا يقول شيئاً للرجال، سيعرفون حين يذهبون.

يحتسي الخمرة وحيداً في خيمته. ربما يفكر بالرجال الذين قتلهم دون اعتراف أو بالنساء اللواتي نام معهن بدون زواج منذ أن كان طالباً في سالامنكا التي تبدو بعيدة جداً، أو يفكر بسنواته الضائعة كبيروقراطي في جزر الآنتيل أثناء وقت الانتظار. ربما يفكر بالحاكم ديينغو فيلاسكويز

الذي سيرتتش حالاً من الغضب في سانتياغودي كوبا. بالتأكيد هو يبتسم بينما يفكر بذلك المغفل الذي يسبب النعاس والذي لن يطيع أوامره أبداً بعد الآن، أو ربما يفكر بالمفاجأة التي تنتظر الجنود الذين يسمعونهم يضحكون ويلعنون وهم يلعبون النرد والورق.

شيء من هذا القبيل يدور في رأسه، أو ربما سحر رعب الأيام القادمة، بعد ذلك ينظر فيشاهدها على الباب ويعرفه الضوء عليها. كان اسمها مالينالي أو مالينش حين قدمها له زعيم تاباسكو. عرفت باسم مارينا لمدة أسبوع.

يتفوه كورتيز ببعض الكلمات بينما تنتظر هادئة بعد ذلك وبحركة واحدة ترخي شعرها وتحلّ ثيابها. يسقط شلال ثياب ملونة عند قدميها العاريتين. يصمته توهج جسدها. على بعد بضعة خطوات، وفي ضوء القمر، مستخدماً الطبل كطاوله يسجل الجندي برنال داياز ديل كاستيللو أحداث اليوم.

١٥١٩ : تينوشيتلان

- موكتيزوما -

وصلت جبال كبيرة متحركة فوق البحر إلى شواطئ «يوكاتان» لقد عاد الإله كويتزالكوت. يقبل البشر مقدمات السفن.

لايثق الإمبراطور موكتيزوما بظله.

- «ماذا أفعل؟ أين أختبئ؟»

يتمنى موكتيزوما أن يتحول إلى حجر أو إلى عصا. لا يستطيع مهرجو البلاط أن يصرفوا انتباهه. جاء كويتزالكوتل، الإله الملتحي الذي منح الأرض والأغاني الجميلة ليطلب ماله. غادر «كويتز» في الأزمنة الغابرة ميمماً باتجاه الشرق بعد أن أحرق منزله الذهبي ومنزله المرجاني. حلقت أجمل الطيور لتفتح له الطريق. خرج في البحر على طوف من الثعابين وغاب عن البصر مبحراً نحو الفجر. عاد الإله الملتحي، الثعبان المريش جائعاً الآن. الأرض تهتز. ترقص الطيور في القصور التي تغلي. لأحد سيبقى، كما قال الشاعر: «لأحد، لأحد سيبقى حياً على وجه الأرض».

أرسل موكتيزوما هدايا ثمينة من الذهب إلى الإله «كويتزالكوتل». أرسل خوزاً ملأى بغبار الذهب والبط الذهبي والكلاب الذهبية والنمور الذهبية والعقود الذهبية والصولجانات والأقواس والسهام ولكن الإله كان يطلب المزيد وهو يأكل متقدماً نحو تينوشيتلان ساخطاً، بين البراكين العظيمة وخلفه تتقدم آلهة أخرى ملتحية. كانت أيدي الغزاة ترسل الرعد والصواعق والنار التي تقتل.

- «ماذا أفعل؟ أين أختبئ؟»

يعيش موكتيزوما ورأسه مدفون بين يديه.

منذ عامين حين كان يوجد نذير بالشر، كانت الآلهة تعود وتنتقم. أرسل موكتيزوما عرافيه إلى كهف «هويماك» ملك الموتى. هبط العرافون إلى أعماق تشابولتوبيك ترافقهم حاشية من الأقزام والمحدثين وقدموا إلى «هويماك» بأمر من الإمبراطور هدية من جلود السجناء الذين سلخت جلودهم مؤخراً. أرسل هويماك جوابه إلى موكتيزوما:

- «لا تكن مغفلاً. لا يوجد هنا راحة ولا فرح».

وطلب منه أن يصوم وينام بدون امرأة.

أطاعه موكتيزوما، وبدأ يتوب. أقفل الخصيان على زوجاته ونسي الطبّاخون وجباته الشهية، إلا أن الأمور ساءت. توافدت قطعان غربان السوء السوداء. فقد موكتيزوما حماية تلازولتيوتل، إلهة الحب وأيضاً إلهة البراز التي تأكل قذاراتنا، ليصبح الحب ممكناً، وهكذا غرقت روح الإمبراطور في القذارة والسواد. زاد في عدد الرسل إلى هويماك في مناسبات عديدة وتوسّل إليه مقدماً الهدايا، إلى أن منحه إله الموتى موعداً.

ذهب موكتيزوما إلى مقابلته في الليلة المتفق عليها واتجه قاربه إلى «تشابولتيبك». وقف الإمبراطور في المقدمة وتكشف الضباب فوق البحيرة عن الريش الفلمنكي.

بعد أن وصل إلى قدم الجبل سمع موكتيزوما صوت المجاذيف. اقترب قارب يتحرك بسرعة وشعّ شخص عار ووحيد في الضباب الأسود، يرتفع مجذافه كالرمح

- «هل هذا أنت يا هويماك؟»

استمر الشخص في الاقتراب إلى أن ضغط تقريباً على الإمبراطور ثم نظر في عينيه كما لا يستطيع إنسان أن ينظر وقال له: «أنت جبان، ثم اختفى».

١٥١٩: تينوشيتلان

- محاصرة الأزتيكيين -

مصعوقين بجمالها، يعبر الغزاة الممر. تبدو تينوشيتلان وكأنها منتزعة من أوراق آماديس، أشياء لم يُسمع بها أبداً، لم تُشاهد أبداً، لم يُحلم بها أبداً... تشرق الشمس من خلف البراكين، تدخل البحيرة وتحطم الضباب العائم إلى شظايا. تشع المدينة بشوارعها وأقنيتها ومعابدها وأبراجها العالية أمامهم. يخرج عدد كبير صامت وغير مستعجل ليرحب بهم، بينما تفتتح قوارب لا يحصى عددها أتلاماً في المياه الكوبالتية.

يصل موكتيزوما على حمالة، جالساً على جلد يغور ناعم، تحت ظلّة من الذهب والآلء والريش الأخضر. يتقدّم أسياذ الملكة أمامه ويكنسون الأرض التي يمر فوقها.

يرحب بالاله كويتزالكوتل قائلاً:

- «ها قد جئت لتحتل العرش ها قد جئت وسط الضباب. أنا لأراك في الأحلام. أنا لأحلم.
إلى أرضك جئت...»

يتلقى الذين يرافقون كويتزالكوتل أكاليل من المغنولية^(١) وتوضع عقود الأزهار حول أعناقهم وعلى أذرعهم وصدورهم: فيها زهرة الدرع وزهرة القلب وزهور العطر الرائع واللون الذهبي.
كويتزالكوتل، أحد سكان أستريما دورا، هبط على التسواطيء الأميركية حاملاً ملبسه على ظهره وبعض القطع الذهبية في محفظته كان يبلغ التاسعة والعشرين حين وضع قدميه على رصيف المرفأ في سانتو دومينغو وسأل: «أين الذهب». إنه يبلغ الآن الثالثة والأربعين وأصبح قائداً عسكرياً جسوراً يرتدي درعاً من الحديد الأسود ويقود جيشاً من الخيالة والرماحين ورماة النشاب والبنادق والكلاب المتوحشة. لقد وعد جنوده: «سأجعلكم في وقت قصير أغنى الرجال الذين جاؤوا إلى الآنديز».

سينتهي الإمبراطور موكتيزوما الذي يفتح بوابات تينوشيتلان حالاً. سيسمى بعد وقت قصير امرأة الأسبان وسيرجمه قومه بالحجارة حتى الموت. سيأخذ مكانه الشاب «كيواهتيموك» ويتابع القتال.

- أغنية الدرع الأزتيكية -

على الدرع، أنجبت العذراء
المحارب العظيم.
على الدرع، أنجبت العذراء
المحارب العظيم.

على جبل الثعبان
في وسط الجبال
يتجول الغازي
بصبغة الحرب ودرع النسر.

لأحد، بالتأكيد، يستطيع مواجهته.
بدأت الأرض تدور
حين ارتدى أصباغه الحربية
ورفع درعه.

(١) - المغنولية: نبات من الفصيلة المغنولية جميل الورق والزهر.

١٥٢: تيوكال هويا كان

- ليلة الأسى -

يراجع هرنان كورتيز القلة الناجية من جيشه، بينما تخطط مالبينش الأعلام الممزقة.
كانت تينوشيتلان خلفهم وكان خلفهم أيضاً عمود الدخان الذي أطلقه البركان بوباكاتيبتل الذي لا تقدر ريح على إخفائه والذي بدا وكأنه يودعهم.
لقد استعاد الأزتيكيون مدينتهم. السقوف مليئة بالسهم والرماح والبحيرة مغطاة بالزوارق الحربية. هرب الغزاة مبعثرين تطاردهم عاصفة من السهم والحجارة بينما طبول الحرب والصرخات واللعنات تذهل الليل.
أنقذ هؤلاء الجرحى والمبتورون الذين تبقوا لكورتيز أنفسهم باستخدام الجثث كجسر، عبروا إلى الشاطئ الآخر ماشين على الخيول التي انزلقت وغرقت وعلى الجنود الذين قتلتهم السهم والحجارة أو أغرقهم ثقل الأكياس المليئة بالذهب والتي لم يستطيعوا إقناع أنفسهم بتركها خلفهم.

١٥٢: سيغيورا ديل فورنتيرا

- توزيع الثروة -

يُسمَعُ صخبُ المشاجرات والتذمر من المعسكر الإسباني. لا يوجد بديل أمام الجنود. يجب أن يسلموا سبائك الذهب التي أنقذت من الكارثة. سيشنق كل من يخبى شيئاً.
صنع هذه السبائك صائغو ونحاتو المكسيك. كان الذهب قبل أن يحول إلى غنائم ويصهر في قوالب ثعباناً على وشك أن يعض، نمراً على وشك أن يقفز، نسرأ على وشك أن يحلق أو خنجراً تشعبن وعام كنهر في الجو.
يشرح كوريتز أن هذا الذهب مجرد فقاعات إذا ما قورن بالذي ينتظرهم. يأخذ خمساً له وخمساً للملك بالإضافة إلى حصص أبيه والحصان الذي مات تحته ويعطى كل ما تبقى لقواده. لم يبق شيء يذكر للجنود الذين لعقوا هذا الذهب وعصوه ورازوه في أيديهم وجعلوه مخدرات لنومهم وحكوا له قصص انتقامهم.

أثناء ذلك، كان يَشْمُون بالحديد وجوه العبيد الهنود الذين أُسِرُوا في تيبكا وهواكويتشولا.

كان الهواء يفوح برائحة اللحم المحروق.

١٥٢: بروكسل

- دورير -

يجب أن تكون هذه الأشياء انبثاقات من الشمس كالرجال والنساء الذين صنعوها في الأرض البعيدة التي سكنوها: خوذ وأحزمة، مراوح ريش، فساتين وعباءات، ملابس صيد، شمس ذهبية وقمر فضي، بندقية نفخ وأسلحة أخرى تمتلك جمالاً يجعلها تبدو وكأنها صنعت لتعيد إحياء الضحايا. لن يتعب المصمم الأعظم في جميع العصور من النظر إليها. إنها جزء من الغنائم التي سرقها كوريتز من موكتيزوما، القطع الوحيدة التي لم تصهر وتحول إلى قوالب. يعرض الملك تشارلز، الذي عين حديثاً على عرش الإمبراطورية المقدسة، للعامة الغنائم التي جاءت من أجزاء عالمه الجديد. لا يعرف ألبريخت دورير القصيدة المكسيكية التي تشرح أن الفنان الحقيقي يجد المتعة في عمله ويتحدث مع قلبه، لأنه يمتلك قلباً غير ميت لم يأكله النمل. إلا أنه مشاهداً ما يشاهد، يسمع دورير تلك الكلمات ويجد أنه يجرب السعادة الأعظم في حياته التي بلغت نصف قرن.

١٥٢: تلاهكال

- إحادة فتح تينوشيتلان -

يوشك هذا العام على الانتهاء. حالما ستشرق الشمس سيصدر كوريتز الأمر بالسير. قام جنوده الذين سحقهم الآزتيكيون بالردّ تحت حماية الهنود في تلاهكال و ويهوسينكو وتيهوكو يقود جيشاً يتألف من خمسين ألفاً. من الهنود بالإضافة إلى جنود جدد جاؤوا من أسبانيا وسانتو دومينغو وكوبا مزودين بالخيول والبنادق وأقواس النشاب والمدافع. لكي يحارب على المياه حين يصلون، يحتاج كوريتز أشربة ولوازم حديدية وصواري ليجهز ثلاث سفن شراعية. سينصب هنود ويهوسينكو العوارض الخشبية.

يُظهر الضوء الأول خط السماء البركاني. خلفه صاعدة من المياه المذهلة تنتظر تينوشيتلان متحدية.

١٥٢١: تلاتيلوكو

- سيفه النار -

تتدفق الدماء كالماء. يحول الدم مياه الشرب إلى أسيد. لم يبق ما يؤكل سوى التراب. قاتلوا من منزل إلى آخر فوق الحطام والموتى ليلاً ونهاراً. استمرت الحرب ثلاثة أشهر دون توقف. لم يبق للتنفس سوى القذارة والغبار إلا أن الطبول ما تزال تقرع في الأبراج الأخيرة والأجراس ترن على

عالم جديد قديم

كواحل آخر المحاربين. تستمر الصرخات الحربية والأغاني التي تمنح القوة. تأخذ النساء المتبقيات قووس المحاربين الساقطين وتضرب الدروع حتى الموت.

يستدعي القائد كواوهيتموك أفضل محاربيه. يرتدي قبعة البومة ذات العرف الطويل ويستل سيف النار. قابضاً على السيف بزغ إله الحرب من حوض أمه قديماً في الأزمنة الغابرة. بهذا الثعبان ذي الأشعة الشمسية قطع هويتزيلوبوشتلي رأس أخته القمر وقطع إلى أشلاء أخوته النجوم الأربعمائة لأنهم لم يسمحوا له أن يولد.

بأمر كواوهيتموك: «دعوا أعداءنا ينظرون إليه وسيذهلهم الرعب». يفتح سيف النار طريقاً. يتقدم القائد المختار عبر الدخان والحطام. يسقطونه بطلقة واحدة من بندقية.

١٥٢١: تينوشيتلان

- العالم مصمت تحت المطر -

فجأة تتوقف الصرخات والطبول جماعياً. هزمت الآلهة والرجال. مات الزمن مع موت الإله. ماتت المدينة مع موت الرجال. ماتت مدينة المحارب التي يزينها الصفصاف والأسل وهي تقاتل حين عاشت. لن يجيء بعد الآن الأمراء المهزومون من جميع الأقاليم في قواربهم عبر الضباب ليدفعوا الجزية.

يخيم صمت مذهل. ويبدأ المطر بالسقوط. تمتلئ السماء بالرعد والبرق وينهمر المطر طوال الليل.

جُمع الذهب في سلال كبيرة. ذهب دروع وشارات حرب ذهب أقنعة الآلهة، قلادات الشفاه والآذان، الزخارف والسلاسل. وُزن الذهب وسعر الأسرى: أحد هؤلاء البائسين لا يساوي حفتين من الذرة.. يتجمع الجنود ليلعبوا النرد والورق.

تحرق النار كعبي قدمي الإمبراطور كواوهيتموك المدهون بالزيت بينما العالم مصمت والمطر ينهمر.

١٥٢١: فلوريدا

- بونس ليون -

كان متقدماً في السن أو هكذا شعر. لن يتبقى وقت كاف ولن يستطيع القلب المنهمك أن يصمد. أراد خوان بونس دي ليون أن يكتشف ويربح العالم غير المفتوح الذي أعلنت عن وجوده جزر فلوريدا. أراد أن يقزم ذكرى كريستوف كولومبس بعظمة أعماله البطولية.

هنا هبط، متبعاً النهر السحري الذي يعبر حديقة المتع. وبدلاً من أن يعثر على نهر الشباب الأبدى التقى بذلك السهم الذي اخترق صدره. لن يستحم أبداً في المياه التي تعيد الطاقة إلى العضلات والضوء إلى الأعين دون أن تمحو تجربة الروح الناضجة.

يحملة الجنود بسواعدهم إلى السفينة. يطلق القائد المغزو تمتمات وشكاوى كالطفل، إلا أن أعوامه تبقى كثيرة وما يزال يتقدم في السن. يؤكد الرجال الذين يحملونه بدون دهشة أنه هنا حلت هزيمة جديدة في الصراع المستمر بين الموجودين دائماً والذين لم يوجدوا أبداً.

١٥٢٢: الطرق العامة لسانتو دومينغو

- أقدام -

سُحِقَ التمرد الأول الذي قام به الزوج السود في أميركا. نشب في مطاحن السكر التي يمتلكها ديفيغوكولومبس ابن المكتشف. شبت النار في طواحين ومزارع الجزيرة كلها. انتفض السود مع بعض الهنود مسلحين بالعصى والحجارة ورماح قصب السكر التي حطمت الدروع في غضب عبثي. يتدلى الآن على المشانق المبعثرة على الطرق الرجال والنساء، الشبان والعجائز. على مستوى عين المسافر تتدلى أقدام يستطيع أن يخمن منها هوية الضحايا قبل أن يجيئهم الموت. بين تلك الأعضاء الجلدية المجروحة بالتعب والخضوع تتدلى أقدام مرحة وأقدام رزينة وأقدام ماتزال ترقص معبرة عن حبها للأرض وداعية إلى الحرب.

١٥٢٢: سيفيل

- أطول رحلة سبق أن تمت -

لم يعتقد أحد أنهم مايزالون أحياء، إلا أنهم وصلوا البارحة. ألقوا مراسيهم وأطلقوا نيران جميع مدافعهم. لم يهبطوا حالاً إلى اليابسة ولم يظهروا للعين. في الصباح ظهرُوا على رصيف المرفأ. دخلوا سيفيل مرتجفين في ثياب قذرة حاملين المشاعل. فتح الحشد لهم الطريق مندهشاً لهذا الموكب من الفزاعات التي يقودها خوان سيباستيان دي ألكانو. وتعثروا وهم يسرون اتكأوا على بعضهم من أجل العون، ذهبوا من كنيسة إلى أخرى يؤدون العهود يتبعهم الحشد أينما ذهبوا. وكانوا دائماً يغنون.

غادروا منذ ثلاثة أعوام عبر النهر في خمس سفن سريعة اتجهت غرباً. كانوا حفنة من المغامرين جاؤوا معاً بحثاً عن الممر بين المحيطات وعن الثروة والعظمة. كانوا جميعاً لاجئين. اتجهوا إلى البحر هرباً من البؤس والحب والسجن أو المشنقة.

الآن يتحدث الناجون عن العواصف والجرائم والعجائب. شاهدوا بحاراً وأراضي لاخراط لها ولا اسم. عبروا ست مرات المنطقة الكروية حيث يغلي العالم دون أن يحترق أبداً. شاهدوا ثلجاً أزرق في الجنوب وأربع نجوم في السماء تشكل صليباً. شاهدوا الشمس والقمر يتحركان إلى الخلف وسمكاً يطير. سمعوا عن نساء تحبلهن الرياح وقابلوا طيوراً سوداء كالغربان تندفع إلى أفواه الحيتان المفتوحة وتلتهم قلوبها. وقالوا إنهم شاهدوا على جزيرة بعيدة جداً بشراً صغاراً طولهم نصف متر لهم آذان يصل طولها إلى الأرض، وبسبب طول آذانهم، حين ينامون يُستخدم أحدهم كمخدة وآخر كغطاء. وقالوا أيضاً إنه حين شاهد هنود «المولوكا» الزوارق الصغيرة التي أطلقت من السفن ظنوها فتيات السفن الصغيرات وأن السفن أنجبته وأرضعتها.

قال الباقون علي قيد الحياة أنه في جنوب الجنوب حين تنفتح الأراضي وتتعانق المحيطات يشعل الهنود نيراناً في الليل والنهار كي لا يموتوا من البرد. قالوا إن هؤلاء الهنود عمالقة بالكاد تصل رؤوسنا إلى خصورهم. قبض ماجلان الذي ترأس الرحلة على إثنين منهم بعد أن وضع أغلالاً حديدية في كواحلهم ورسوهم قائلاً إنها حلي ولكن فيما بعد مات أحدهما من الإسقربوط^(١) والآخر من الحرارة.

يقولون لا بديل لهم عن شرب مياه المستنقعات وهم يحبسون أنوفهم وأنهم يأكلون نشارة الخشب وجلود الحيوانات والجرذان التي نافستهم على البسكويت المدود. كل من يموت جوعاً يضعونه على لوح خشبي وبما أنهم لا يملكون أحجاراً لإغراقه تبقى الجثث عائمة على المياه: تدار وجوه الأوروبيين نحو السماء بينما الهنود إلى الأسفل. حين قابلوا هنود المولوكاس باع أحد البحارة الهنود ورق لعب مقابل ستة ديكاة إلا أنه لم يستطيع أن يأكل لقمة منها لأن لثته كانت متورمة.

شاهدوا ماجلان يبكي والدموع تنحدر من عيني البحار البرتغالي الخشن حين دخلت السفن المحيط الذي لم يعبره أوروبي من قبل وعرفوا مزاجه المريع حين قطع رأسي ضابطين متمردين وقطعهما وترك الآخرين في الصحراء. إن ماجلان هو جيفة الآن، غنيمة في يد السكان الأصليين للفلبين الذين أصابوا رجله بسهم مسموم.

لم يعد من الجنود الذين يبلغ عددهم (٢٣٧) جندياً والذين غادورا سيفيل منذ ثلاثة أعوام سوى ثمانية عشر شخصاً. عادوا في سفينة تصدر صريراً ولها عارضة ينخرها الدود، ترشح من الجهات الأربع.

الباقون على قيد الحياة. هؤلاء الرجال المتضورون جوعاً، الذين أبحروا لتوهم حول العالم للمرة الأولى.

(١) - الإسقربوط: داء من أعراضه تورم اللثة ونزف الدم منها.

١٥٢٣ : كوزكو

- هواينا كاباتك -

أمام الشمس يرمي نفسه ويلمس الأرض. يمسك الأشعة الأولى بجبهته ويرفعها بيدبه إلى فمه ويشرب الضوء، ثم ينهض، يقف وينظر مباشرة إلى الشمس دون أن يرف له جفن. كانت نساء هواينا كاباتك خلفه ينتظرن برؤوس محنية. وكان الأمراء الكثيرون ينتظرون صامتين. ينظر الآنكي إلى الشمس ندًا لندًا وهمسُ الفضيحة ينمو بين الكهنة. مَرَّت أعوام كثيرة على اليوم الذي جاء فيه هواينا كاباتك ابن الأب المتألق بلقب الشاب الجسور الزعيم الغني بالفضائل وسَّع الإمبراطورية إلى ما وراء حدود أسلافه. قاد هواينا كاباتك المتلهف للسلطة، المستكشف والفتح جيوشه من الدغل الأمازوني إلى أعالي، «كويتو» ومن «الشاكو» إلى سواحل تشيلي. بسهم طائر وفأس مهلك جعل نفسه سيد الجبال الجديدة والسهول والصحاري الرملية. لا يوجد أحد ليحلم به أو يخشاه في المملكة التي هي الآن أكبر من أوروبا. تعتمد على هواينا كاباتك المراعي والماء والبشر. حركت إرادته الجبال والبشر. وفي هذه الإمبراطورية التي تجهل العجلة شيد أبنية في «كيتو» بأحجار من «كوزكو» لكي تُعرف في المستقبل عظمتها ويؤمن الرجال بكلمته. ينظر الآنكي بثبات إلى الشمس، ليس بتحد كما يخشى الكهنة بل بدافع الشفقة. يشعر هواينا كاباتك بالأسف على الشمس لأنه والده ووالد الآنكيين منذ غابر الأيام. ليس للشمس الحق في التعب والضجر. لا يستريح الشمس أبداً ولا يلعب ولا ينسى. لا يتأخر عن مواعده ويجري اليوم في نفس المسار عبر السماء كما فعل البارحة وسيفعل غداً. بينما يتأمل الشمس يُقرّر هواينا كاباتك: «سوف أموت حالاً».

١٥٢٣ : كواوكابولكا

- أسئلة الزعيم -

يُقدّم الطعام والذهب ويقبل العمادة، إلا أنه يسأل جيل غونزاليس دي آفيلو أن يشرح له كيف يمكن للمسيح أن يكون إنساناً وإلهاً ولريم أن تكون عذراء وأماً. سأل: أين تذهب الأرواح حين تغادر الأجساد وفيما إذا كان البابا في روما لا يموت. سأل من ينتخب ملك قشتالة. لقد انتخب الزعيم «نيكارغوا» الكبار في القبائل بعد أن اجتمعوا عند جذع شجرة سيبة. هل انتخب الملك من قبل الكبار في شعبه؟ يسأل الزعيم الغازي أن يقول له ماهو هدف بحث قلة من الرجال عن الذهب الكثير؟ هل أجسادهم كبيرة بما يكفي لكثير من الزينة؟

فيما بعد سأل فيما إذا كان صحيحاً أن الشمس والنجوم والقمر ستنطفئ وستسقط السماء كما قال أحد الأنبياء.

لا يسأل الزعيم نيكارغوا لماذا لن يولد أطفال في هذا الجزء من العالم. لم يخبره أي نبي أنه في بضعة أعوام سترفض النساء أن تنجب عبيداً.

١٥٢٢ : بينالا

- هالينش -

أنجبت من كورتيز طفلاً وفتحت له بوابات إمبراطورية. كانت ظله وحارسته، مترجمته ومستشارته، وسيطته، وسيدته طوال غزو المكسيك ودائماً تمتطي حصانها قربه.

تمرّ في بينالا مرتدية زي امرأة إسبانية: ملابس صوفية وحريرية وساتانية ولايتعرّف أحد في البداية على السيدة المميزة التي تأتي مع الأسياك الجدد. من على صهوة جوادها الكستنائي المطهم تتفحص هالينش ضفة النهر، تأخذ نفساً عميقاً من الهواء العذب وتبحث بلاجدوى عن الزوايا الغريبة حيث اكتشفت السحر والخوف منذ أكثر من عشرين عاماً. خبرت شمساً وأمطاراً كثيرة، عذابات وأحزاناً منذ أن باعته أمها كجارية وجرت عن التربة المكسيكية لتخدم أسياك المايا في «يوكاتان».

حين تعلم أمها من جاء إلى زيارتها في بينالا ترمي نفسها عند قدميها وتغسلها بالدموع طالبة منها الصفح. ترفعها هالينش من كتفيها وتعانقها وتعلق حول عنقها العقود التي كانت ترتديها. ثم تمتطي حصانها وتتابع طريقها مع الإسبان.

ليست بحاجة لأن تكره أمها. منذ أن قدمها أسياك يوكاتان هدية لهرنان كوريتز كانت تمتلك الوقت الكافي لتثار لنفسها لقد دفع الدين: يرتجف المكسيكيون وينحنون حين تقترب. تكفي نظرة واحدة من عينيها السوداوتين لإرسال أمير إلى المشنقة. بعد موتها بوقت طويل سيخلق ظلها فوق تينوشيتلان العظيمة التي قامت بأعمال كثيرة لتهمزها وتذلها وسيستمر شبحها ذو الشعر الطويل المرخي ورداؤها المتموج في زرع الخوف إلى الأبد في غابات وكهوف تشابولتيك.

١٥٢٤ : كويتزالتينانكو

- سيخبر الشاعر الأطفال قصة هذه المعركة -

سيتحدث الشاعر عن بيدور دي ألفارادو والذين جاؤوا معه ليعلموا الخوف.

سيقول إنه حين سحقته القوات المحلية وتحولت غواتيمالا إلى مسلخ، صعد القائد تيكوم أومان في الجو وطار بجناحين ونبت ريش في جسده. طار ثم انقض على ألفارادو بضربة قوية

قطعت رأس حصانه. قسم ألفارادو وحصانه نصفين وبقي هكذا: خلّص الغازي نفسه من الحصان المقطوع الرأس ونهض. طار القائد تيكوم ثانية وصعد إلى الأعلى متوهجاً. حين غاص إلى الأسفل من السحاب طعنه ألفارادو برمح واندفعت الكلاب لتمزّق تيكوم أشلاء إلا أن ألفارادو أبعدّها بسيفه. تأمل ألفارادو لوقت طويل عدوه المطعون ذا الجسد المجروح الذي ينمو ريش الكتزل على ذراعيه ورجليه، تأمل جناحيه المحطمين وتاجه الثلاثي اللؤلؤي الماسي والزمردى. استدعى ألفارادو جنوده: «انظروا». ثم طلب منهم أن ينزعوا خوذاتهم.

سيسأل الأطفال المتحلقين حول الشاعر: «هل رأيت كل هذا أم سمعت عنه؟».

- «نعم».

سيسأل الأطفال: «هل كنت هناك؟».

- «لا. لم يبق من شعبنا الذي كان هنا أحد على قيد الحياة».

وسيشير الشاعر إلى السحاب المتحرك إلى قمم الأشجار المتأرجحة.

- «أترون الرماح؟ سيقول أترون حوافر الخيل؟ مطر السهام؟ الدخان؟». سيقول لهم وهو يضع

أذنيه على الأرض المليئة بالانفجارات: «أصغوا».

وسيعلمهم أن يشمّوا التاريخ في الريح أن يلمسوه في الأحجار التي صقلها النهر وأن يتعرّفوا

على طعمه بمضغ بعض الأغشاب العطرية ببطة كما يمضغ المرء الحزن.

fore : أوتاتلان

- انتقام المقهورين -

يستلقي الزعماء الهنود حفنة من العظام سوداء كالسخام في حطام المدينة. لا يوجد شيء اليوم في عاصمة «الكويتشز» لا يفوح بالحرق.

تحدث نبيّ منذ قرن تقريباً، كان زعيم «الكاكتشيكويلزهو» الذي قال حين كان هنود الكويتشز على وشك أن يمزّقوا قلبه. سوف يأتي رجال مسلحون يرتدون الثياب من الرأس إلى القدم ليسوا عراة مثلنا ويدمّرون هذه الأبنية ويرجعونكم إلى الحياة في كهوف اليوم والقسط البرية وسوف تختفي كلّ هذه العظمة.

تحدث حين قتلوه، هنا في مدينة الوهاد هذه التي حولها بدرو ألفارادو وجنوده إلى السنة لهب لتوّهم. لعن الزعيم المقهور هنود الكويتشز، ومنذ ذلك الحين، مرّ وقت طويل هيمن فيه هنود الكويتشز، على شعوب غواتيمالا الأخرى.

١٥٢: جزر العقرب

شعيرة العشاء الرباني

ابتلعهم البحر ثم تقيأهم ازدردهم ثانية ثم رماهم على الصخور. كانت الدلافين وخرفان البحر طير في الجو، والسماء مليئة بالزبد. حين تحطمت السفينة الصغيرة بذل الرجال جهوداً كبيرة يعانون الصخور. كانت الأمواج تعارك طوال الليل لتمزقهم بضرباتها المتتالية. انتزع كثيرون من مكنتهم وتحطموا على الصخور أو افترسوا.

فجراً، هدأت العاصفة وانحسر المد. ترك الذين نجوا مصيرهم للقدر وانطلقوا على ظهر زورق تنداع. بقوا طيلة خمسة أيام بين سلاسل الصخور دون ماء للشرب أو ثمار تبلل أفواههم. في ذلك الصباح وصلوا إلى إحدى الجزر.

زحفوا على أربع إلى الأمام تحت الشمس التي تطهو الصخور، لا يمتلك أي منهم القوة لجري. ن يبقى خلفهم عراة ومجروحين يلعنون الضابط، المحامي «الونزو زوازو»، القانوني الجيد والبحار لسيء، يلعنون الأم التي أنجبته والملك والبابا والله.

هذا المنحدر الصغير هو أعلى جبل في العالم. يتابع الرجال التسلق ويعزون أنفسهم بعد ساعات المتبقية قبل الموت.

فجأة يفركون أعينهم، لا يصدقون ذلك: كانت خمس سلاحف عملاقة تنتظرهم على الشاطئ، خمس من تلك السلاحف التي تبدو في البحر كجزر صخرية والتي تمارس الجنس دون خوف حين تقترب السفن منها.

اندفع الرجال نحوها. كسروا دروعها غاضبين وجائعين وبدأوا يجرفونها إلى أن انقلبت لسلاحف وهي تضرب الهواء. طعنوها بسكاكينهم، فتحوا بطونها بقبضاتهم وطعناتهم ودفنوا رؤوسهم في الدم المندفع.

ثم ناموا غارقين إلى أعناقهم في دنان الخمرة الجيدة هذه. بينما كانت الشمس تستمر في التقدم إلى كبد السماء.

لا يصغي أحد للمحامي «زوازو». يركع على الرمل وفمه ملطخ بالدم، يرفع يديه ويقدم لسلاحف إلى الجراح الخمسة لمخلصنا.

١٥٢: توه كاها

- كواوتيموك -

كان جسد الملك الأخير للآزتيكيين يتأرجح معلقاً من كاحليه على غصن شجرة سيبة كبيرة. قطع كورتيز رأسه.

وصل إلى العالم في مهد محاط بالدروع والرماح وهذه هي الأصوات الأخيرة التي سمعها:
«وطنك الحقيقي في مكان آخر. أنت موعود بأرض أخرى. مكانك المناسب هو ساحة المعركة،
مهمتك أن تمنح دم أعدائك للشمس كي يشربه وأجسادهم للأرض كي تأكله».

صبّ العرافون على رأسه الماء منذ تسعة وعشرين عاماً وهم يطلقون كلمات طقسية: «أين
تختبئ يا سوء الحظ؟ في أي عضو تخفي نفسك؟ ابتعد عن هذا الطفل».

سمّوه كواوتيمك، النسر الذي يسقط، وسّع والده الإمبراطورية من البحر إلى البحر. حين احتلّ
الأمير العرش كان الغزاة قد توغلوا في البلاد. نهض كواوتيموك وقاوم، بعد أربعة أعوام من هزيمة
تينوشيتلان ما تزال تصدح الأغاني التي تدعو إلى عودة المحارب من أعماق الغابة.

من يهدد الآن جسده المبتور؟ الريح أم شجرة السيبة؟ ألا تبدو هذه شجرة سيبة من تاجها
الضخم؟ ألا تقبل هذا الغصن المكسور كذراع آخر من آلاف الأذرع التي تنمو من جذعها الجليل؟
هل ستتمو عليه ورود حمراء؟

الحياة تستمر. الحياة والموت يستمران.

١٥٢٦ : طليطلة

- النمر الأميركي -

يعرض المروّض في قصر طليطلة النمر الذي تلقاه الملك من العالم الجديد. يقوده المروّض
لومباردي ذو الابتسامة العريضة والشارب المدّيب برسن كأنه كلب صغير بينما ينزلق النمر على
الحصباء بخطوات خافتة.

يتجمد دم غونزالو فردينانديز دي أوفيفيدو. يصرخ بالمروّض من بعيد ألا يثق به، ألا يكون
أبله مع هذا الوحش المفترس، إن هذه الحيوانات ليست للبشر.

يضحك المروّض يفلت النمر ويضربه على ظهره يسمع أوفيفيدو زئيره العميق. يعرف أن زمجرة
الأنياب المصطكة هذه تعني تهديداً وصلاة للشيطان. إنه متأكد أن المروّض سيقع في الفخ في أحد
الأيام. سيمدّ يده ليلمس النمر وبعد ذلك سيبتلع بعد ضربة مقلب سريعة. هل يؤمن هذا المسكين
أن الله منح النمر مخالب وأنياباً ليقدّم له مروّض وجباته في ساعات منتظمة. لم يجلس أحد من
سلالته أبداً ليتناول العشاء بتوقيت الأجراس ولم تعرف هذه السلالة سوى الافتراس. ينظر أوفيفيدو
إلى اللومباردي المبتسم ويرى كومة من اللحم المفروم بين أربع شموع.

ينصحه: «اقتلع مخالبه وجميع أنيابه من جذورها»، ثم يذهب.

١٥٢٨ : مدريد

- حلٌ خيوط المحفظة -

يدخل البرد من الشقوق ويجمد الحبر في المحابر.
إن تشارلز مدان لكل قديس بشمعة. اشترى العرش الإمبراطوري بنفود دفعها أصحاب بنوك
أوكسبورغ ومول خطبته وجزءاً جيداً من الحروب التي مكنته من إزلال روما وقمع التمرد الفلمنكي
وبعثرة نصف محاربي فرنسا النبلاء في حقول بافيا.
يتألم ضرس الإمبراطور وهو يوقع أمراً بتأجير حق اكتشاف واستغلال وحكم فنزويلا
يعين حكام ألمان لفترة طويلة على فنزويلا، لم يترك الحاكم الأول أمبروزيو ألفنغر هندياً لم يوشم
أو يباع في أسواق سانتا مارتا وجامايكا وسانتو دومينغو، والذي يموت بعد أن يخترق حنجرتة سهم.

١٥٢٥ : تمبيز

- يوم المفاجآت -

تصل رحلة البحر الجنوبي أخيراً إلى شاطئ، يخلو من المستنقعات والبعوض، يأمر فرانسيسكو
بيزارو الذي سمع بوجود قرية في الجوار، جندياً وعبدًا أفريقيًا أن ينطلقا.
يصل الأبيض والأسود إلى «تمبيز» عابرين الأراضي المزروعة والمروية جيداً بواسطة أقنية
مائية، كان يوجد زراعات لم يشاهدوا مثلها في أميركا، يحيط أبناء تمبيز الذين لا يخرجون عراة
ولاينامون في العراء بالوافدين الجدد ويقدمون لهم الهدايا. لم تكن عينا ألونزو دي موليناز كبيرتين
بما يكفي لتحصيا الذهب والفضة اللذين يكسوان جدران المعبد.
يندهش سكان تمبيز بأشياء كثيرة من عالم آخر. يشدون لحية ألونزو دي موليناز ويلمسون
ثيابه وفأسه الحديدية. يؤمنون ساتلين عن هذا الوحش المأسور ذي العرف الأحمر الذي يصرخ في
قفص: «ماذا يريد؟»، يشير ألونزو إليه ويقول: «ديك»، ويتعلمون كلمتهم الأولى بلغة قشتالة.
لايتصرف الأفريقي الذي يرافق الجندي جيداً. يدافع عن نفسه لاطماً الهنود الذين يريدون أن
يحكوا جلده بقرون الذرة اليابسة. الماء يغلي في إناء كبير، يريدون أن يضعوه فيه ليزيلوا لونه.

١٥٢٨ : جزيرة الحظ السيء

- الناس كرماء بما يملكونه... -

قذفت عاصفة إحدى السفن التي أبحرت إلى فلوريدا منطلقاً من سانليوكردى بارميد إلى قمم
الأشجار الكوبية والتهم البحر السفن الأخرى في حوادث تحطم متعاقبة. ولم ينتظر السفن التي
زودها رجال نارفايز وكابيزا فاكاً بأشعة من القمصان وحبال من أعراف الأحصنة، مصير أفضل.

يرتجف رجال السفينة المحطمة، الأشباح العارية، من البرد ويبكون بين صخور جزيرة «مال هادو» يحضر لهم الهنود الماء والأسماك والجذور ويبكون معهم. ذرف الهنود أنهاراً من الدموع وكلما طال الندب كلما شعر الأسبان بالأسف.

أخذهم الهنود إلى قريتهم وهكذا لم يمت البحارة من البرد، إذ واظب الهنود على إشعال النار طوال الطريق في مواضع الراحة. كان يحملونهم على المحفات بين النار والنار، دون أن يجعلوا أقدامهم تلمس الأرض.

ظن الأسبان أن الهنود سيقطعونهم إرباً ويرمونهم في إناء الطهي، إلا أنهم تقاسموا معهم في القرية الطعام القليل الذي يمتلكونه. وكما سيقول ألفار كابيذا دي فاكّا، يرتعب الهنود ويغضبون حين يعلمون أن خمسة مسيحيين أكلوا بعضهم على الشاطئ وبقي منهم واحداً فقط لم يوجد أحد ليأكله.

١٥٣١: نهر أورينوكو

- ديبغو دي أورداز -

تبقى الريح عنيدة وتجّر السفينة عكس التيار. الشمس تجلد المياه. يشبه شعار النبالة الذي يرتديه القائد مخروط بركان بوبوكاتيبتل. كان أول إسباني يخطو على قمته الثلجية. في ذلك اليوم ومن هذا الارتفاع شاهد من خلال زوابع الرماد البركاني ظهور النسور ومدينة تينوشيتلان تومض في البحيرة، كان عليه أن يبتعد بسرعة لأن البركان غضب وهدده بوابل من النار والحجارة والدخان الأسود.

يتساءل اليوم ديبغو أورداز، المبلل بالماء إلى عظامه إذا كان نهر أورينوكو سيقوده إلى حيث ينتظر الذهب. كان هنود القرى يشيرون إلى الأمام. بينما يطارد الضابط البعوض ويهدىء بدن السفينة المرقع الذي يصّر متقدماً إلى الأمام. القردة تحتج. ببغاوات لامرئية تصرخ. طيور كثيرة بلا أسماء ترفرف محتجة بين الشواطئ.

- أنخية شعب البيارو عن الرجل الأبيض -

سيئة مياه النهر
الأسماك تختبئ
في الوهدة الضيقة
محمرة من الوحل.

يعبر الرجل ذو اللحية
الرجل الأبيض
يعبر الرجل ذو اللحية
في القارب الكبير
بمجاديف تصرّ
تعضها الثعابين.

١٥٣١: مدينة المكسيك

- محذراء كواديليبوب -

هل يصعد ذلك الضوء من الأرض أم يهبط من السماء؟ هل هو حشرة ضوئية أم نجم متوهج؟ لا يريد أن يغادر منحدرات تيبياك ويستمر في منتصف الليل مشعاً على الحجارة ومتعلقاً بالأغصان. مهلوساً ومثاراً، يراه الهندي العاري خوان ديينغو: ينفث له ضوء الأضواء يتحطم قطعاً ذهبية ويقوتية وتظهر في قلبه المتوهج أكثر النساء المكسيكيات تألقاً وتقول له باللغة الناهواتلية: «أنا أم الإله». يسمع الأسقف أوماراكاويشك. إنه حامي الهنود الرسمي الذي عينه الإمبراطور وحارس الحديد الذي يطبع على أوجه الهنود أسماء ماليكهم. رمى المخطوطات الآزتيكية في النار، الأوراق التي لوّنتها يد الشيطان ودمّر خمسمائة معبد وعشرين ألف تمثال يعرف الأسقف زاماركا جيداً أن إلهة الأرض تونانتزن كان لها حرم على منحدرات تيبياك وأن الهنود كانوا يحجون إلى هناك ليعبدوا: «أمنّا»، كما كانوا يسمّون تلك المرأة المكسوة بالثعابين والقلوب والأيدي. يشك الأسقف ويقرّر أن خوان ديينغو شاهد عذراء كواديليبوب العذراء التي ولدت في أستريما نديورا والتي جعلت شمس إسبانيا لونها داكناً وجاءت إلى وادي الآزتيكيين لتكون أماً للمهزومين.

١٥٣١: سانتو دومينغو

- رسالة -

يضغط على صدغيه وهو يتتبع الكلمات التي تتقدّم وتراجع. يقول متوسلاً: «لا تفكر بمنزلتي الوضيعة وبفظاظة التعبير، فكر بالإرادة الطيبة التي تدفعني إلى الكلام». يكتب فراي بارتولومي ديلاس كاساس إلى مجلس الأنديز. سيكون من الأفضل كما يؤكد أن يذهب الهنود إلى الجحيم بهرطقاتهم ومماطلاتهم وعزلتهم بدلاً من أن ينقذهم المسيحيون. إن

صرخات الدم الإنساني الكثير المسفوح تصل إلى السماء، صرخات الذين أحرقوا أحياء وتم شواؤهم ورميهم إلى الكلاب المتوحشة...

ينهض. يمشي. يخفق رداؤه الأبيض في سحب الغبار.

يجلس فيما بعد على حافة الكرسي المزخرفة. يחדش أنفه بالقلم تكتب اليد الناتئة العظام: «كي ينقذ الهنود في أميركا وتنفيذ إرادة الله يقترح فراي بارتولومي أن يحكم الصليب السيف وأن تخضع حاميات الجنود للأساقفة ويجب أن يُرسل المستعمرون إلى حراثة الأراضي تحت الحراسة». يتابع كلامه: «يستطيع المستعمرون أن يحضروا السود والمغاربة وعبيدا آخرين ليعملهم، أو يمكنهم أن يعيشوا معتمدين على عملهم الخاص أو بطريقة ما، لا تؤذي الهنود...».

١٥٣١: جزيرة سيرانا

- المطروح^(١) والآخر -

تجرح ربح من الملح والشمس «بدرو سيرانو» الذي يتجول عارياً في الجروف. النوارس ترفرف وهي تطارده. يصنع لنفسه ظلاً بيده المرفوعة وعيناه مثبتتان على أرض العدو. يتجه إلى الخليج الصغير ماشياً على الرمال وحين يصل إلى خط الحدود يتبول. لا يعبر الخط، لأنه يعرف إذا كان الآخر يراقب من أحد المخابىء سيظهر بقفزة واحدة ويتعامل مع هذا الإستفزاز.

يبول وينتظر. تصرخ الطيور وتهرب. أين وضع الرجل نفسه؟ السماء بياض يبهر البصر، ضوء كلسي، والجزيرة حجر يشتعل. صخور بيضاء، ظلال بيضاء، زبد فوق الرمل الأبيض: عالم صغير من الرمل والكلس. أين يستطيع الوغد أن يختبئ؟

مرّ وقت طويل على تحطم سفينة «بدرو» في تلك الليلة العاصفة. ووصل طول لحيته وشعره إلى صدره حين ظهر الآخر على لوح رماه المد الغاضب على الشاطئ. أفرغ بدرو رثتيه من الماء وقدم له الطعام والشراب وعلمه كيف لا يموت على تلك الجزيرة الصحراوية التي لا تنمو فيها سوى الصخور. علمه أن يقلب السلاحف وينهيها بشق واحد، أن يقطع لحمها إلى شرائح ويجففه في الشمس وأن يجمع ماء المطر في دروعها. علمه أن يصلي للمطر وأن يحفر للبطلينوس^(٢) تحت الرمل ودله على مخابىء السرطانات والقريدىس وقدم له بيض السلاحف والمحار الذي أحضره البحر وعلق بأغصان المنغروف^(٣). عرف الآخر من بدرو أنه من الضروري جمع كل شيء يرسله البحر

(١) - المطروح: شخص يوفق إلى بلوغ الشاطئ إثر غرق سفينة.

(٢) - البطلينوس: حيوان من الرخويات أو السمك الصدي.

(٣) - المنغروف: شجر استوائي.

إلى الحيد البحري لكي تشتعل النار ليلاً ونهاراً وتتغذى بالطحالب وأعشاب البحر، بالأغصان التائهة وقناديل البحر وعظام الأسماك. ساعده بدرو في بناء سقف من دروع السلاحف منح ظلاً عوّض غياب الأشجار.

كانت الحرب الأولى هي حرب الماء. شك بدرو أن الآخر يسرق أثناء نومه واتهمه الآخر بأنه يشرب مثل وحش. حين نفذ الماء وسفحت القطرات الأخيرة التي تم التنازع عليها بالكلمات لم يكن لديهما بديل عن شرب بولهما والدم الذي استنزفاه من السلحفاة الأولى التي عثرا عليها. تمددا ليموتا في الظل وبقي لديهما لعاب قليل يكفي فقط للعنات الصامتة.

أنقذهما المطر أخيراً. ظن الآخر أن بدرو يستطيع أن يخفض سقفه إلى النصف لأن السلاحف أصبحت نادرة قال له: «إن منزلك قصر من دروع السلاحف أما أنا فأمضي النهار ملوياً في منزلي». قال بدرو: «أتبرّز عليك وعلى الأم التي أنجبتك، إذا كنت لا تحب جزيرتي اذهب من هنا»، وأشار بأصبعه إلى البحر الواسع.

قرّرا أن يقسما المياه. يوجد من الآن فصاعداً حجرة للماء في كل طرف من الجزيرة. جاءت حرب النار. دارا حول الجزيرة حاملين النار لعل سفينة عابرة تراهما. في إحدى الليالي، حين كان الآخر يقوم بالحراسة انطفأت النار. لعنه بدرو وهزّه ليوقظه.

قال الآخر مكشراً عن أسنانه: «إذا كانت هذه جزيرتك فافعل هذا أيها الخنزير». تدحرجا على الرمال. حين تعبوا من ضرب بعضهما قرّرا أن كلا منهما سيشعل ناره. ضرب بدرو حجراً بسكينه إلى أن تولدت بعض الشرارات ومنذ ذلك الوقت بُنيت نار على كل طرف من الجزيرة. جاءت حرب السكاكين ثالثاً. لم يكن يمتلك الآخر شيئاً يقطع به وطلب منه بدرو أن يمنحه قريداً طرياً كلما أعاره سكينه.

بعد ذلك نشبت حرب الطعام والعقد الصدي. حين انتهت حرب قذف الأحجار وقعا هدنة واتفاقية حدود. لم يكن يوجد سجلات أو أوراق في هذا المكان المهجور ولا أحد منهما يستطيع أن يوقع اسمه، إلا أنهما رسما الحدود وأقسما بالله والملك أن يحترما ذلك. قذفا سمكة في الجو. رسم بدرو نصف الجزيرة التي تواجه «كارتاجينا» وحدد الآخر النصف الذي يواجه سانتياغو دي كوبا.

يقضم بدرو أظافره وهو واقف على الحدود، ينظر إلى الأعلى وكأنه يطلب المطر ويفكر: «لا بد أنه مختبئ في أحد الشقوق، أستطيع أن أشم رائحته، هذا الأجرب. إنه في وسط المحيط ولا يستحم أبداً، سيتقلّى بدهنه إنه هناك نعم». يصرخ: «مرحباً يا ثقب المؤخرة».

يجيبه صخب الرعد وعريضة النوارس وأصوات الريح. يصيح: «أيها العاق. يا ابن العاهرة»، إلى أن تنفجر حنجرتيه ويركض من طرف الجزيرة إلى طرفها الآخر جيئةً وذهاباً وحيداً وعارياً على الرمال.

١٥٣٢ : كاجماركا

- بيزارو -

يكنس ألف رجل ممر الآنكي الذي يؤدي إلى الحي الكبير حيث ينتظر الإسبان مختبئين. ترتجف الجموع حين يمر الأب المحبوب، الواحد، الذي لاشريك له، إله العمل والراحة. يصمت المغنون ويجمد الراقصون، في الضوء الأخير للنهار تتوهج تيجان وأردية «آتاهوالبا» وبطانته من نبلاء المملكة بالذهب والفضة.

أين الآلهة التي أحضرتها الرياح؟ يصل الآنكي إلى وسط الحي ويصدر أمراً بالانتظار. منذ بضعة أيام اخترق جاسوس معسكر الغزاة، شدّ لحاهم وعاد ليخبر أنهم ليسوا سوى حفنة من اللصوص جاؤوا من البحر. كلّفه ذلك التجديف حياته. أين أبناء «يراشوشا» الذين يرتدون النجوم في كعابهم ويرسلون الرعود التي تسبب السّبات والذعر والتشتت والموت؟

يظهر الكاهن فيسنت دي فالفيرد من الظلال ويذهب لمقابلة آتاهوالبا. يرفع الإنجيل في يد والصليب في اليد الأخرى كأنه يوقف عاصفة في أعالي البحار ويصرخ أن الله الحقيقي هو هنا وكل ماعداه باطل. يترجم المترجم ويقول له آتاهوالبا وهو على رأس الحشد: «من قال لك هذا؟».

- «يقول ذلك الإنجيل، الكتاب المقدس».

- «دعه يقول لي».

على بعد بضعة خطوات يشهر بيزارو سيفه.

ينظر آتاهوالبا إلى الإنجيل. يقلبه بيده، يهزه ليجعله يتكلم يضغطة على أذنه ثم يقول: «إنه لا يقول شيئاً إنه فارغ». ثم يرميه إلى الأرض.

كان بيزارو ينتظر هذه اللحظة منذ ذلك اليوم الذي ركع فيه أمام الإمبراطور تشارلز الخامس ووصف الإمبراطورية بأنها كبيرة كأوروبا وأنه اكتشفها واقترح غزوها ووعد به بأروع كنز في تاريخ الإنسانية. وحتى قبل هذه اللحظة منذ اليوم الذي رسم فيه سيفه خطأً في الرمال وانحنى بعض الجنود المرضى المتضوّرين جوعاً وأقسموا أن يتبعوه إلى النهاية. وأيضاً قبل ذلك. بكثير: انتظر بيزارو هذه اللحظة منذ أن كان مرمياً على باب كنيسة في أستريماندورا منذ أربعة وخمسين عاماً وشرب حليب التفاف^(١) لأنه لم يكن يوجد أحد يرضعه.

يصرخ بيزارو وينقض. وعند الإشارة يظهر الفخ. وسط دوي أبواق الإغارة وزئير البنادق يهاجم الفرسان الحشد الأعزل المنذهل.

(١) - التفاف: عشب ذو عصارة لبنية.

١٥٣٣ : كاجماركا

- الفدية -

كۆم الذهب والفضة لشراء حياة آتاهوالبا كحشد من النمل تدفقت على طرق الإمبراطورية الأربع خطوط طويلة من اللامات وبشر تحني أكتافهم الحمولات. جاءت الغنيمة الأروع من «كوزكو»: حديقة كاملة من الأشجار والأزهار الذهبية والأحجار الكريمة والطيور والحيوانات الفضية النقية والفيروزية واللازوردية.

يبتلع القرن الآلهة والحلي ويتقيأ سبائك الذهب والفضة يتنازع الضباط والجنود على توزيعها إذ أنهم لم يحصلوا على رواتب منذ ستة أعوام.

يخصّص بيزارو من كل خمس سبائك حصة للملك ثم يصلّب على نفسه. يطلب مساعدة الله الذي يعرف كلّ شيء ليرى العدالة وقد تحققت ويطلب مساعدة هيرناندو دي سوتو الذي يعرف كيف يقرأ ليراقب الناسخ.

يخصّص جزءاً للكنيسة وآخر للكهان المرافق. يكافئ بسخاء أخوته وضباطه الآخرين. يأخذ كلّ جندي مقاتل أكثر مما يجمعه الملك فيليب في عام ويصبح بيزارو أغنى رجل في العالم. يخصّص أسر آتاهوالبا لنفسه مايعادل مرتين مايسرفه بلاط الملك تشارلز بخدمه الستمائة في عام، هذا دون أن تحسب المحفّة الأنكية التي تحمل ثلاثة وثمانين كيلو غراماً من الذهب الخالص وهذه غنيمة له كقائد.

١٥٣٣ : كاجماركا

- آتاهوالبا -

عَبَرَ قوس قزح أسود السماء. لم يرغب آتاهوالبا الأنكي أن يصدّق ذلك. في يوم الاحتفال الشمسي سقط نَسْرٌ ميتاً في ساحة السعادة. لم يرغب آتاهوالبا أن يصدق ذلك. قتل الرسل الذين جاؤوا بأخبار سيئة وقطع بضربة فأس واحدة رأس النبي الذي تنبأ بسوء الحظ. أحرق معبد الوحي وقطع شهود النبوءة إلى أشلاء.

قيّد آتاهوالبا أبناء أخيه الثمانين على أعمدة نُصِبَتْ على الطرق وتغذّت العقيان على لحومهم. صبغت زوجات هويسكار مياه نهر آدماركا بالدم. أكل هواسكار الذي سجنه آتاهوالبا خراء البشر وشرب بول الخرفان وزوَّج إلى صخرة كُسِيت بالثياب كان هواسكار هو آخر من قال: «سيقتلونه كما سيقتلني». لم يرغب آتاهوالبا أن يصدق ذلك.

حين تحوّل قصره إلى سجن له ، لم يرغب أن يصدق ذلك. قال آتاهوالبا الذي سجنه بيزارو: «أنا أعظم الأمراء على الأرض» ملأت الفدية غرفة بالذهب واثنيتين بالفضة. صهر الغزاة حتى المهد الذهبي الذي سمع فيه آتاهوالبا أغنيته الأولى.

أخبره بيزارو وهو جالس على عرشه أنه قرّر أن يؤكد حكم الموت عليه. أجاب آتاهوالبا: «لا تمزح معي هكذا». ولم يرغب أن يصدق ذلك الآن وهو يصعد خطوة إثر خطوة الدرج جاراً أغلاله في الضوء اللبني للفجر.

ستنتشر الأنباء حالاً بين أطفال الأرض الذين لا يحصى لهم عدد والمحكومين بدفع الجزية لابن الشمس. سيبكون في «كويتو» موت الظل الذي يحمي: منذهلاً، ضائعاً بلا ذاكرة ووحيداً. سيعمّ الفرح في «كوزكو» ويُسَفَح الشراب.

آتاهوالبا مقيد من يديه ورجليه وعنقه. لكنه ما يزال يفكر: «ماذا فعلت لأستحق الموت؟». عند قدم المشنقة يرفض أن يصدق أن إنساناً هزمه. تستطيع فقط الآلهة أن تفعل هذا. لقد خانه والده الشمس.

يبكي ويقبل الصليب ويقبل العمادة قبل أن تحطم عنقه الضاغطة الحديدية. حاملاً اسم فرانسيسكو الغازي يطرق بعنف على أبواب جنة الأوروبيين حيث لا يوجد مكان له.

١٥٣٣ هاكوي كوانا

- السرّ -

يتقدّم بيزارو نحو كوزكو على رأس جيش كبير. أضاف الملك الآنكي الجديد آلاف الهنود إلى حفنة من الغزاة. يُنهك ضباط آتاهوالبا تقدّمه يأسر بيزارو في وادي هاكوي كوانا أحد رسل أعدائه. تلعق النار باطن قدميه.

- «ماذا تقول هذه الرسالة؟»

إنه رجل متمرس بالجري. عبر الرياح الجليدية للسهل وحرارة الصحراء الشرسة. عودُهُ عمله على الألم والإعياء. إنه يئنّ لكنه لن يتكلم.

بعد عذاب طويل ارتخى لسانه فقال: «لن تستطيع الجياد أن تتسلّق الجبال». - «ماذا أيضاً؟».

- «لا يوجد ما يخشى منه. إن هذه الخيول جبانة لكنها لا تؤذي».

- «وماذا أيضاً؟».

جعلوه يمشي على النار.

- «وماذا أيضاً؟».

فقد قدميه وقبل أن يفقد حياته قال: «أنتم ستموتون أيضاً».

١٥٣٣ : كوزكو

- الغزاة يدخلون إلى المدينة المقدسة -

في الظهيرة المتألقة يشق الجنود طربقهم عبر سحب الدخان. تختلط رائحة الجلد المتعرق برائحة الإشتعال. بينما تسمع قعقة حوافر الأحصنة وعجلات المدافع.

يرتفع مذبح في الساحة. تواكب رايات حريرية مطرزة بالنسور الإله الجديد المفتوح الذراعين الملتهبي كأبنائه. ألا يشاهد الإله الجديد أبنائه حاملين الفؤوس بأيديهم ويقفزون فوق ذهب المعابد والمدافن؟

وسط أنقاض كوزكو، ينتظر العجائز والمشلولون الذين فحمتهم النار بصمت، الأيام القادمة.

١٥٣٣ : ريبوبامبا

- آلفارادو -

رست السفن منذ نصف عام في بويرتو فييجو. أبحر بدرودي آلفارادو من غواتيمالا، حاملاً بكنوز مملكة عذراء. ذهب معه خمسمائة إسباني وعشرون ألفاً من الهنود والزنوج العبيد. أبلغه الرسل: «إن القوة التي تنتظرك ستجعل ماتراى لك كالقذارة، وفي شمال تميز ستضعف شهرتك وثروتك. لقد أصبح بيزارو وأماغرو سيدين في الجنوب إلا أن مملكة كيوتو الخيالية لا يملكها أحد».

عثروا على الذهب والفضة والزمرد في القرى الساحلية. انطلقوا إلى الجبال حاملين ثروات سريعة. واجهوا الأدغال والمستنقعات، الحمى التي تقتل في يوم أو تترك المرء مجنوناً والمطر المرعب للرماد البركاني. حطمت العواصف الثلجية والرياح التي تقطع كالسكاكين عند سفوح الأنديز العبيد الذين لم يعرفوا البرد أبداً وبقي كثير من الإسبان هياكل عظمية في الجبال. الجنود الذين ترجلوا ليشدوا أحزمة سروج أحصنتهم بقوا متجمدين بشكل مستمر. رميت الغنائم في قاع الوهاد: قدام آلفارادو الذهب وازداد صخب الجنود من أجل الطعام والمأوى. بعينين محروقتين من الثلج الذي يعمي البصر استمر آلفارادو بقيادة القافلة. كان يقطع بضربة سيف واحدة رؤوس العبيد الذين سقطوا والجنود الذين لم يرغبوا بالذهاب.

موتى أكثر مما هم أحياء، عضلاتهم متصلبة ودمهم متجمد، وصل الرجال الأكثر بأساً إلى هضبة. وأخيراً وصلوا إلى الطريق الملكي للأنكيين الذي يؤدي إلى «كويتو»، إلى الجنة. حالما وصلوا عثروا على آثار الحوافر الطرية على الوحل. لقد سبقهم القائد بينال كازار إليها.

١٥٣٣ : كويتو

- هذه المدينة تقتل نفسها -

يدخل رجال بينال كازار ولا يمكن إيقافهم. آلاف من الحلفاء الهنود، أعداء الأنكا، يتجسسون ويقاتلون من أجلهم. بعد ثلاث معارك سبق السيف العذل. يشعل القائد رومينا هوي الذي كان يقرع طبول الانسحاب النار في كويتو. لن يستمتع بها الغزاة حية ولن يجدوا أية كنوز سوى تلك التي يمكن أن يحفروا المدافن ليعثروا عليها. ارتفعت مدينة كويتو، مهد وعرش آتاهوالبا، نارا عظيمة بين بركانين.

يبتعد رومينا هوي الذي لم يُطعن في الظهر أبداً عن ألسنة اللهب المحلقة. عيناه دامتان بسبب الدخان.

١٥٣٣ : برشلونة

- الحروب المقدسة -

يصل رسل الأنباء السارة من أميركا. يغلق الإمبراطور عينيه ويرى الأشعة تقترب ثم يتذوق رائحة القار والملح. يتنفس الإمبراطور كالمحيط، كالمذّ العالي، كالجزر وينفخ ليسرع السفن المنتفخة بالكنوز.

كان القدر قد كافأه لتوه بمملكة جديدة حيث يتكوّم الذهب والفضة كالحديد في «فيزكايا». الغنائم المدهشة في طريقها. ستمكنه من تهدئة أصحاب البنوك الذين يخنقونه وسيدفع لجنوده من الرماحين السويسريين والمرتزة الألمان والمشاة الإسبانية الذين لم يشاهدوا أبداً قطعة نقد في أحلامهم. ستموّل فدية آتاهوالبا الحروب المقدسة ضدّ الهلال الإسلامي الذي وصل إلى بوابات فيينا وضدّ الهراطقة الذين يتبعون لوثر في ألمانيا. سيرسل الإمبراطور أسطولاً عظيماً ليطرده السلطان سليمان والقراصنة ذوي اللحي الحمراء من البحر الأبيض المتوسط.

تعكس المرأة صورة إله الحرب يرتدي درعاً دمشقياً مطرزاً عند العنق وعلى صحن الصدر يرتدي خوذة مريشة وله وجه تضيئه شمس العظمة. تظهر حواجب كثيفة فوق عينيْن كئيبتين، ذقن منتصب إلى الأعلى تغطيه لحية. يحلم الإمبراطور بالجزائر ويسمع نداء القسطنطينية، تنتظر تونس أيضاً التي سقطت في أيد ملحدة جنرال يسوع المسيح.

١٥٣٣ : سيفيل

- كنوز الأنكيين -

رمت السفن الأولى الذهب والفضة على أرصفة مرفأ سيفيل. جرّت الثيران الحمولات إلى غرفة التجارة. تصاعدت تمتات الدهشة من الحشد الذي أتى ليراقب عملية التفريغ. كان هناك حديث عن أسرار وعن ملك مهزوم وراء المحيط.

يخرج سكيران من المقهى الذي يواجه رصيف المرفأ وينضمّان إلى الحشد. إنهما لا يحتفلان بالكنوز الأنكية. كانا متوهجين بعد جلسة تناول خمور جيدة ولأنهما قطعاً عهداً على نفسيهما. اتفقا على تبادل زوجتيهما: أنت تأخذ زوجتي التي هي كاللؤلؤة وأنا آخذ زوجتك رغم أنها لاتستحق الكثير. كانا يبحثان عن كاتب بالعدل ليجعل الأمر رسمياً.

لم يفكرا بذهب وفضة البيرو ولم يلتفت الحشد إلى المطروح الذي وصل مع الكنز. أنقذته سفينة جذبتها النار من جزيرة كاريبية. كان اسمه «بدر سيرانو» ومنذ تسعة أعوام سبح ناجياً من حطام سفينة. يستخدم شعره ليجلس عليه ولحيته كرداء وله بشرة جلدية ولم يتوقف عن الحديث منذ أن أصعدوه إلى السفينة. والآن يتابع رواية حكايته وسط الزئير ولا أحد يصغي إليه.

١٥٣٤ : ريوبامبا

- التضخم -

حين وصلت أنباء ذهب آتاهوالبا إلى سانتو دومينغو ذهب الجميع للبحث عن السفن. كان أول من تحرك بسرعة ألونزو هيرنانديز المتاجر بالهنود. أبحر من بنما ولدى وصوله إلى تمبيز اشترى حصاناً. يكلف الحصان في تمبيز أكثر مما يكلف في بنما بسبع مرات وبثلاثين مرة مما يكلف في سانتو دومينغو.

أجبر تسلق الجبال هيرنانديز على المشي. وليكمل رحلته إلى كيويتو يشتري حصاناً آخر. يدفع مايزيد على كلفته بتسعين مرة في سانتو دومينغو ويشتري عبداً أسود بثلاثمائة وخمسين بيزو، يزيد سعر الحصان في ريوبامبا على سعر الإنسان تسع مرات.

كلّ شيء للبيع في المملكة حتى الرايات الملطخة بالوخل والدم وكل شيء مسعر بسعر مرتفع كالسماء. تباع السبيكة بقطعتين ورقيتين.

يهزم التجار الذين وصلوا متأخرين الفاتحين دون أن يشهروا سيفاً.

١٥٣٥ : كوزكو

- العرش النحاسي -

لايستلقي على ركبتى الملك الصغير التابع للملك آخر صولجان ذهبي بل عصا تشعّ بقطع زجاجية ملونة. يرتدي مانكو آنكا شُرابة قرمزية على رأسه إلا أن العقد الذهبي الثلاثي غائب عن عنقه حيث لا تتوهج الشمس ولا تتدلى الأقراص اللامعة من أذنيه. يخلو ظهر شقيق آتاهوالبا وعدوه ووريثه من عباءة الذهب وخيوط الفضة ونسيج الفيكونة^(١) اختفى الباز عن الرايات التي تضربها الريح وحلّ مكانه نسر امبراطور أوروبا.

لأحد يركع عند قدمي الآنكي الذي توجّه بيزارو.

١٥٣٦ : مدينة المكسيك

- موتولينيا -

يمشي فراي توريبيو موتولينيا حافياً على الهضبة حاملاً كيساً ثقيلاً على ظهره. موتولينيا كلمة محلية تعبر عن شخص فقير ومبتلى. ما يزال يلبس رداءً رثاً مرقعاً منحه اسمه منذ أعوام حين كان يصل حافياً كما الآن من ميناء فيراكروز. يقف على قمة المنحدر وتمتدّ تحت قدميه البحيرة الكبيرة التي تتوهج فيها مدينة المكسيك. يمسّد موتولينيا جبهته بيده يتنفسّ بعمق وينصب في الأرض عشرة صلبان مصنوعة من أغصان ومربوطة بالحبال. حين ينصبها يخصّصها كالتالي:

« هذا الصليب ياإلهي هو من أجل الأمراض التي لم تكن معروفة هنا والتي تنتشر برعب بين السكان المحليين».

«وهذا من أجل الحرب، وهذا من أجل الجوع الذي قتل من الهنود مايبليغ عدد قطرات البحر وذرات الرمال».

«هذا من أجل جامعي الجزية، الدبابير التي تأكل عسل الهنود. وهذا من أجل الجزية التي تجبرهم على بيع أبنائهم وأراضيهم ليدفعوها».

«وهذا من أجل مناجم الذهب التي تفوح بنتن الموت والتي لا يستطيع المرء أن يتقدّم فيها فرسخاً واحداً».

(١) - الفيكونة: حيوان جنوب أميركي شبيه بالجمال.

«وهذا من أجل مدينة المكسيك العظيمة التي ترعرعت على أنقاض تينوشيتلان ومن أجل الذين أحضروا العوارض الخشبية والأحجار على ظهورهم ليبنوها وهم يغنون وبصرخون ليلاً ونهاراً إلى أن ماتوا من الإعياء أو من الانهيارات».

«وهذا من أجل الأرقاء الذين جرّوا إلى هنا من جميع الجهات كقطعان من الوحوش وحُفِرَ الوشم على وجوههم. وهذا من أجل الذين تساقطوا على جانبي الطريق حاملين أثقالاً لتدعيم المناجم».

«وهذا يا إلهي من أجل صراعاتنا الأبدية ومناوشاتنا نحن الإسبانيين والتي تنتهي دائماً بتعذيب الهنود وقتلهم».

يصلي موتولينيا راکعاً أمام الصلبان: «سامحهم يارب. أتوسّل إليك أن تغفر لهم. أعرف جيداً أنهم يستمرّون في عبادة الأوثان الدموية، وإذا كانوا سابقاً يمتلكون مائة إله فهم الآن يمتلكون واحداً إضافياً. لا يستطيعون أن يميّزوا خبز القربان المقدّس عن حبة ذرة، ولكن إذا كانوا يستحقّون عقوبة يدك الجبارة فهم أيضاً، يستحقّون شفقة قلبك الكريم».

يصلّب موتولينيا، ينفّض رداءه وينزل عن الهضبة. يصل إلى الأبرشية قبل بدء السلام المريمي. وحيداً في حجرته يتمدّد على فراشه القشّي ويمضغ ببطء وبصوت مسموع ترتية^(١).

١٥٣٦: ماشو بيتشو

- مانكو أنكا -

مريضاً من كونه ملكاً يُعَامَل ككلب ينتفض مانكو أنكا ضدّ الرجال ذوي الوجوه المشعّرة. يعيّن بيزارو على العرش الفارغ «بولو» شقيق مانكو أنكا وآتاهوالبا وهواسكار.

على ظهر حصانه وعلى رأس جيش ضخم يحاصر مانكو أنكا «كوزكو». تتعالى النيران حول المدينة ويسقط مطر سهام الصوفان المشتعل إلا أن الجوع يؤثر على الذين يضربون الحصار أكثر مما يؤثر على المحاصرين. ينسحب جنود مانكو أنكا بعد نصف عام وسط صيحات الحرب التي تشق الأرض.

يعبر الآنكا وادي نهر أوربامبا ويبزغ بين القمم العالية المكّلة بالضباب. تقوده درجات حجرية إلى مخبأ قمة الجبل السري. محمية بالمقاريص والأبراج المحصنة تفرض قلعة ماشوبيتشو سيادتها خارج العالم.

(١) - الترتية: كعكة مسطحة مدورة من دقيق الذرة.

١٥٣٦: وادي أولوا

- غونزالو كويريرو -

ينسحب خيالة ألونزو دي آفيلو المنتصرون. يستلقي في ساحة المعركة بين الخاسرين هندي ملتج. جسده العاري أرابيسك من الحبر والدم. تتدلى رموز ذهبية من أنفه وقد شقت طلقة بندقية جبهته. كان اسمه غونزالو كويريرو. كان في بداية حياته يعمل بحارا في ميناء بالوس. بدأت حياته الثانية منذ ربع قرن حين تحطمت سفينته على شاطئ يوكاتان. عاش بين الهنود منذ ذلك الوقت. كان زعيماً أيام السلم وقائداً في الحرب. أنجبت له امرأة من المايا ثلاثة أبناء. في عام ١٥١٩ أرسل هرنان كورتيز في طلبه.

قال غونزالو للمترجم: «لا انظر إلى جمال أبنائي، اترك لي فقط بعض هذه الكرات الحمراء التي تحملها سأعطيها لأبنائي وأقول لهم: لقد أرسل لي أخوتي هذه الألعاب من بلدي». بعد وقت طويل سقط غونزالو كويريرو وهو يدافع عن بلد آخر ويقاوم إلى جانب أخوة آخرين اختارهم بنفسه. إنه أول غاز غزاه الهنود.

١٥٣٦: كوايكاكان

- كابيزا دي فاكا -

مرت ثمانية أعوام على تحطم سفينة كابيزا دي فاكا قرب جزيرة «مال هادو». يصل أربعة أشخاص فقط، أربعة إلى كوايكاكان من بين ستمائة رجل أبحروا من الأندلس. ترك بعضهم على الطريق وابتلع البحر عدداً كبيراً منهم، مات البعض الآخر من الجوع والبرد أو قتلهم الهنود.

عبر ألفارو نونيركابيزا دي فاكا وألونزو ديل كاستيلو وأندريه دورا نتييز واستينا بيكو وعربي أسود أميركا كلها سيرا على الأقدام من فلوريدا إلى شواطئ المحيط الهادي. عراة ومسلوخي الجلد كالثعابين أكلوا العشب البري والجذور والديدان والسحالي أو أي شيء عثروا عليه حياً إلى أن قدم لهم الهنود الأغذية والتين الشوكي وقرون الذرة مقابل معجزاتهم وعلاجاتهم. أعاد كابيزا دي فاكا أكثر من هندي واحد إلى الحياة بصلاته الربانية وسلامه المريمي وشفى كثيراً من المرضى بشارة الصليب والنفخ على مواضع آلامهم. انتشرت شهرة مجتري المعجزات في الأرجاء، وجاء كثيرون ليسلموا عليهم على الطرقات واستقبلتهم القرى بالرقص والغناء.

حين شقوا طريقهم جنوباً ظهرت في «سينالو» العلامات الأولى التي تدل على وجود المسيحيين. عثر كابيزا دي فاكا ورفاقه على أبازيم ومسامير لكعوب الأحصنة وعلى أعمدة للربط، أيضاً وجدوا الخوف، وحقولاً مهجورة وهنوداً نزحوا إلى الجبال.

قال كابيزا دي فاكا: «نشعر بالدفء، بعد مسير طويل اقتربنا من قومنا».

قال الهنود: «ليسوا مثلكم. تجيئون من حيث تشرق الشمس ويجيئون من حيث تغرب. إنكم تشفون المرضى وهم يقتلون الأصحاء. تمشون عراة وحفاة ولستم جشعين مثلهم».

١٥٣٧: روما

- يقول البابا إنهم مثلنا -

يطبع البابا بولس الثالث اسمه والذي يشبه اسم القديس بطرس والقديس بولس، بالختم الرصاصي على مخطوطة ورقية. يَصْدُرُ أمر بابوي رسمي عن الفاتيكان. يوضح أن الهنود بشر ويمتلكون روحاً وعقلاً.

١٥٣٨: سانتو دومينغو

- المرأة -

أحجار تصدر دخاناً ومعاول تلمع تحت شمس الظهيرة. يتعالى زئير في الميناء. أحضرت سفن شراعية كبيرة مدفعية ثقيلة من سيفيل من أجل حصن سانتو دومينغو.

يراقب فرنانديز دي أوفييدو، رئيس البلدية، عملية نقل المدافع. تحت ضرب السياط يُنزل الأرقاء السود الحمولة بسرعة كبيرة تصّر العربات تحت حمولتها من الحديد والبرونز يتحرك عبيد آخرون جيئةً وذهاباً وسط الصخب ويدلقون سطول الماء على اللهب المتصاعد من محاور العجلات الحامية.

تبحث فتاة هندية عن سيدها وسط الهياج والصخب. كان جسدها مغطى بالبثور وكانت كل خطوة تخطوها نصراً لأن ثيابها الهزيلة تعذب جلدها. عانت طوال الليل ونصف النهار وبصرخات متتالية من حروق بالأسيد أحرقت بيديها جذور شجرة «الغو» فركتها بين يديها وصنعت عجينة دهنت بها جسدها لأن مادتها تحرق الجلد وتزيل لونه وتحول النساء الهنديات والأفريقيات إلى سيدات قشتاليات بيضاوات.

- «ألم تعرفني ياسيدي؟»

يدفعها أوفييدو بعيداً إلا أن الفتاة تلحّ بصوتها الواهن تابعة سيدها كظله وهو يجري ويصدر الأوامر إلى كبار العمال:

- «ألا تعرف من أنا؟»

تسقط الفتاة على الأرض وتتابع: «سيدي، سيدي، أراهن أنك لا تعرف من أنا؟»

١٥٣٨ : وادي بوغوتا

- لحيّة سوداء، لحيّة حمراء، لحيّة بيضاء -

ذهب غونزالو خمينيث كويسادا ذو اللحية السوداء والعينين السوداوين منذ عام ليبحث عن منابع الذهب ومنبع نهر «الماجلينا» وتبعه نصف سكان سانتا مارتا.

عبروا أراضي ومستنقعات كانت تتبخّر تحت أشعة الشمس. حين وصلوا إلى ضفة النهر لم يبق أحد من آلاف الهنود الذين سيقوا ليحملوا المدافع والخبز والملح على قيد الحياة. وبما أنه لم يعد يوجد عبيد يصطادون لهم طبخوا الكلاب وأكلوا لحم الأحصنة. كان الجوع أكثر سوءاً من التماسيح والأفاعي والبعوض. التهموا الجذور وقطع الجلد كانوا يتنازعون على لحم الموتى قبل أن يمنحه الكاهن تاشيرة الذهاب إلى الجنة.

أبحروا في النهر. لسعتهم الأمطار ولم تهب ريح لتدفع الأشعة إلى أن قرّر كويسادا تغيير الاتجاه: «يجب أن تكون «الدورادو» في الجانب الآخر من الجبال وليس عند منبع النهر». هذا ما قاله لهم. وهكذا ساروا عبر الجبال.

بعد أن تسلّقوا كثيراً يقترب كويسادا من الأودية الخضراء لأمة التشيبشا. على رأس سبعين فزاعة تأكلها الحمى. يرفع سيفه ويعلن أنه سيتوقف عن طاعة أوامر حاكمه.

غادر نيقولاس فيدرمان ذو اللحية الحمراء والعينين الزرقاوين كوزكو منذ ثلاثة أعوام ونصف ليبحث عن المركز الذهبي للأرض منطلقاً في رحلة عبر الجبال والسهول. كان أول من مات هنوده ورجاله السود.

حين يصل فيدرمان إلى القمم المكلفة بالسحب يشاهد الأودية الخضراء لأمة التشيبشا. بقي معه مائة وسبعون جندياً من الأشباح التي تجرّ أنفسها مغلفةً بجلود الأيائل. يُقبّل فيدرمان سيفه يتخذ موقعاً ويعلن أنه لن يطيع بعد الآن أوامر حاكمه.

انطلق سيباستيان بينالكازار ذو العينين الرماديتين واللحية التي شيّبها العمر أو غبار الطريق منذ ثلاثة أعوام بحثاً عن الكنوز التي فرغتها مدينة كوزكو وأحرقتها وحرمتها منها. لم يبق من الهنود والأوروبيين الذين ذهبوا معه سوى مائة وستين شخصاً من الأوروبيين المرهقين. هادم المدن وبانيها، بينالكازار ترك خلفه قافلة من الرماد والدم وعوالم جديدة ولدت من حدّ سيفه حول المشانق وفي الساحة وحول الساحة والكنيسة والمنازل والمتاريس

تتوهج خوذة الغازي على قمة رؤوس الجبال. يتملّك بينالكازار الأودية الخضراء لأمة التشيبشا ويعلن أنه لن يطيع ثانية أوامر حاكمه.

جاء كويسادا من الشمال وجاء فيدرمان من الشرق ومن الجنوب جاء بينالكازار. صليبٌ وبندقيةٌ، سماءٌ وترابٌ: بعد تجوّل مجنون طويل يهبط القوّاد الثلاثة المتمردون منحدرات الجبال ويلتقون في سهل بوغوتا.

يعرف بينالكازار أن زعماء هذه المنطقة يسافرون على محفّات ذهبية. يسمع فيدرمان الألحان العذبة التي تعزفها النسائم على أغطية الذهب المتدلية في المعابد والقصور. يركع كويسادا على شاطئ البحيرة حيث يعمّد الكهنة المحليون الذين يغطيهم غبار الذهب أنفسهم. من الذي سيصل إلى الدورادو؟ كويسيدا الغرناطي الذي يقول إنه وصل إلى هنا أولاً أم فيدرمان الألماني الذي يغزو باسم صاحب البنك فيلزر، أم بينالكازار القرطبي؟ تروّز الجيوش الثلاثة المقرّحة الجلد والبارزة العظام قوة بعضها وتنتظر. ينفجر الألماني ضاحكاً ويلتقط الأندلسي العدوى إلى أن ينهار القوّاد الثلاثة ويسقطون أرضاً من الضحك والجوع ومن السبب الذي جاء بهم إلى هنا، ذلك الذي هو غير موجود والذي جاء دون أن يصل، معرفة أن الدورادو لن تكون ملكاً لأحد.

١٥٣٨: بركان مسايا

- إله المال: فولكان -

خرجت من فوهة البركان «مسايا» في أزمنة أخرى عجوز عارية تتقن أسراراً كثيرة وقدمت نصائح جيدة عن الذرة والحرب. ومنذ أن وصل المسيحيون ترفض المرأة، كما يقول الهنود أن تغادر الجبل المشتعل.

يعتقد كثير من المسيحيين أن «المسايا» هو فم الجحيم وأن توهجاته ودخان النار الأبدى يعلن العقوبات الأبدية. يؤكد آخرون أن هذه السحابة الدخانية الساطعة التي تُرى على بعد خمسين فرسخاً صادرة عن الذهب والفضة اللذين يُصهران وينقيان ويغليان في بطن الجبل وكلما ازداد تأجج النار ازداد نقاؤهما.

أعدّ للرحلة منذ عام، يستيقظ الأب بلاس ديل كاستيلو باكراً جداً ويسمع اعترافات بدرو رويز وبينيتو دافيل وخوان سانثيز. يتوسّل الأربعة طلباً للغفران والدموع تسيل من أعينهم ثم ينطلقون في الصباح.

كان القسيس هو أول من اقترب مرتدياً خوذة وبطرشياً^(١) على صدره حاملاً صليباً في يده إلى الساحة المستوية الكبيرة التي تحيط بغمّ اللهب.

يصيح مُسَوِّداً من الرماد وهو يركّز الصليب بين الأحجار: «هذا ليس جحيماً بل جنة». يتبعه رفاقه حالاً. يدلي الهنود من الأعلى بكرة سلاسل ومراجل وعوارض خشبية.

يغطّسون الرجل ولاياتي الذهب والفضة من الأعماق لآسيء سوى خبث الكبريت وحين يخطسون الرجل عميقاً يأكله البركان.

(١) - البطرشيل: نسيجة طويلة يجعلها الكاهن في عنقه وعلى صدره في الخدمة.

١٥٤١ : سانتياغو دي تشيلي

- أنيز سواريس -

اكتشف بدرو دي فالديفيا هذه الهضبة وهذا الوادي منذ بضعة شهور. سمى الآروكانيون هذه الهضبة التي اكتشفوها منذ آلاف السنين «هويلين» أي الألم. عمدها فالديفيا باسم لوسيا. من أعلى الهضبة شاهد فالديفيا التراب الأخضر بين ذراعي النهر وقرر أنه لا يوجد في العالم مكان أجمل من هذا لبناء مدينة للحواريّ سانتياغو الذي يرافق الغزاة ويقاتل من أجلهم. قطع الجوّ بسيفه في الجهات الأصلية التي حددتها البوصلة وهكذا ولدت سانتياغو بحدودها الجديدة. إنها تستمتع الآن بصيفها الأول: بُنيتْ بعض المنازل من الوحل والأخشاب وسُقِفَتْ بالقش ومُهَدَّتْ ساحة في الوسط وأحيطت بسور من القضبان المغروزة.

بقي خمسون رجلاً في سانتياغو. يمكث فالديفيا معهم على ضفة نهر «الكاتشابول». حين يشرق الفجر ينفخ الحارس بوق الإنذار من البرج. تقترب فرق خيالة من السكان الأصليين من الجهات الأربع. يسمع الإسبانيون صرخات الحرب ويسقط عليهم حلاً وابل من السهام. تتحول بعض المنازل ظهراً إلى رماد ويسقط السور يقاتلون جسداً لجسد في الساحة. تركض آنيز إلى كوخ السجن. هناك يقف الحارس الذي يحرس سبعة من الزعماء الآروكانيين الذين أسرهم الإسبان منذ بعض الوقت. تتوسّل إليه وتأمّره أن يقطع رؤوسهم.

- «ماذا؟».

- «رؤوسهم».

- «ماذا...».

- «هكذا».

تقبض على سيفه فتطير أربعة رؤوس في الجو. تحوّل الرؤوس المحاصرين إلى مطاردين. لا يستدعي الإسبان القديس سانتياغو فحسب بل سيدتنا التي تقدم المساعدة الجيدة أيضاً. كانت آنيز سواريس المرأة الملقية أول من وقّع حين بدأ فالديفيا حملات التطويع في منزله في كوزكو. جاءت إلى هذه الأراضي الجنوبية على رأس القوات الغازية راكبة على حصانها قرب فالديفيا حاملة سيفاً فولاذياً كبيراً مرتدية درعاً من الزرد الرائع ومنذ ذلك الوقت وهي تتقدّم وتقاتل وتنام مع فالديفيا. واليوم أخذت مكانه.

إنها المرأة الوحيدة بين الرجال يقولون إنها مسترجلة. ويقارنونها مع «رولدان» أو «إيل سيد» وتدلّك أصابع القائد فرانسيسكو دي آغيري بالزيت. لقد التصقت هذه الأصابع على مقبض سيفه ولا يمكن فصلها رغم أن الحرب انتهت.

١٥٤١ : صخرة نوشيستلان

- أبداً -

قبضوا حتى على حماره. أولئك الذين يسرقون الآن آنيته الفضية ويدوسون على سجاداته رموه خارج المكسيك بأقدام مغلوله.

بعد عشرة أعوام يستدعي المسؤولون المحارب. يتخلى ألفارادو عن حكم غواتيمالا ويجيء ليظهر هذه الأرض التي فتحها كورتيز من الهنود غير الممتنين. يريد أن يتجه شمالاً إلى مدن سييبولا الذهبية السبع، في حمى المعركة يسقط عليه حصان ويرميه عن الجرف.

عاد بدرو ألفارادو إلى المكسيك وفي المكسيك يرقد. تعلق خوذته بغصن ويسقط سيفه بين العليق. «لا تشهرني بدون شرف»، ما يزال يمكن قراءة هذه الجملة على الحدّ الفولاذي.

١٥٤١ : مدينة غواتيمالا القديمة

- بياتريس -

تزوج بدرو ألفارادو من فرانسيسكا إلا أنها ماتت من شاي شربتها في الطريق فتزوج شقيقتها بياتريس.

كانت بياتريس تنتظره في غواتيمالا حين علمت أنها أرملة منذ شهرين. كللت بيتها بالسواد من الداخل والخارج وأغلقت الأبواب والنوافذ بالمسامير لتصنع عزلة خاصة تستطيع أن تعبر فيها عن ألم قلبها.

تبكي وهي تنظر في المرآة إلى جسدها العاري الذي جفّ من الانتظار ولم يعد يمتلك الآن شيئاً ينتظره، هذا الجسد الذي توقف عن الغناء. تبكي من فمها الذي يستطيع أن يقول فقط: «أين أنت يا حبيبي».

تبكي من المنزل الذي تكرهه والأرض التي ليست لها والسنين التي سُفِحت بين المنزل والكنيسة من القداس إلى العشاء من العمادة إلى الدفن محاطة بالجنود السكارى والخدم الهنود الذين يمرضونها. تبكي من الطعام الذي يزعجها ومن أجل الذي لم يأت أبداً لأن الحرب قائمة دائماً والغزو مستمر. تبكي من أجل جميع الدموع التي سفحتها وحيدة في فراشها حين تجفل من صياح ديك أو عواء كلب - وتعلمت وهي وحيدة أن تقرأ الظلمة وتصغي إلى الصمت وترسم في الهواء. تبكي وتبكي محطمة من الداخل.

حين تخرج من المعتزل تعلن: «أنا حاكمة غواتيمالا».

لاستطيع أن تحكم طويلاً
يتقيأ البركان شلالاً من الماء والحجارة يغرق المدينة ويقتل كل ما يلمسه. يتابع الطوفان تقدمه
نحو منزل بياتريس التي تركض إلى الكنيسة وتتجه إلى المذبح وتعانق العذراء. تعانق وصيفاتها
قدميها بينما تصرخ بياتريس. «هل أنت هناك يا حبيبي؟»
يدمر الطوفان المدينة التي بناها ألفارادو وبينما هو يزار بصوت أكثر علواً تستمر بياتريس
بالصراخ: «هل أنت هناك؟»

١٥٤١ : كابو فريو

- في الفجر، نغنى الجندب -

كان صامتاً منذ أن أصدوه إلى السفينة في ميناء كاديز. أمضى شهرين ونصفاً صامتاً وحزيناً في
قفصه الصغير واليوم رنت صرخة فرح من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها وأيقظت الجميع.
- «معجزة! معجزة!»

كان يوجد فقط وقت تستطيع فيه السفينة أن تغير اتجاهها. كان الجندب يحتفل باقتراب
اليابسة. شكراً للجندب الذي أنقذ البحارة من تحطم مؤكد على صخور الشاطئ البرازيلي.
يمتلك كابيزا فاكا الذي يقود هذه الرحلة خبرة جيدة بهذه المسائل. سمّوه آلفار مجترح
المعجزات منذ أن عبر أميركا من شاطئ إلى آخر ليحيي الأموات في القرى الهندية.

١٥٤٢ : كويتو

- الدورادو -

خاض رجال غونزالو بيزارو لوقت طويل في عمق الأدغال بحثاً عن الأمير ذي الجلد الذهبي
وأيكات القرفة صادفوا ثعابين وخفافيش وجيوشاً من البعوض، مستنقعات وأمطاراً لا تتوقف أبداً.
كان البرق يلمع ليلة بعد أخرى ليضيء طريق هذه القافلة من الرجال العراة الذين يرهقهم السعار.
يصلون بعد الظهر إلى محيط كويتو هياكل عظمية متقرحة ويتفوه كل منهم باسمه ليتّم التعرف
عليه. لم يعد من هذه الرحلة أربعة آلاف عبد هندي ذهبوا معهم.

يركع القائد غونزالو ويقبل الأرض. رأى البارحة في حلمه تيناً ينقض عليه ويمزقه إرباً ويأكل
قلبه. وهذا يمنعه من النوم الآن بعد أن نقلوا إليه الأنباء:

«لقد اغتيل شقيقك فرانسيسكو في ليما».

١٥٤٢ : كونلابيارا

- الأمازونيات -

لم يكن مسار المعركة سيئاً في هذا اليوم، يوم القديس جون، وسط طلقات البنادق وأقواس الشباب كان رجال فرانسيسكو أوريلانا يفرغون القوارب البيضاء القادمة من الشاطئ. إلا أن السحرة كانوا في الممر الحربي. ظهرت المرأة المحاربة فجأة جميلة بشكل فضائي وشرسة ثم غطت الزوارق بعد ذلك النهر. هربت السفن عكس التيار كالشياهم مذعورة مغطاة بالسهم من المقدمة إلى المؤخرة بما فيه الصواري الرئيسية.

كانت هذه المرأة السليطة المشاكسة تضحك وهي تحارب واجهت هؤلاء النسوة العظيمات الجاذبية والجمال الرجال ولم يعد يوجد خوف في قرية كونلابيارا. قاتلن وهن يضحكن ويرقصن وصدورهن ترتعش في النسيم إلى أن ضاع الإسبان خلف قم نهر تاباخوس مرهقين من الجهد الكبير ومن الدهشة.

لقد سمعوا حكايات عن هؤلاء النساء وهم يصدقونها الآن. إنهن يعشن في الجنوب في أرض تخلو من الرجال إذا ولد الأطفال ذكوراً يتم إغراقهم، وحين يجوع الجسد يشنون حرباً على القبائل الساحلية يأخذون الأسرى ويعيدونهم في اليوم التالي. بعد ليلة من ممارسة الحب ذلك الذي يذهب شاباً يعود عجوزاً.

سيتابع أوريلانا وجنوده الإبحار في أقوى أنهار العالم ويصل إلى البحر بدون قبطان أو بوصلة أو خريطة. يبحر في المركبين الذين دعماً في وسط الغابة ويندفع عبر نهر الأمازون عبر الأدغال ولا يمتلك أحد القدرة على التجديف. يصلون طالبين من الله أن يجعل عدوهم التالي رجالاً مهما كان عددهم.

١٥٤٢ : نهر إغوازو

- في وضع النهار -

محترقاً تحت لباسه الحديدي، متألماً من الجراح والعُصّ يترجل ألفار نونيزكابيزا دي فاكا عن حصانه ويرى الله للمرة الأولى.

ترفرف فراشات كبيرة حوله. يركع كابيزا فاكا أمام شلالات «إغوازو». زئير ومياه زبدية تهبط من السماء لتغسل دم جميع القتلى ولتشفي جميع الصحارى. جداول تتحول إلى أبخرة حرة وأقواس قزح تسحب الأدغال من أعماق الأرض الجافة، المياه التي تجأر، مني الله، تخلص الأرض، مياه يوم الخلق الأول الأبدي.

عبر كابيذا دي فاكا نصف العالم سيراً على الأقدام وأبحر ليعبر النصف الآخر كي يعثر على
مطر الله هذا عانى حوادث التحطم والآلام من أجل أن يقابله، ولكي يراه ولد وله عيناه في
وجهه. وما سيبقى له من الحياة سيكون هبة.

١٥٣٤ : كوباغوا

- صائدو اللؤلؤ -

سقطت مدينة كاديذ الجديدة بعد أن دمرها الزلزال البحري والقراصنة. وسابقاً سقطت الجزيرة
كلها، جزيرة كوباغوا هذه التي باع فيها كولومبس منذ خمسة وأربعين عاماً الهنود صخوراً
مكسورة مقابل اللآلئ. بعد عمليات صيد كثيرة ينفذ المحار ويستلقي صيادو اللؤلؤ في قاع البحر.
كان الهنود الأرقاء يجبرون على الغوص في المياه بعد أن تربط صخور على ظهورهم لكي يصلوا
إلى الأمكنة التي تتواجد فيها أكبر اللآلئ ومن شروق الشمس إلى شروقها يسبحون دون أن
يستريحوا ويجمعون المحار الملتصق بالصخور وفي القيعان.
لم يستمر أي عبد وقتاً طويلاً، لأن الرثة ستنفجر عاجلاً أم آجلاً ويصعد إلى الأعلى جدول من
الدم بدل الغواص. قال الرجال الذين اصطادوا هؤلاء العبيد أو اشتروهم: «إن البحر أصبح أحمر
لأن المحار يحيض مثل النساء».

١٥٤٤ : ماشو بيتشو

- العرش الحجري -

من هنا هيمن مانكو آنكا على أراضي فيلكا بامبا. من هنا شن حرباً طويلة قاسية، حرب
غارات وحرائق. لا يعرف الفاتحون الغزاة المتاهات التي تؤدي إلى القلعة السرية ولا يعرف مسالكها
أي عدو آخر.

استطاع القائد ديبغو منديز فقط أن يصل إلى المخبأ. جاء هارباً بعد أن اخترق سيفه حنجرة
فرانسيسكو بيزارو بأمر من ابن ألماغرو. منحه مانكو آنكا اللجوء السياسي، إلا أن ديبغو مانديز
يطعن آنكا بخنجر في ظهره.

بين حجارة ماشو بيتشو حيث تمنح الأزهار المتألثة العسل لكل من يرويها يرقد الآنكي في
ثياب جميلة.

- النشيد الحربي الأنكي -

سنشرب من جمجمة الخائن
ونصنع عقداً من أسنانه
وأبواقاً من عظامه
وطبلاً من جلده
ثم سنرقص.

١٥٤٤ : كامبيتش

- لاس كاساس -

ينتظر لبعض الوقت في الميناء مع الحرارة والبعوض. يتجول على رصيف المرفأ حافياً يصغي إلى مد البحر وجزره وإلى صوت عكازه على الأحجار. لأحد لديه كلمة يقولها لهذا الأسقف الذي كرس حديثاً في شياباس.

هذا هو الرجل المكروه جداً في أميركا والذي يعتبره الأسياد والمستعمرون ضد المسيح وبلاء هذه الأراضي. إنه مسؤول عن تطبيق قوانين الإمبراطور الجديدة التي تمنع أبناء المستعمرين من اقتناء العبيد الهنود. ما الذي سيحدث لهم دون الأيدي التي تغذيه في المناجم والمزارع؟ إن القوانين الجديدة تأخذ الطعام من أفواههم.

إنه الرجل المحبوب جداً في أميركا وصوت من لاصوت لهم والمدافع العنيد. عن أولئك الذين يتلقون معاملة سيئة أكثر من الروث المكوم في الساحات، الذي يشجب الذين يحولون المسيح إلى أكثر الآلهة قسوة والملك إلى ذئب جائع للحم البشر.

حالما وصل إلى كامبيشي أعلن بارتولومي دي لاس كاساس أن أي مالك للهنود لن يُغفر له في الاعتراف. أجابوه أن أوراق اعتماده كأسقف لقيمة لها كالقوانين الجديدة لأنها جاءت مطبوعة وليست مكتوبة بخط ناسخ الملك. هددهم بالحرم الكنسي فضحكوا. تعالى زئير ضحكهم لأنه كان من المعروف أن فراي بارتولومي أصم.

في ذلك المساء وصل مبعوث من مدينة شياباس الملكية. أرسلت حكومة المدينة تقول إنه لا يوجد شيء في خزائنها لتمويل رحلة الأسقف إلى أبرشيته، أرسلت له بعض القطع النقدية من النقود المخصصة لعمليات دفن الموتى.

١٥٤٤ : ليما

- كارفاجال -

يمنح ضوء الفجر شكلاً ووجهاً للظلال التي تتدلى من مصابيح الساحة. يتعرف أحد المستيقظين باكراً بخوف على فاتحين من العهد القديم من أولئك الذين أسروا آتاهوالبا في كاجمركا يتأرجحان بلسانين ناتئين وأعين جاحظة.

قرع طبول وأصواتُ حوافر: تثب المدينة مستقيظة. يصيح منادي القرية ملء رثيه وإلى جانبه فرانسيسكو كارفاجال يملي ويصغي يعلن المنادي أن جميع أرستقراطيي ليما الرئيسيين سيشنقون مثل هذين الإثنين إذا لم يقبل المجلس تعيين غوانزليس بيزارو حاكماً. ولقد حدّد كارفاجال القائد الميداني للتمرد الظُّهر كآخر موعد لذلك.

«كارفاجال!».

قبل أن يتلاشى الصدى ارتدى قضاة المحكمة الملكية وبعض أعيان المدينة بعضاً من ثيابهم وانطلقوا بشكل فوضوي إلى القصر ووقعوا دون أي نقاش الأمر الذي جعل غونزاليس بيزارو صاحب سلطة مطلقة.

إلا أن الأمر كان يحتاج إلى توقيع المحامي «زاراتي» الذي مسّد رقبتَه وتردّد بينما كان الآخرون ينتظرون منبهرين ومرتجفين يسمعون أو يظنون أنهم يسمعون لهات الجياد ولعنات الجنود الذين احتلوا الميدان والمتلهفين للهجوم.

توسّلوا إليه : «تحرك بسرعة».

يفكر «زاراتي» بالمهر الذي تركه لابنته العازبة تيريزا وتقدماته الكريمة للكنيسة التي تملك أكثر مما دفع من أجل حياة أكثر هدوءاً من هذه.

- «ماذا ينتظر حضرتكم».

- «إن صبر كارفاجال قصير».

خاض كارفاجال أكثر من ثلاثين حرباً في أوروبا وعشر حروب في أميركا. قاتل في رافينا وبافيا وكان موجوداً أثناء نهب روما. قاتل مع كورتيز في المكسيك ومع فرانسيسكو بيزارو في البيرو وعبر سلسلة الجبال ست مرات.

«شيطان الأنديز».

إنه عملاق يُعرف عنه أنه ينزع الخوذة والدرع في وسط المعركة ويعرض صدره. إنه يأكل وينام على حصانه.

- «هدوءاً ياسادة هدوءاً».

- «سيتدفق الدم البريء».

- «لا يوجد وقت نضيّعه».

تخيّم ظلال المشنقة على ألقاب النبالة التي حُصل عليها حديثاً.

- «وقع ياسيدي. دعنا نتجنب مآسي أخرى للبيرو».

يغمس زارتي ريشة الأوزة، يرسم صليباً وتحتّه يخطّ قبل أن يوقع: «أقسم بالله وبهذا الصليب وبكلمات القديسين المبشرين أنني أوقع لثلاثة أسباب: الخوف ثم الخوف ثم الخوف».

١٥٤٥ : مدينة شياباس الملكية

- الأنباء السيئة تأتي من فالادوليد -

ألغى التاج مفعول القوانين الجديدة الهامة التي تعتق الهنود. من لاحظ أنها طبقت حين كانت سارية المفعول لمدة ثلاثة أعوام؟ واقعياً حتى الهنود الذين وضعت عليهم علامة الحرية استمروا عبيداً.

- «من أجل هذا قالوا لي إنني على حق؟».

يشعر فراي بارتولومي أن الله تخلى عنه وأصبح ورقة لاتستند على غصن ووحيداً.

«قالوا لي نعم بحيث لا يتغيّر أي شيء والآن حتى ورقة لن تحمي الذين لا يمتلكون درعاً سوى أحشائهم. هل تلقى الملوك العالم الجديد من البابا من أجل هذا؟ هل الله مجرد حجة؟ يأتي ظل الجلال من جسدي؟».

مغطى بشرشف، يكتب رسالة إلى الملك فيليب يعلن فيها أنه سيزور «فالادوليد» دون أن ينتظر أذنًا من أحد.

ثم يركع على الأرض مواجهاً الليل ويصلي صلاة ابتكرها لنفسه بصوت مرتفع.

١٥٤٦ : بوتوسي

- فضة بوتوسي -

قُتل خمسون هندياً لأنهم رفضوا أن ينقبوا عن الفضة. قبل أقلّ من عام على اكتشاف العرق الأول صُبغت منحدرات الجبال بالدم البشري، وعلى بعد فرسخ من هنا تظهر على صخور الوهاد البقع الخضراء المسوّدة لدم الشيطان. أغلق الشيطان بإحكام الوادي الضيق الذي يؤدي إلى «كوزكو» وحطم الإسبان الذين مروا من ذلك الطريق. أخرج ملاك كبير الشيطان من كهفه وحطّمه على الصخور. والآن كثر العمل في مناجم فضة بوتوسي وفتح الطريق إليها.

قبل الغزو وفي أيام الآنكا «هواينا كاباك» حين كانت المعاول تحفر في شرايين الجبل الفضية، هز العالم زئير مخيف ثم قال صوت الجبل للهنود: «سيكون لهذه الثروة مآل آخرون».

١٥٤٧ : فالباريسو

- الفراق -

يطنّ الذباب فوق بقايا الوليمة. لاتساعد الخمرة كلها ولاحرارة الشمس السكارى على النوم. القلوب تخفق بسرعة هذا الصباح في ظل الشجرة التي تواجه البحر. يودع بدرو فالديفيا الذين هم على وشك أن يغادروا. بعد الحرب الطويلة والجوع في براري تشيلي سيعود خمسة عشر شخصاً من رجاله إلى إسبانيا، تنحدر دمة على خد فالديفيا حين يتذكر الأعوام المشتركة، المدن التي احترقت بلا سبب، الهنود الذين أخضعتهم رماح الإسبان الحديدية.

يقول كلمات تبعث الدفء: «إن عزائي الوحيد هو معرفة أنكم ستستريحون وتستمتعون بما تستحقونه وهذا على الأقل يهدى حزني قليلاً».

كانت الأمواج تهدد السفينة التي ستأخذهم إلى البيرو في مكان قريب من الشاطئ. من هناك سيبحرون إلى إسبانيا عبر بنما، إلى البحر الآخر وبعد ذلك... ستكون رحلة طويلة إلا أن تمديد الأرجل. يجعل المرء يشعر وكأنه يمسي على أرصفة ميناء سيفيل. حُمّل الذهب والأغراض الأخرى والثياب على السفينة منذ البارحة. سيأخذ الناسخ خوان بينل معه ثلاثة آلاف بيزو ذهباً من تشيلي.. تبع فالديفيا كظله حاملاً أوراقه وقلمه ومحبرته شاهداً على كل خطوة خطاها ومنح قوة القانون لكل فعل قام به. هدّهم الموت مرات عديدة. ستفعل هذه الثروة الصغيرة أكثر من تسوية الموقف لبناته المراهقات اللواتي ينتظرنه في إسبانيا البعيدة.

كان الجنود يحلمون بصخب حين قفز شخص ما وصرخ: «أين فالديفيا؟».

كان فالديفيا يتضاءل وهو يجذف مبتعداً في القارب الصغير متجهاً نحو السفينة المحملة بذهب الجميع.

كانت اللعنات والتهديدات تحجب صخب الأمواج على شاطئ فالباريسو.

كانت الأشرعة ترتفع وتتحرك في اتجاه البيرو. يريد فالديفيا أن يصبح حاكم تشيلي و يأمل بأن يُقنِع القادة في ليما بالذهب الذي يحمله معه وبقوة ذراعه.

يُمسِك الناسخ (خوان بينل) رأسه وهو جالس على صخرة غير قادر على التوقف عن الضحك. بناته سيمتن عذراوات في إسبانيا. يبكي بعض الرجال وقد أصبح لونهم قرمزيّاً من الغضب بينما يعزف البواق ألونزو دي توريس لحنًا نشازاً قديماً ثم يحطم البوق الذي كان كلّ ما ترك له.

- الخنية الحنين - من كتاب الأغاني الإسباني

أنا مشتاق إليك
أيتها البلاد التي أرضعتني.
وإذا كنت ساموت منحوساً
ادفني عالياً في الجبال
كي لا يفقد جسدي المقبور
البلاد التي أشتاق إليها كثيراً.
ادفني عالياً قدر ما تتحملين
لأرى إذا كنت أقدر أن أشاهد من هناك.
البلاد التي نرفت من أجلها دمة.

١٥٤٨ : هاكوي هاكوانا

- انتهت معركة هاكوي هوكوانا -

غونزالو بيزارو الذي يُعتَبَرُ أفضل رماح في أميركا والذي يستطيع أن يشقَّ بعوضةً وهي تطير بطلقة بندقية أو سهم يسلم سيفه إلى بدرو ديلاكاسكا.
ينزع بدرو درعه المصنوع من الفولاذ الميلاني ببطء. يُرسل لأكاسكا في مهمة لقص جناحيه ويتوقف زعيم المتمردين عن حلمه بأن يصبح ملكاً على البيرو. إنه يحلم فقط بأن يعفو عنه لأكاسكا.
يدخل بدرو دي فالديفيا إلى خيمة المنتصرين بعد أن حاربت المشاة تحت أوامره.
يقول كاسكا: «إن شرف الملك في يديك أيها الحاكم»
كانت هذه هي المرة الأولى التي يدعوه فيها ممثل الملك حاكماً لتشيلي. يشكره فالديفيا بانحناءة
كان هناك أشياء أخرى سيطلبها ولكن حين فتح فمه ليتكلم دخل الجنود محضرين القائد الثاني لغونزالو بيزارو. يدخل القائد كارفاجال حاملاً خوذته المريشة بشكل يلفت النظر ولايجرؤ أسروه على لمسه.
كان كارفاجال هو الضابط الوحيد الذي لم يتخلَّ عن بيزارو حين عرض لأكاسكا إعفاء الملك عن المتمردين الذين يعلنون توبتهم. انتقل ضباط وجنود كثيرون بسرعة مع أحصنتهم إلى المعسكر الآخر. بقي كارفاجال وقاوم إلى أن جردوه من حصانه.
قال ديبغو سينتينون، قائد الجنود المنتصرين: «كارفاجال، لقد سقطت بشرف ياكارفاجال».
لاينظر إليه العجوز.

يقول سينتينون وهو يمد يده ليتلقى سيفه : «هل تتظاهر بأنك لاتعرفني؟» .
يجيب كارفاجال الذي هزم سينتينون أكثر من مرة ودفعه إلى الهرب وطارده عبر نصف
البيرو : «أعرفك من ظهرك فقط» .
ثم يعطي سيفه لبدور دي فالديفيا .

١٥٤٨ : هاكوي هاكوانا

- الجلاء -

يصل كارفاجال مقيداً بالحبال والأغلال داخل سلة كبيرة تجرّها البغال . وسط سحب الغبار
وصرخات الكراهية يغني المحارب القديم . يخترق صوته الأجش صخب الشتائم ، متجاهلاً
الرفسات وضربات أولئك الذين صفقوا له البارحة ويبصقون اليوم في وجهه .

يالها من خرافة !

طفل في مهد

عجوز في مهد

يالها من خرافة !

يغني في السلة التي تجعله يتخبط . حين تصل البغال إلى الساحة يرمي الجنود كارفاجال عند
قدمي الجلاء . يزار الحشد حين يشهر الجلاء سيفه ببطء .

يطلب كارفاجال : «أيها الأخ جوان ، بما أننا اشتغلنا في نفس التجارة عاملني كما يعامل خياط
خياطاً آخر» .

خوان انركويز هو اسم الشاب اللطيف الوجه . كان له اسم آخر في سيفيل حين كان يتجول
على رصيف المرفأ حالماً بأن يكون جلاء الملك في أميركا . يقولون إنه يحب هذه المهنة لأنها تزرع
الخوف ولا يوجد سيدٌ مهم أو محاربٌ عظيم لا يتنحى جانباً حين يمرّ قربه في الشارع . يقولون أيضاً
إنه منتقم محظوظ . إنهم يدفعون له ليقتل ولا يصدأ سلاحه أبداً ولا تتلاشى ابتسامته :

الجّد المسكين !

الجّد المسكين !

يطنّ صوت كارفاجال منخفضاً وحزيناً لأنه تذكر لتوه حصانه بوسكانييلو الذي هو أيضاً عجوز
مهزوم ، تذكر كيف كانا يفهمان بعضهما .

بمسك خوان إنركويز لحيته بيده اليسرى وباليمنى يقطع رأسه بضربة واحدة .

يشعل التصفيق تحت الشمس الذهبية .

يرفع الجلاء رأس كارفاجال الذي كان يبلغ الرابعة والثمانين من العمر والذي لم يغفر أبداً
لأي شخص .

١٥٤٨ : هاكوي هاكوانا

- حول أكل لحوم البشر في أميركا -

منذ أن حضر فرانسيسكو بيزارو مرتدياً ثياب الحزن جنازة ضحيته آتاهوالبا نجح عدة رجال في قيادة المملكة الأنكية الواسعة الأرجاء وفرض القوة عليها.

ثار ديبغو دي ألماغرو الذي كان يحكم جزءاً من تلك الأرض ضدّ فرانسيسكو بيزارو حاكم الجزء الآخر. أقسم الإثنان بخبز القربان المقدس بأنهما سيتقاسمان الألقاب والهنود والأراضي دون أن يأخذ أحدهما أكثر من الآخر. كان بيزارو يريد هذا التمرد فانتصر عليه وقطع رأسه.

انتقم ابن ألماغرو لأبيه وعيّن نفسه حاكماً على جثة بيزارو، إلى أن أرسله إلى المشنقة كريستوبال فاكادي كاسترو الذي مرّ ذكره في التاريخ على أنه الشخص الوحيد الذي نجا من المشنقة أو البلطة أو السيف.

ثار فيما بعد غوانزالو بيزارو شقيق فرانسيسكو ضدّ بلاسكو نونيز فيلا – النائب الملكي الأول للبيرو. سقط نونيز فيلا عن حصانه مصاباً بجرح بليغ. قُطع رأسه وعُلّق على رمح.

كان غونزالو بيزارو على وشك أن يعيّن نفسه ملكاً. يهبط في يوم الإثنين، التاسع من نيسان، المنحدر الذي يؤدي إلى الساحة راكباً على بغل. أوثقوا يديه خلف ظهره ورموا عليه رداءً أسود ليغطي وجهه ويمنعه من أن يشاهد جسد فرانسيسكو كارفاجال الذي يخلو من الرأس.

١٥٤٨ : كوانا جواتا

- ولادة مناجم كوانا جواتا -

- «سلام الله عليك يا أخي!»

- «وعليك السلام أيها المسافر».

تبادل الرجلان الراكبان على ظهر بغلين والقادمين من مدينة المكسيك التحية وقررا أن يتوقفا ليستريحا. خيم الليل. أولئك الذين ينامون نهاراً يراقبونهما من الظلال.

- «أليس هذا جبل كيوبيليت؟».

- «بوسعك أن تسميه جبل الملعون».

سيذهب ماييس بدرو ومارتن رودريغو إلى زاكاتيكاس لبحثا عن ثروة في المناجم. أحضرا معهما ما يمتلكانه وبعض البغال ليبيعوها بسعر جيد. سينطلقان إلى وجهتيهما عند بزوغ الفجر.

يجمعان بعض الأغصان فوق موضع توجد فيه أعشاب جافة ويحيطونها بالأحجار حين يضرب الصوان الفولاذ تنقذ الشرارة وإلى جانب النار يروي راكبا البغلين قصصهما عن حظهما السيء وبينما هما مستغرقان في ذلك مغلفين بالثياب الرثة والحنين يصرخ أحدهما: «إنها تشع؟» - «ماذا؟» -

- «الأحجار» -

يقفز مارتين رودريغوي في الجو مشكلاً نجمة خماسية قدرة إزاء السماء التي يضيئها القمر بينما يكسر ماييس بدرو أظافره على الصخور الحارة ويحرق شفتيه وهو يقبلها.

١٥٤٩ : لاسيرنيا

- العودة -

يرسي بدرو دي فالديفيا في كوينتيرو وتفاجئه حالاً الرائحة الأسيدية للجيف. حمل فالديفيا في البيرو وزناً يساعده على تجنب المصائد وتجاوز الشكوك والأعداء. برهنت قوة ذراعه التي وضعت في خدمة الملك بالإضافة إلى توهج الذهب الذي سرقه من رجاله على شاطئ فالباريسو أنها بليغة جداً للرجال القادة في ليما. يعود بعد عامين حاملاً لقب حاكم تشيلي موقعاً ومختوماً. يلتزم أن يعيد الذهب إلى آخر غرام منه ويلتزم التزاماً آخر يأكل قلبه. بما أنه مُنح لقبه الجديد يجب أن ينهي علاقته مع آنيز سواريز ويحضر زوجته الشرعية من إسبانيا. لاتستقبله تشيلي بابتسامة: في مدينة لاسيرينا هذه التي عمدها باسم مسقط رأسه يستلقي الإسبان مقطوعي الأيدي والرؤوس بين الدمار. إن قصص حياته الساحرة لاتهمّ العقبان.

- المرة الأخيرة -

يظهر خط متموج في الضباب الأسود عند بزوغ الفجر ويفصل الأرض عن السماء. تخلص آنيز التي لم تنم، نفسها من ذراع فالديفيا وتستلقي على مخدتها. لقد شبعته منه وتنبيض كل زاوية صغيرة من جسدها بعنفوان الحياة، تنظر إلى يدها في الضوء الضبابي الأول، تخيفها أصابعها: إنها تشتعل. تبحث عن الخنجر. ترفعه. فالديفيا نائم ويشخر. يتردد الخنجر في الجو فوق الجسد العاري. تمرّ قرون.

أخيراً تخبىء الخنجر داخل المخدة بهدوء قرب وجهه. تخرج على رؤوس أصابع قدميها من الفراش محولة امرأة الفراش إلى امرأة حرة.

١٥٥٢ : فالآدوليد

- الذي كان يتلقى الأوامر دائماً يصدرها الآن -

تُقبل المرأة سبيكة الفضة بشفتيها، بجبهتها، بثدييها بينما يقرأ الكاهن بصوت مرتفع رسالة من زوجها خوان برييتو مؤرخة في بوتوسي. اجتاحت الرسالة والسبيكة عاماً كاملاً تقريباً لتعبر المحيط وتصل إلى فالآدوليد.

يكتب خوان برييتو أنه بينما كان الآخرون يمضون وقتهم في البارات وحلبات مصارعة الثيران، لم يَمُضْ وقته في البارات أو ساحة مصارعة الثيران، وأن الرجال في بوتوسي يضعون أيديهم على سيوفهم عند أدنى إثارة وأنه يوجد عواصف رملية تخرب الملابس وتجنن الروح، وأنه لا يفكر سوى بالعودة إلى إسبانيا وأنه يرسل سبيكة الفضة الكبيرة من أجل بناء حديقة ليتم فيها حفل استقباله حين يعود إلى الوطن.

يجب أن يكون للحديقة بوابة حديدية مزدوجة وقوس حجري عريض يُمكن المدعوين إلى الحفلة من الدخول بعرباتهم ويجب أن تُسَوَّر الحديقة بحائط مرتفع دون أية فتحة وأن تمتلأ بالأشجار والأزهار والأرانب والحمام ويجب أن تنصب طاولة كبيرة في الوسط تزود بالأطعمة لأرستقراطي فالآدوليد الذين اشتغل لديهم سابقاً كخادم. يجب أن تفرش سجادة على العشب قرب رأس الطاولة لتجلس عليها زوجته وابنته سابينا.

يؤكد لزوجته بشكل خاص ألا تشيخ بصرها عن سابينا وأن تمنع حتى الشمس عن لمسها وذلك لأنه سيمنحها مهراً عالياً ويزوجها زواجاً حسناً ولهذا السبب أمضى كل تلك السنين في الأنديز.

١٥٥٣ : ضفة نهر سان بدرو

- ميغيل -

التصقت قطع كثيرة من جلده بالسوط. اتهموه بالتباطؤ في العمل أو بفقدان إحدى الأدوات، قال مراقب العمال: «ليدفع من جسده». وحين كانوا على وشك تقييده من أجل لسعات سوط أخرى حمل ميغيل سيفاً وفرّ إلى الغابات.

فرّ عبيد آخرون من مناجم بورما وانضمّ بعض الهنود إلى الهاربين. هكذا ولد الجيش الصغير الذي هاجم العام الماضي المناجم ومدينة باركو يزيमितو الجديدة.

ثم توجه المتمردون إلى الجبال وبعيداً عن كل شيء أسسوا مملكة حرة على ضفاف النهر. صبغ هنود «الجيرايجارا» أنفسهم باللون الأسود من رؤوسهم إلى أقدامهم وسوية مع الأفارقة عيّنوا «ميغيل» ملكاً.

تتنقل الملكة «غيومار» بروعة بين أشجار النخيل وتصدر تنورتها الجميلة المصنوعة من البروكار حفيفاً. ترافقها وصيفتان ترفعان طرف لباسها الحريري.

جالساً على عرشه الغابي يأمر ميغيل بحفر الخنادق وبناء الأسيجة يُنصب مسؤولين ووزراء ويعين رجاله الأكثر معرفة أساقفة.

يقول «ميغيل» حين يسوي أحد رجال الحاشية طوقه المخرم، ويبسط آخر أكمام سترته العسكرية: «مملكتي مستديرة ومروية».

كان الجنود الذين سيقتلون ميغيل ويزيلون مملكته يُجهزون في «توكويو» تحت قيادة ديبغو دي لوسادا. سيجيء الإسبان مسلحين بالبنادق والكلاب وأقواس النشاب. سيفقد السود والهنود الذين يبقون على قيد الحياة آذانهم أو سيُخصون وتقطع أوتار أقدامهم ليكونوا عبدة لكل فنزويلا.

- حلم بدرو دي فالديفيا -

يرفرف ضوء المشاعل في الضباب. يعلو صوت المهاميز التي تقدح الشرر من الرصيف على أرض استعراض ليست في تشيلي ولا في أي مكان آخر. في الرواق، صف من نبلاء الحاشية، أردية سوداء طويلة وسيوف مشدودة إلى الخصور وقبعات مريشة. حين يعبر بدرو دي فالديفيا يركع كل واحد من الرجال وينزع قبعته. حين يزيلون قبعاتهم، يزيلون رؤوسهم معها.

١٥٥٣: توكابل

- لوتارو -

ضربت حمى الحرب كل مكان في تشيلي.

على رأس الأروكانيين تتموج العباءة الحمراء «لكوبوليكان»، العملاق الذي يستطيع أن يقتلع شجرة من جذورها.

يهجم الفرسان الإسبان. ينفتح جيش كوبوليكان كمروحة، يجعل الفرسان يدخلون، يطبق الفكين ويلتهمهم من الجانبين.

يرسل فالديفيا كتيبة ثانية فتتبعثر أمام جدار آلاف الرجال. عندئذ يهاجم مع أفضل جنوده. يهجم بسرعة كبيرة، صارخاً حاملاً رمحاً بيده وينهار الأروكانيون أمام هجومه البرقي.

في هذه الأثناء، وعلى رأس الهنود الذين يخدمون الجيش الإسباني، ينتظر لوتارو إلى جانب تل.

- «أي نوع من الجبن هذا؟ أي عار يلحق ببلادنا؟».

كان لوتارو حتى هذه اللحظة خادم فالديفيا. في ومضة غضب يعلن الولاء ويختار الخيانة. ينفخ بالزمار المعلق على صدره ويشنّ هجوماً بسرعة كبيرة. يفتح ممراً إلى اليمين واليسار بالضربات، يشق الدروع ويجبر الخيول على الركوع، إلى أن يصل إلى فالديفيا فيحرق به في عينيه ويسقطه.

لم يصل بعد إلى سن العشرين هذا القائد الجديد للآروكانيين.

١٥٥٣: توكابيل

- فالديفيا -

تقام حفلة حول شجرة القرفة.

يراقب المهزومون الذين يرتدون ثياب الأسود رقصات المنتصرين الذين يرتدون الخوذ والدروع. يرتدي لوتارو ثياب فالديفيا، السترة الخضراء المطرزة بالذهب والفضة، الدرع المشع، والخوذة ذات المقدمة الذهبية المرصعة بالزمرّد والريش الرشيّق.

يودّع فالديفيا العالم عارياً.

لم يخطئ أحد. هذه هي الأرض التي اختار فالديفيا أن يموت فيها منذ ثلاثة عشر عاماً حين غادر «كوزكو» يتبعه سبعة إسبان على ظهور الأحصنة وألف هندي على الأقدام. لم يخطئ أحد سوى «دونا مارينا» الزوجة التي تركها خلفه في استريمادور، والتي قرّرت بعد عشرين عاماً أن تعبر المحيط وهي الآن على ظهر سفينة مع حاشية تليق برتبتها كزوجة حاكم، مع عرش فضي وفراش مخملي أزرق وسجاد وكل بطانتها من الأقرباء والخدم.

يفتح الآروكانيون فم فالديفيا ويملاؤونه بالخراء. يجبرونه على بلع الخراء حفنة إثر حفنة. يملأون جسمه بالتربة التشيلية حين يقولون له: «تريد الذهب؟ كل الذهب. أتخمن نفسك بالذهب».

١٥٥٣: بوتوسي

- الحسناء ورئيس البلدية -

لوكان يوجد في بوتوسي مستشفى وممرّت أمام الباب سيشفى المرضى. إلا أن هذه المدينة، أو مجموعة البيوت، التي ولدت في أقل من ستة أعوام لاتملك مشفى.

نما معسكر المناجم بجنون ويحتوي الآن عشرين ألف روح. في كل صباح ترفع سقوف جديدة من قبل مغامرین يجيئون من كل مكان، يدفشون ويطعنون بعضهم بحثاً عن ثروة سهلة. لا يبحث أحد في شوارعها الترابية عن فرصة بدون سيف ودرع جلدي ومحكوم على النساء أن يعشن وراء المصاريع والأقل دمامة بينهنّ يجازفن مجازفة خطيرة وبينهنّ، ليس هناك بديل للحسناء — التي هي عانس قبل أي شيء — إلا أن تعزل نفسها عن العالم. تظهر فقط عند بزوغ الفجر لحضور القدّاس ومعها مرافقة كبيرة، لأن مجرد رؤيتها تجعل أي شخص يتوق إلى ابتلاعها إما بلقمة واحدة أو رشقة بعد أخرى وتجعل الذين يحملون سلاحاً بيد واحدة يصفقون.

شاهدها رئيس بلدية المدينة دون ديينغو دي إسكيفال. يقولون لهذا السبب يخرج بابتسامة عريضة وكل العالم يعرف أنه لم يبتسم منذ ذلك اليوم البعيد في طفولته حين أذى عضلات وجهه وهو يحاول ذلك.

- رجل الحمى يغني لها
تلك التي تنام وحيدة
على ألحان الأرغن اليدوي -

سيدتي
لماذا تنامين وحيدة
حين يكون بوسعك النوم مع شاب
يرتدي بنطالاً
أزراره مصقولة،
وسترة
بعري فضية؟
في الأعلى
يوجد شجرة زيتون خضراء
وفي الأسفل
شجرة برتقال خضراء
وبينهما شحورور
يمصّ قطعة سكر

١٥٥٣ : بوتوسي .

- رئيس البلدية والشاب الشجاع -

يقول أحدهم: «لا تنم وحيداً نم مع هذه المرأة». ثم يشير إليه. ما تفضله الفتاة هو جندي يتميز بمشية رائعة ويوجد عسل في عينيه وصوته. يقاوم دون ديينغو يأسه وينتظر فرصته.

تجنيء الفرصة في إحدى الليالي، في إحدى مقامر بوتوسي على يد راهب قامر بما يحويه إناءه التسولي. يقطف مقامر ماهر نصاب ثمار جهده حين يخفض الخاسر ذراعه ويسحب خنجراً من تحت رداءه ويطعن يد الرجل ويثبتها على الطاولة. يقفز الشاب الشجاع الذي كان هناك بدافع الفضول ويشترك في المشاجرة. يتم اعتقال الجميع.

كان على رئيس البلدية دون ديينغو أن يقرر المسألة. يواجه الشاب الشجاع ويقدم له عرضاً: «إما أن يدفع غرامة أو يعاقب».

- «لا أستطيع أن أدفع غرامة. أنا فقير. إلا أنني أنحدر من دم نقي ونسب شريف».

يقرر رئيس البلدية: «إثني عشر جلدة لهذا الأمير».

يحتج الجندي: «أتفعل هذا مع جندي إسباني؟».

يقول دون ديينغو وهو يجلس مستمتعاً بالجلد: «قل هذا لأذني الأخرى لأن هذه لا تصدق ذلك».

حين يحلون وثاقه يهدد العاشق الذي جلد: «سأنتقم من أذنيك هاتين أيها السيد رئيس

البلدية. سأعيرهما لك لمدة عام، يمكنك أن تستخدمهما طوال هذه الفترة وبعد ذلك ستصبحان ملكي».

١٥٥٤ : كوزكو

- رئيس البلدية والأذنان -

منذ أن هدده الشاب الشجاع ودون ديينغو يتحسس أذنيه كل صباح حين يستيقظ ويفحصهما في المرأة. اكتشف أن أذنيه تنموان حين تكونان سعيدتين وأن البرد والغم يجعلهما تتقلصان أما النظرات والافتراءات فترفع حرارتهما إلى أن تحمرا - تتحركا بيأس كالطيور في الأقفاص حين تسمعان صرير حد فولاذي أثناء شحذه.

ولكي يضمن سلامتهما يأخذهما إلى كوزكو يرافقه حرس وعبيد طوال الطريق.

وفي أحد أيام الأحد يغادر دون ديينغو الكنيسة بعد القداس بطريقة تدل على الإستعراض أكثر

مما تدل على المشية الطبيعية، يتبعه طفل أسود حاملاً وسادة صلاته. فجأة تنظر عينان إلى أذنيه

باستهداف واضح ثم يلمع رداء أزرق ويختفي في الحشد.

تشعر أذناه بالألم.

١٥٥٤ : ليما

- رئيس البلدية ومُحَصِّل الدَيْن -

ستقرع أجراس الكاتدرائية بعد قليل معلنة منتصف الليل. ستحدد عاماً على مرور تلك الحادثة الغريبة التي أجبرت دون ديينغو على الانتقال إلى «كوزكو» ومن ثم إلى ليما.

يؤكد دون ديينغو للمرة الألف أن الأبواب موصده وأن الحراس الذين يحرسون حتى السقف لم يناموا. فتش بنفسه المنزل زاوية بعد أخرى دون أن ينسى حتى كومة الحطب في المطبخ سيقيم حفلة عاجلاً.

ستقام حفلة تنكرية ومصارعة ثيران ومبارزات وألعاب نارية وسيشوى الدجاج بالسفود على النار وستفتح براميل الخمرة. سيرهق دون ديينغو عيني ليما. سيجرب في الحفلة عباءته الديمقسية وجواده المطهم ذا السرج المخملي الأسود المطرز بالذهب الذي ينسجم مع غطاء السرج القرمزي المزركش.

يجلس منتظراً قرع الأجراس. يعدّها ثم يسحب نفساً عميقاً.

يرفع عبد الشمعدان ويضيء طريقه المفروش بالسجاد الذي يؤدي إلى غرفة النوم. ينزع عبد آخر صدرته وحذاءه الذي يبدو كالقفاز وجوربه الأبيض المخرم. يغلق العبدان الباب ويذهبان إلى موقعهما ليحرسا إلى الصباح.

يطفىء دون ديينغو الشموع ويدفن رأسه في الوسادة الحريريّة الكبيرة وللمرة الأولى طيلة عام واحد ينام نوماً عميقاً لا يشوبه قلق.

فيما بعد، بدأت بدلة الدرع التي تزين زاوية غرفة النوم بالتحرك. يتقدّم الدرع في الظلمة حاملاً سيفاً في يده، نحو الفراش ببطء شديد.

١٥٥٤ : مدينة المكسيك

- سيبولفيدا -

يقرر مجلس مدينة المكسيك، قشدة النبالة الاستعمارية أن يرسل إلى خوان غينيز دي سيبولفيدا مثلي بيزو ذهباً تقديراً لخدماته وليشجّعه في المستقبل.

ليس سيبولفيدا الإنسانوي، طبيباً وكبيراً للكهنة فحسب، إنه مؤرخ وكاهن تشارلز الخامس ويتألق في عمله كما تشهد على ذلك ثروته المتصاعدة. يعمل في البلاطات كوكيل دعاية متحمس جداً للملكي الأراضي الأميركية والهندية.

في ردّه على تأكيدات بارتولومي ديلاس كاساس ، يؤكد سيبولفيدا أن الهنود عبيد بالفطرة ، استناداً إلى إرادة الله ، وأن النصوص المقدسة تحتوي على أمثلة تعفي غير العاديين من العقاب . وحين يقترح لاس كاساس أن يتعلم الإسبان لغة الهنود وأن يتعلم الهنود لغة قشتالة يجيب سيبولفيدا أن الفرق بين الإسبان والهنود ، هو نفس الفرق بين الذكر والأنثى ، وتاماً مثل الفرق بين الإنسان والقردة . مايدعوه لاس كاساس : إساءة استعمال السلطة ، والجريمة يعتبره سيبولفيدا نظاماً شرعياً للهيمنة ، ويمدح فنون اصطياد أولئك الذين ولدوا ليطيعوا ويرفضون العبودية .

الملك الذي ينشر انتقادات لاس كاساس يحظر أطروحة سيبولفيدا حول الأسباب العادلة للحرب الإستعمارية . يقبل سيبولفيدا الحظر مبتسماً ودون احتجاج في التحليل الأخير الواقع أكثر قوة من الضمير السيء ، وهو يعرف جيداً مايعرفه جميع أولئك الحكام في قلوبهم : إن مايبني الإمبراطوريات هو رغبة جمع المال وليس رغبة ربح الأرواح .

١٥٥٦ : آسنسيون ، البارغواي

- فاتحون -

حملوا الحطب ، والجرحى على ظهورهم . عاملت النساء الرجال وكأنهم أطفال . قدمت لهم الماء العذب ، والعزاء ، وخيوط العنكبوت لتضميد كدماتهم . جاءت كلمات التجشيع والتنبيه من أفواههن ، وأيضاً اللعنات التي حركت الجبناء ، وشجعت الضعفاء . كن يطلقن السهام والرصاص حين كان الرجال يبحثون عن قطعة ظلّ ليموتوا فيها . حين وصل الذين نجوا من الجوع والسهم إلى السفن ، رفعت النساء الأشرعة ، وجذفن دون تذمر . هذا ما حصل في بوينس آيرس ، ونهر البارانا .

بعد عشرين عاماً وزّع الحاكم إيرالا الهنود والأراضي في آسنسيون . عبّر بارتولومي غارسيا أحد أولئك الذين وصلوا في السفن من الجنوب عن احتجاجه . منحه إيرالا ستة عشر هندياً فقط : هو الذي ما يزال ذراعه مصاباً برأس سهم ، وقاتل وجهاً لوجه الكواجر التي قفزت فوق حاجز بوينس آيرس الدفاعي .

تصرخ دونا إيزابيل دي غويفارا : «ماذا عني أنا؟ ماذا سأقول أنا؟» .

هي أيضاً كانت هناك من البداية . جاءت من إسبانيا لتؤسس بوينس آيرس مع مندوزا وذهبت مع إيرالا إلى آسنسيون . وكونها امرأة ، لم يمنحها الحاكم هنوداً على الإطلاق .

1007: آسنسيون، البارغواي

- جنة محمد -

يتدحرج النرد. ترفع امرأة هندية الشمعة. الذي يربح يأخذها عارية، لأن الشخص الذي يخسرها راهن عليها عارية.

في الباراغوي، النساء الهنديات غنائم العجلة والنرد والورق، غنائم الحملات على الأدغال، أسباب المبارزات والجرائم. ورغم أنه يوجد الكثير منهن، فإن الدمية تساوي ما تساويه قطعة من لحم الخنزير أو الخيل. يذهب غزاة الآنديز والهنود إلى القديس تتبعهم قطعان من النساء. في هذه الأرض الخالية من الذهب والفضة يمتلك البعض ثمانين أو مائة امرأة، من اللواتي يطحنن نهاراً قصب السكر وفي الليل يعملن في الحياكة ويمنحن أجسادهن ليقدمن لأسيادهن العسل والملابس والأولاد: يساعدن على نسيان الحلم بالثروة الذي أنكره الواقع، وعلى نسيان الحبيبات البعيدات اللواتي يهرمن في إسبانيا.

يُحذر دومينغو مارتينيز والد مالا يحصى من المهجنين ونسك المستقبل: كونوا حذرين. إنهن يذهبن إلى الفراش حاقداً يقول إن النساء الهنديات حاقداً وعنيدات، متلهفات دائماً للعودة إلى الغابة حيث تم اصطيادهن، وأن المرء لا يستطيع أن يأتمنهن حتى على أونصة قطن لأنهن يخبئنها أو يحرقنها أو يمنحنها، وأن مجدهن هو فقط تدمير المسيحيين وتدمير كل ما يوجد. انتحرت بعضهن شنقاً أو أكلن القذارة، ويوجد البعض ممن رفضن منح أثدائهن للأولاد الحديثي الولادة. قتلت الهندية جوليانا الغازي نونو دي كابريرا في إحدى الليالي وصرخت بالأخريات أن يفعلن مثلاً.

- أغنية زير نساء -

من كتاب الأغاني الإسبانية

إذا كان بوسع المغاربة
أن يضاجعوا سبع نساء
لماذا يرفض الإسبان
مضاجعة الكثيرات؟
آه، يالها من متعة

أن تعود إلى إسبانيا
على الطريقة المغربية.
أن تحب امرأة واحدة هو لاشيء
أن تحب اثنتين نفاق
أن تحب ثلاثة وتخدع أربعة
هذا هو المجد الذي يأتي من الله.

١٥٥٦: لا امبريال

- مارينو دي لوبيرا -

يقرر الحصان الذهبي الجلد والمفعم بالحيوية الجهة والسرعة. إذا أراد أن يعدو بسرعة يعدو، يختار البلاد المفتوحة ويجري وسط الحشائش الطويلة، يقترب من الجدول ويعود باحترام، ودون عجلة يروح ويغدو في الشوارع القذرة لهذه المدينة الموسومة من جديد. راكباً على ظهره العاري، مطلق العنان، يستعرض بدرو مارينو دي لوبيرا ويحتفل. تتدفق كل خمرة لامبريال في شرايينه. يقهقه من وقت لآخر ويوجّه ملاحظة. يدير الحصان رأسه، ينظر ويوافق.

تمرّ اليوم أربعة أعوام على ترك بدرو لحاشية نائب الملك في ليما وعلى عبوره الطريق الطويل إلى تشيلي.

يقول دون بدرو للحصان: «عمري أربعة أعوام، أربعة أعوام قصيرة. أنت أكثر كهولة وغباء». شاهد كثيراً وقاتل كثيراً في تلك الأعوام الأربعة. يقول إن هذه الأراضي التشيلية تنبت الفرح والذهب كما تنمو النباتات في أمكنة أخرى. وحين تنشب حرب، كما يحدث دائماً، ترسل العذراء ضباباً كثيفاً لتعمي الهنود ويمنح القديس سانتياغو رمحه وحصانه الأبيض لجيش الغزاة. ليس بعيداً من هنا وليس منذ زمن بعيد، حين كانت فرق الخيالة الآرومانية تدير ظهرها للبحر، أسقطتها موجة عملاقة وابتلعته.

يتذكر بدرو ويعلق، والحصان يوافق الرأي.

فجأة تظهر ثعابين برقية في السماء ويهز الرعد الأرض.

يقول بدرو: «إنها تمطر، إنها تمطر حليباً!».

يرفع الحصان رأسه ويشرب.

١٥٥٨ : كانييتي

- الحرب مستمرة -

بمائة سهم يشق صدره، يقابل كوبوليكان نهايته. يسقط القائد العظيم ذو العين الواحدة مهزوماً بسبب الخيانة. اعتادت القمر أن تقف وتتأمل أعماله البطولية الفذة ولم يكن يوجد رجل لا يحبه أو يخشاه، إلا أن خائناً استطاع أن يقضي عليه.

منذ عام فاجأت الخيانة أيضاً لوتارو.

سأل القائد الإسباني: «وأنت، ماذا تفعل هنا؟».

لم يدخل لوتارو إلى سانتياغو كغاز على رأس رجاله. أخضِرَ رأسه المقطوع من جبل «تشيلبريكو» مشكولاً بأطول رمح في الجيش الإسباني.

إن الخيانة سلاح مهلك كالتيفوئيد والجذري والجوع الذي أصاب الآروكانيين حين كانت الحرب تدمر المحاصيل والمزروعات. مع ذلك يمتلك مزارعو وصيادو هذه الأراضي التشيلية أسلحة أخرى. يعرفون الآن كيف يستخدمون الخيول التي كانت تزرع سابقاً الهلع في قلوبهم. يهجمون على ظهور الأحصنة كزوبعة من الخيالة ويحمون أنفسهم بالدروع الجلدية. يعرفون كيف يستخدمون البنادق التي يستولون عليها في ساحة المعركة ويربطون السيف على رؤوس رماحهم. وراء أغصان الأشجار المتحركة، في ضباب الصباح يتقدمون غير مرئيين، ثم يتظاهرون بالانسحاب لكي تغرق أحصنة العدو في المستنقعات أو لتتكسر أقدامها في مصائد ممّوءة. تخبرهم أعمدة الدخان بوجهة الجنود الإسبان، ينقضون عليهم ويختفون. يظهرون فجأة ويهجمون على العدو حين تصبح الشمس أكثر إشعاعاً ويتحمّص الجنود في دروعهم. كانوا يسقطون الخيالة بأنشطة العقدة المنزقة التي ابتكرها لوتارو. والأكثر من ذلك أن الآروكانيين يطرون. قبل أن يذهبوا إلى الحرب يدلكون أنفسهم بريش أسرع الطيور.

- الأغنية الأروكانية -

عن الخيال الشيع

من هذا

الذي يمتطي الريح

كالنمر

بجسده الشيعي؟

حين تراه أشجار البلوط.
حين يراه الناس.
يقول أحدهم للآخر همساً.
«انظر يا أخي، لقد جاء
شبح كوبوليكان».

١٥٥٨ : ميتمالويان

- الطيور السوداء -

قبضوا على خوان تيتون، الواعظ الهندي لقرية ميشمالويان التي تقع في وادي المكسيك وهم يعذبونه الآن. قبضوا أيضاً على الذين استمعوا إليه. خرج خوان معلناً نهاية حقبة واقتراب عام ينهي جميع الأعوام. قال: «ستخيم ظلمة شاملة، سيجفّ المزد العلني ويهيمن الجوع. وكل من لا يغسلون المعمودية عن شعرهم سيتحولون إلى حيوانات. ستهبط الطيور السوداء المرعبة من السماء وتأكل جميع من لا يزيلون علامة الكهنة».

أخبر مارتين أوسيلوتل أيضاً عن الطيور السوداء. أُسِرَ وضُربَ وجردَ من أملاكه ونفي من تيهوكو. هو قال أيضاً إنه لن يوجد لسان لهب في احتفال النار الجديدة وسينتهي العالم بسبب أولئك الذين نسوا تعاليم آبائهم وأجدادهم ومن أنجبهم ورباهم. قال: ستنقض الطيور السوداء علينا في الظلام وتلتهم النساء والرجال. قال مارتين أوسيلوتل: «إن الرهيان هم طيور سوداء مُقنعة وأعداء للسعادة لا يعرفون أننا ولدنا لنموت وأنه بعد الموت لن نحصل على المتعة ولا على السعادة». أيضاً يمتلك الأسياد العجائز الذين يعيشون في «تلاهكالا» شيئاً يقولونه عن القساوسة: «إنهم مساكين، إما مرضى أو مجانين، ظهراً وفي منتصف الليل وعند بزوغ الفجر، حين يبتهج الجميع يصيحون ويبكون. يجب أن يكون فيهم خطأ مريع. إنهم لا يمتلكون إحساساً. لا يبحثون عن المتعة والسعادة، لا يبحثون إلا عن الحزن والعزلة».

١٥٥٨ : يوستي

من أنا؟ من كنت؟

يتنفس باذلاً جهداً كبيراً والحرارة تفترس رأسه. قدماه منتفختان بداء المفاصل لاتستطيعان السير. يتمدد على الدكة، هذا الذي كان ملكاً على نصف العالم يهرب من مهرجيه ويتأمل الغسق في وادي أستريمادورا. الشمس تغيب خلف الجبال الأرجوانية وأشعتها الأخيرة تضيئ لونا أحمر على الظلال المنتشرة فوق دير الجيرونوميين.

دخل مدناً كثيرة كفاتح. صُفِّقَ له وحُقد عليه. ضحى الكثيرون بحياتهم من أجله، وزهقت أرواح كثيرة باسمه. بعد أربعين عاماً من القتال والسفر يريد السجين الأعلى لامبراطوريته أن يستريح وينسى. من أنا؟ ماذا كنت؟ رأى الموت يدخل في المرأة. أهو الخادع أم المخدوع؟

في وسط الحروب وبضوء نيران المعسكرات وقّع أكثر من أربعمئة اتفاقية قروض مع أصحاب البنوك الألمانية والجنوبيين والفلمنكيين، ولم تحضر السفن ذهباً وفضة كافيين من أميركا. هذا الذي أحب الموسيقا سمع رعد المدافع والأحصنة أكثر من ألحان المزمارة المقدسة، وبعد حروب كثيرة سيرث ولده فيليب امبراطورية مفلسة.

وصل تشارلز إلى إسبانيا من الشمال عبر الضباب حين كان في سن السابعة عشرة تتبعه حاشية من التجار الفلمنكيين وأصحاب البنوك الألمان في قافلة لا تنتهي من العربات والأحصنة. في ذلك الوقت لم يكن قادراً على إلقاء التحية بلغة قشتالة. ولكنه سيختارها غداً ليقول وداعاً. ستكون آخر كلماته: «آه يائسوع».

١٥٥٩: مدينة المكسيك

- النّدابون -

يفرد نسر الأستورياس جناحيه في سماء الهضبة المكسيكية. على قماش أسود محاط بالرايات يتوهج التاج. تعلن منصة التابوت، التبجيل لتشارلز الخامس، وأيضاً للموت الذي غزا ملكاً لا يُقهر.

تجول التاج الذي هو نسخة طبق الأصل عن التاج الذي زين الإمبراطور في أوروبا، في شوارع المكسيك. حُمِلَ على وسادة دُمَقْسِيَّة في الموكب. صلت الجموع وغنت خلفه بينما قرعت جميع الكنائس لحن الموت. تقدّم النبلاء على ظهور الأحصنة في بروكار حزن أسود وأردية مخملية سوداء مطرزة بالذهب والفضة، وتقدّم تحت ظلّة كبير الأساقفة والأساقفة بتيجانهم التي تشدّ الأبصار وسط غيمة من البخور.

لم ينم الخيّا_\ون لعدة أيام. ارتدت المستعمرة كلها ثياب الحداد.

كان الآرتيكيون يندبون أيضاً في أحيائهم القذرة. كانوا على هذه الحالة لمدة شهور وتقريباً لمدة عام كان الطاعون يستأصلهم بالجملة. حمى لم تعرف أبداً قبل الغزو، تسحب الدم من الأنف والعينين وتقتل.

- نصيحة الحكماء الأرتيكيين العجائز -

بما أنك ترى الآن بعينيك

انتبه .

انظر إلى الوضع هنا ، لا يوجد فرح

ولا سعادة .

هنا ، على الأرض ، تُذرف دموع كثيرة

يتوقف النَّفس

وتنتشر الكآبة والمرارة .

تهبَّ ريح سبجية وتنقضَّ علينا .

الأرض هي مكان الفرح المؤلم

الفرح الذي يخز

ولكن رغم أن الأمور كانت هكذا

رغم أن المعاناة كانت شاملة

حتى ولو كانت الأشياء هكذا على الأرض

أيجب أن نخاف دائماً؟

ونرتجف إلى الأبد .

ونعيش إلى الأبد ونحن نبكي؟

كي لائن دائماً

كي لا يتخمننا الحزن

منَحنا أبونا

الابتسامات ، الأحلام والطعام .

قوتنا

وفعل الحب

الذي يبذر الناس

١٥٦: ويهوسينكو

- المكافأة -

يحمل زعماء ويهوسينكو الآن أسماء أسيادهم الجدد. يُطلق عليهم اسم فيليب دي ميندوزا وهرناندو دي مينيسيس وميغيل دي ألفارادو ودييغو دي تشيفز أو ماتيو ديلاكوروننا. إلا أنهم يكتبون بلغتهم الناهواتولية وبتلك اللغة بعثوا رسالة إلى ملك إسبانيا: «نحن المنحوسين، خدمك الفقراء من ويهوسينكو...».

يشرحون لفيليب الثاني أنهم لا يستطيعون الوصول إليه بأية طريقة أخرى لأنهم لا يمتلكون أجره الرحلة وأنهم سيروون قصتهم في الرسالة. كيف سنتكلم؟ من سيتكلم من أجلنا؟ نحن المنحوسين. لم يشنوا الحرب أبداً على الإسبان مشوا عشرين فرسخاً إلى هيرنان كورتيز وعانقوه، قدموا له الطعام وخدموه واعتنوا بجنوده المرضى. قدموا له الرجال والأسحلة والخشب لبناء السفن التي هاجمت تينوشيتلان. بعد أن سقطت العاصمة الأزتيكية قاتل سكان ويهوسينكو مع كورتيز أثناء غزو ميتشواكان وجاليسكو وكولهواكان وبانوكو وأهواكا وتيهوانتيبك وغواتيمالا. مات الكثيرون وفيما بعد، حين طلبوا منا أن نحطم الأحجار ونحرق النقوش التي كنا نعبدتها، فعلنا ذلك ودمرنا معابدنا... كنا ننفذ جميع أوامرهم.

كانت ويهوسينكو مملكة مستقلة حين جاء الإسبان لم تدفع الجزية أبداً للآزتيكيين: آباؤنا وأجدادنا وأسلافنا لم يعرفوا ماهي الجزية ولم يدفعوها لأحد. وأسلافنا لم يعرفوا ماهي الجزية ولم يدفعوها لأحد.

الآن، على أية حال، يطلب الإسبان منا جزية مرتفعة من النقود والذرة ونعلن أمام جلالكم أن مدينتنا ويهوسينكو ستختفي وتموت بعد وقت قصير.

١٥٦: ميتشوكان

- هاسكو دي غيروكا -

المسيحية البدائية، المشاعية البدائية: يصوغ أسقف ميتشوكان قوانين لمجموعاتنا البروتستانتية. أهتمته ذلك يوتوبيا توماس مور وأنبياء الإنجيل والتقاليد العريقة لهنود أميركا.

إن هذه الجماعات التي أسسها غيروكا حيث لايسود أحد على غيره أو على أي شيء ولا يُعرفُ الجوعُ والمال، لن تتكاثر في المكسيك كما كان يرغب. إن مجلس الأنديز لن يأخذ على محمل الجد الأسقف الغبي، ولن ينظر إلى الكتب التي كان ينصح بها بعناد. لكن هنا، عادت اليوتوبيا إلى أميركا حيث نشأت. لقد جسدت خرافة توماس مور في العالم المشاعي الصغير

لميتشوكان، وسيتذكر الهنود في الأزمنة القادمة فاسكو دي غيروكا وكأنه منهم، هذا الحاكم الذي ثبت عينيه على هلوسة ليرى ما وراء زمن الخزي والعار.

١٥٦١: سراكب فيلادبي لوس

- الإستقلال الأول للأميركا -

توجوه البارحة. تجمهرت قردة فضولية بين الأشجار. يقطر عصير الفاكهة من فم فيرناندو دي غوزمان وتتألق شمس في عينيه. كان الجنود يركعون واحداً بعد الآخر أمام العرش المصنوع من العصي والقش، يقبلون يد المنتخب ويقسمون يمين الولاء ثم يوقعون الإعلان بأسمائهم أو بإشاراتهم، كانوا جميع أولئك الذين لم يكونوا نساءً أو خدماً أو هنوداً أو سوداً. جعل الناسخ الإعلان رسمياً، وأعلن الإستقلال.

أصبح للذين يبحثون عن الدورادو، للضائعين وسط الأدغال ملكاً. لاشيء يربطهم بإسبانيا الآن سوى الاستياء. لقد رفضوا العبودية للملك الذي هو وراء البحار. يصرخ لوب دي أغيري: «لأعرفه ولا أريد أن أعرفه أو أطيعه».

نُصب البلاط في أكبر أكواخ القرية وعلى ضوء الشموع يأكل الأمير فيرديناند كعك المنيهوت المغطى بالعسل. حوله خدمه، حامل كوبه، وخادمه الخاص. يصدر الأوامر لمعاونيه وهو يلتهم الكعك. يصدر الأوامر لنسأخه ويمنح الامتيازات والألقاب. كان أمين الصندوق الملكي وكاهن القصر وكبير الخدم والمتدق يرتدون سترات رثة أيديهم متورمة وشفاههم متشققة. كان ضابط النظام ذو اللون الداكن والعين الواحدة والأعرج والقزم هو ليو أغيري الذي يتأمر في الليل ويشرف على بناء السفينة في النهار. ترن ضربات الفؤوس والمطارق. حطمت تيارات نهر الآمازون سفنهم، ولكن إلى الأمام تنهض سفينتان على الرمل. الغابة تقدم أخشاباً جيدة. يصنعون كيراً من جلود الأحصنة، مسامير، ورتاجات، ومفاصل من كعوبها.

عذبهم البرغش والبعوض وخنقتهم الرطوبة والأبخرة المحملة بالحمى وهم ينتظرون اكتمال السفينة. يأكلون الأعشاب ولحم القشاعم دون ملح. لم تبق كلاب أو أحصنة ولم تخرج سنارات الصيد سوى الوحول والطحالب العفنة ولكن لأحد في المعسكر يشك في أن ساعة الانتقام قد حانت. غادروا البيرو منذ شهور بحثاً عن البحيرة التي ذكرت الأسطورة أنها تحوي تماثيل ذهبية كبيرة بحجم الأطفال، والآن يريدون أن يعودوا إلى البيرو مستعدين للحرب. لن يصرفوا يوماً آخر في البحث عن أرض موعودة لأنهم يدركون أنهم وجدوها سابقاً، وقد أمرضهم حظهم السيء. سيبحرون في نهر الآمازون ويظهرون في المحيط ويحتلون جزيرة مارغريتا ويعزّون فنزويلا وبنما... أولئك الذين ينامون، يحلمون بفضة بوتوسي، أما أغيري الذي لا يغمض أبداً عينه الوحيدة، يراها مستيقظة.

١٥٦١ : نويغا فالنسيا ديل دي

- الأخير -

يظهر آغيري في وسط خشبة المسرح حاملاً فأساً في يده ومحاطاً بدزينات من المرايا. على ستارة المسرح الخلفية تظهر صورة تخطيطية كبيرة وسوداء للملك فيليب الثاني.

لوب دي آغيري: (مخاطباً الجمهور). على طريق هزيمتنا، عابرين في الموت والبليّة استغرقنا عشرة أشهر للوصول إلى فم الأمازون، النهر العظيم المخيف والمشؤوم. بعد ذلك استولينا على جزيرة «مارغريتا». هناك قضيتُ على خمسة وعشرين خائناً بالمشانق أو المخانق الحديدية، ثم شققنا طريقنا إلى الجزء الرئيسي من الجزيرة. يرتجف جنود الملك فيليب من الخوف. سنغادر فنزويلاً حالاً وندخل إلى مملكة البيرو من نصرين (يلتفت ويرى صورته المثيرة للشفقة في إحدى المرايا). توجتُ فرناندو دي غوزمان ملكاً على نهر الأمازون (يرفع فأسه ويحطم المرأة بضربة). توجته ملكاً وقتلته. فعلت الشيء نفسه مع قائد حرسه ومع جنرال وأربعة قواد آخرين. (يحطم جميع المرايا وهو يتحدث) قتلتُ أيضاً كبير خدمه وكاهنه وامرأة اشتركت في مؤامرة ضدي وذلك الشخص الذي وُلد في اليونان وظن أنه رام ماهر وأميرالاً وستة من حلفائهم.... عيّنت قادة جدداً وصف ضباط. أرادوا أن يقتلوني فشنقتهم (يحطم آخر مرآة)... جميعاً... جميعاً.. (يجلس على الأرض شبه مختنق، مغطى بالزجاج، يرفع الفأس بيده إلى الأعلى، وعيناه شاردتان. يخيم صمت طويل). عبرتُ البحر إلى البيرو شاباً لأنني أستحق الكثير وأنا أحمل في يدي رمحاً... ربع قرن! أسرار... مأس... حفرت مقابر كاملة لأعثر على الذهب والفضة وأمنحها للآخرين... نصبتُ المشانق في وسط مدن لم تولد... اصطدت حشوداً من البشر وأنا على ظهر حصاني... هنوداً يهربون مرعوبين في ألسنة اللهب... سادة من ذوي الألقاب الرفيعة يرتدون ثياباً حريرية مستعارة أولاد شيء ما أو آخر، أولاد لأحد، تمتلىء أفواههم بالرغوة ويأكلون الوسخ، الدم الذي سمّمته السهام.. وعلى الجبال يستلقي محاربون اخترقت دروعهم الفولاذية عواصف ثلجية أكثر عنفاً من وابل الرصاص، وجدّ كثير منهم قبوراً في بطون العقبان، اصفرّ كثيرون منهم كالذهب الذي كانوا يبحثون عنه... جلد أصفر، عينان صفراوتان... والذهب (يُسقط فأسه من يديه اللتين تبدوان كالمخلبين بألم. يظهر راحتي كفيه) تبخر تحول الذهب إلى ظل أو ندى (ينظر إلى الأسفل مشككاً. يخيم صمت طويل. ينهض فجأة. يعود إلى مخاطبة الجمهور، يرفع قبضته الناتئة العظام نحو الصورة التخطيطية الكبيرة لفيليب الثاني، ينعكس ظله بلحيته المستدقة على ستارة المسرح الخلفية) قلة ملعونة منكم ستذهب إلى الجحيم أيها الملوك، لأنه يوجد قلة ملعونة منكم. (يمشي نحو ستارة المسرح

الخلفية جاراَ قدمه العرجاء). أيها الوغد الكريه، فقدتُ جسدي وأنا أدافع عنك ضد المتمردين في البيرو! قدّمت لك رجلاً وعيناً وهاتين اليدين الليتين لافائدة ترجى منهما. إن المتمرّد الآن هو أنا. سأتمرد حتى الموت بسبب إنكارك للجميل (يواجه الجمهور شاهراً سيفه). أنا أمير المتمردين، لوب دي آغيري، الحاج، غضب الله، زعيم المشلولين! لانحتاج إليك ياملك إسبانيا! (تمرّ أضواء ملوّنة في نقاط مختلفة على المسرح) يجب أن لا نترك أي وزير من وزرائك حياً (يطعن بسيفه شعاعاً من الضوء الأحمر).. القضاة، الحكام، الرؤساء، نواب الملوك! الحرب حتى الموت ضد جميع عاهرات البلاط (يبقى شعاع الضوء في مكانه غير آبه بطعنة السيف القاطعة) المغتصبون، اللصوص (يجرح السيف الهواء) لقد دمّرتم الآنديز (يهاجم ضوءاً ذهبياً)، محامون، كتاب بالعدل، متبرّزون جبّراً إلى متى سنتحمل سرقاتكم في هذه الأراضي التي ربّحناها (يشق السيف شعاعاً أبيض اللون) كهنة، أساقفة، كبار أساقفة. إنكم لن تدفنوا حتى هندياً مسكيناً. من أجل التوبة تضعون دزينة من الفتيات في مطابخكم. أيها المتاجرون بالقرايين المقدّسة، أيها الغشّاشون (تتكاثّر هجمات السيف العبثية على أضواء لا تتحرك على المسرح. يفقد آغيري قواه ويبدو مرة أخرى وحيداً وتافهاً لأمعنى له).

١٥٦١: نويغا فالينسيا ديل ري

- من رسالة لوب دي آغيري إلى الملك فيليپ الثاني -

هنا عرفنا حجم قسوتك وكيف حنثت بيمينك وبكلمتك، ولهذا، في هذه البلاد نمنح لعودك ثقة أقل من التي نمنحها لكتب مارتن لوثر، لأن نائبك مركيز كانيتي شفق مارتن دي روبلز، الرجل الذي كان يخدمك بشكل جيد، والفتاح الشجاع للبيرو توماس فاسكويز والمسكين ألونزو داياز الذي بذل جهوداً كبيرة في اكتشاف هذه الأرض أكثر من التي بذلها كشافة موسى في الصحراء..

استمع، استمع أيها الملك الإسباني، كفّ عن قسوتك وعقوقك مع عبيدك، وبما أنك أنت والدتك المرتاحان في إسبانيا بعيدان عن جميع المتاعب، فقد منحك أتباعك على حساب دمهم ومدّخراتهم جميع الأراضي والإقطاعيات التي تمتلكها في هذه النواحي، واستمع أيها الملك والسيد، لايمكنك أن تلقب نفسك ملكاً عادلاً إذا أخذت أي جزء من هذه الأراضي التي لم تقم فيها بأية مغامرة دون أن تكافئ أولئك الذين كدحوا وتعرقوا...

وا آسفاه! ومن بالغ سوء الحظ أنه كان على والدك، القيصر الإمبريالي أن يفتح ألمانيا بقوات إسبانيا، صارفاً الكثير من النقود التي جاءت من هذه الأمكنة التي اكتشفناها نحن، ومن بالغ سوء الحظ أن هرمنا وإعياءنا لا يؤمك بما يكفي لجعلك توقف جوعنا حتى ليوم واحد.

١٥٦١: باركو يزيهيتو

- إعادة النظام -

لوب دي آغيري الذي تخلّى عنه رجاله مفضلين صفح الملك أو الوعود، يطعن حتى الموت ابنته الفيرا لينقذها من أن تصبح وسادة للحراس السود ويواجه جلاديه. يصحح تسديدهم، ليس إلى هذه الجهة، ليس إلى تلك الجهة، طلقة قذرة ويسقط دون أن يمنح نفسه لله. حين يقرأ فيليب الرسالة جالساً على عرشه بعيداً عن هنا، يُثَبِّتُ رأس آغيري على رمح كعبرة لجميع بيادق التنمية الأوروبية.

١٥٦٢: ماني

- النار تخطئ، خطأ فادحاً -

يرمي فراي ديينغو إلى اللهب كتب المايا واحداً بعد آخر. يلعن المفتش الشيطان بينما تفرقع النار وتلتهم. حول المحرقة يثن الهراطقة ورؤوسهم منكسة إلى الأسفل. يغطس الهنود المعلقين من أقدامهم، المسلوخين من ضربات السياط في الشمع المغلي، بينما النار تتأجج والكتب تططق وكأنها تتذمر. تتحول اليوم ثمانية قرون من أدب المايا إلى رماد. على الصفحات الطويلة للورق اللحائي تكلمت الإشارات والصور: تحدّثت عن عمل أنجز وأيام انصرفت عن الأحلام وحروب بشر ولدوا قبل يسوع. بفرشاة من الصوف رسم العارفون بالأشياء هذه الكتب المضاءة والمضيئة لكي لا يصاب بالعمى أحفاد الأحفاد، لكي يعرفوا كيف يرون أنفسهم وتاريخ قومهم ولكي يعرفوا حركات النجوم، تواتر الكسوفات ونبوءات الآلهة وأن يستدعوا الأمطار ومحاصيل ذرة جيدة.

في الوسط يحرق المفتش الكتب، ويؤدّب القراء حول النار الكبيرة. في هذه الأثناء يشرب المؤلفون والكهنة الغنائون الذين ماتوا منذ أعوام أو قرون شراب الشوكولاتة في الظل المنعش لأول شجرة في العالم. إنهم ينعمون بالسكينة لأنهم ماتوا وهم يعرفون أنه من المستحيل أن تحرق الذاكرة. ألن يغنى مارسموه ويرقص على إيقاعه عبر أزمان وأزمان؟

حين تُحرق منازلها الورقية الصغيرة، تجد الذاكرة مأوى في الأفواه التي تغني أمجاد الرجال والآلهة في الأغاني التي تنتقل من شعب إلى آخر وفي الأجساد التي ترقص على إيقاع الجذوع المجوفة ودروع السلاحف وعيدان القصب.

١٥٦٣ : حصن آركو

- التاريخ الذي سيكون -

تُشدّ الأنشطة وتُخفق. نفدت الماء في هذا الحصن الدفاعي الأمامي الذي حُرق مرتين وأعيد بناؤه. سيضطرون بعد قليل إلى سرب بولهم القليل. سقطت سهام كثيرة في الداخل استخدمها الإسبان حطباً للطبخ.

يقترب زعيم الأروكانيين من سفح الحصن. على ظهر حصانه : «أيها القائد، هل تسمعي؟».

يظهر لورينزو بيرنال رأسه.

يعلن الزعيم المحلي أن الحصن سيحاط بالقش وتُضرم فيه النار. يقول إنهم لم يتركوا أحداً حياً في كونسيبسيون.

يصرخ برنال : «لن يحصل أي شيء».

- «لا يوجد فرصة، أبداً».

ينهض الحصان على قائمته.

- «إذا ستموت».

يقول بيرنال صارخاً : «سنموت ولكننا سنربح الحرب على المدى الطويل، سيكون هنا الكثير منا».

يجيب الهندي بضحكة خافتة :

يسأل : «كيف؟ أية نساء ستنجبهم؟».

يجيب القائد ببطء وهو يمضغ كلماته : «إذا لم يكن يوجد نساء إسبانيات، سنستولى على نساءكم». ثم يضيف : «وسننجب منهن رجالاً يصبحون أسيادكم».

١٥٦٤ : بليموث

- هوكينز -

تنتظر السفن الأربع التي يقودها جون هوكينز المدّ الصباحي. حالما ترتفع المياه ستبحر إلى أفريقيا لاصطياد البشر على شواطئ غينيا. من هناك سيذهبون إلى جزر «الأنثيل» ليبيعوا العبيد مقابل السكر والجلود والآلات.

منذ عامين قام هوكينز بهذه الرحلة على حسابه، في سفينة سُميت يسوع. باع مائة عبد تهريباً في سانتو دومينغو. انفجرت الملكة إليزابيث من الغضب حين علمت بذلك، إلا أن غضبها تلاشى حين اطلّعت على بيان ميزانية الرحلة. بمثل لمح البصر أصبحت شريكة في العمل مع كلب البحر الديفوني واشترى إيرلات^(١) بيمبروك وليفشستر ورئيس بلدية لندن أسهماً أولى في المشروع الجديد.

يخطب هوكينز بالبحارة وهم يرفعون الأسرعة. ستتبنى البحرية البريطانية أوامره في القرون القادمة. يصيح بأعلى صوته: «اخدموا الله كل يوم. أحبوا بعضكم، ادّخروا مؤنكم، راقبوا النيران! صادقوا بعضكم!».

١٥٦٤ : بوغوتا

- تعلّبات الحياة الزوجية -

- «قولي لي، هل أبدو مختلفة؟».

- «قليلاً».

- «ماذا قليلاً؟».

- «أنت سمينة بعض الشيء يا سيدتي، اعذريني إذا قلت هذا».

- «برأيك هل أنا سمينة من الطعام أم من الضحك؟».

- «سمينة من الحب، ولا أقصد الإساءة طبعاً».

- «لا يوجد إساءة، هذا ما طلبتك من أجله».

السيدة قلقة جداً، جسدها قليل الصبر، لاتستطيع أن تنتظر زوجها الغائب، إذ أخبرها أحدهم إنه عائد إلى «كارتاجينا» ما الذي لن يفعله حين يرى بطنها ذلك الرجل الصارم الذي يشفي الصداع بقطع الرؤوس.

- لهذا استدعيتك يا جوانا، ساعديني أنت التي تستطيعين أن تطيري وتشربي الخمر من كأس فارغ. أخبريني هل زوجي عائد في الأسطول «الكارتاجيني»؟

تخلط المرأة السوداء جوانا غارسيا الماء والتراب والدماء والأعشاب في حوض غسيل فضي. تغمس كتاباً أخضر صغيراً في الحوض وتتركه يعم ثم تدفن أنفها فيه وتقول: لا، إنه ليس قادماً، وإذا كنت ترغبين برؤية زوجك تعالي وألقي نظرة.

(١) - إيرل: لقب انكليزي أدنى من مركز وأرفع من فيكونت.

تنحني السيدة فوق الحوض. تشاهده جالساً في ضوء الشموع قرب امرأة جميلة في مكان مليء بالحرير بينما يقطع له أحد ما ثوباً من النسيج الفاخر. «آه أيها الدجال. أخبريني يا جوانا. ماهذا المكان؟».

- «إنه منزل خياط في جزيرة سانتو دومينغو».

تظهر في المياه الكثيفة صورة خياط يقطعُ كما.

تقول المرأة السوداء: «هل أوقف هذا؟».

- «نعم أوقفه».

تبرزغ اليد من الحوض مع كم من النسيج الرائع يقطر بين الأصابع.

ترتجف السيدة من الغضب:

- «إنه يستحق بطوناً أكثر سمناً هذا الخنزير القذر».

من زاوية المنزل، ينخر جرو صغير بأعين نصف مفتوحة.

١٥٦٥: الطريق إلى ليما

- الجاسوس -

نما البطيخ الأحمر كبيراً كالشموس في مزرعة دون أنطونيو سولار التي تقع على نهر لورين. إنها المرة الأولى التي تُزْرَع فيها هنا هذه الثمار التي أُحضرت من إسبانيا. يرسل رئيس العمال عَشْرَ عِيْنَاتٍ مستمتعاً ومعتزاً بالأمر. تمكن مقارنة حجم هذه البطيخات مع فجل وادي «كوزكو» الذي يقال عنه أن خمسة أحصنة يمكن أن تربط إلى رؤوسه.

ينقل الهنديان هدية كبير العمال في كيسين ويمنحهما رسالة لتسلم مع البطيخ إلى دون أنطونيو سولار: «إذا أكلتم أية بطيخة ستخبره هذه الرسالة بذلك».

حين يصبحان على بعد فرسخين من مدينة الملوك يجلس الهنديان ليسترىحا.

- «ما طعم هذه الفاكهة المميزة؟».

- «لابد أنه مدهش».

- «مارأيك بتجريبها؟ لنجرب بطيخة واحدة».

استدرك أحد الهنديين: «ولكن الرسالة ستعني».

ينظران إلى الرسالة بكراهية وينظران حولهما باحثين عن سجن لها. يخبأنها في مكان لاتستطيع أن ترى منه شيئاً ويلتھمان بطيخةً بعضاتٍ سريعة مكتشفين اللب السائلي الذي يفوق طعمه الخيال ثم يأكلان بطيخة أخرى ليجعلا الكيسين متساويين وبعد ذلك يلتقطان الرسالة ويحملان الكيسين على كتفيهما ويتابعان طريقهما.

١٥٦٥ : يويو

- الحجر هو أنا -

ينتظر مسؤول الملك الساحرة الماهرة في الشعوذة والتي استدعيت لتشرح نفسها. كان التمثال الحجري مرمياً عند قدميه مُنكبّ الوجه. لقد قبض على الساحرة وهي تتحدث مع الوثن في الخفاء وستدفع حلاً جزاء هرطقتها ولكن المسؤول يريد أن يسمع من شفقتها اعترافها بالتحدث مع الشيطان قبل أن تعاقب. كان يُسَلِّي نفسه أثناء انتظارها بالدوس على الوثن وبالتفكير بمصير هؤلاء الهنود الذين يجب أن يكون الله متأسفاً على خلقهم.

يرمي الجنود الساحرة أرضاً ويتركونها ترتجف على العتبة. عندئذ يُسَلِّم الوثن الحجري العجوز والقبيح على الساحرة العجوز القبيحة بلغة «الكويتشوا» قائلاً من تحت قدم المسؤول: «مرحباً أيتها الأميرة» ينصعق المسؤول ويسقط على الأرض زاحفاً.

تقول وهي تُهَوِّي له بقبعتها ممسكة معطف الرجل الذي فقد وعيه: «لاتعاقبني ياسيدي. لاتحطمه».

تريد المرأة العجوز أن تشرح له أن الآلهة تعيش في الحجر وبدون الوثن لن تعرف اسمها أو من هي أو من أين جاءت وسوف تهيم في الأرض عارية وضائعة.

- صلاة الأنكيين بحثاً عن الله -

اسمعني
يامن يعيش عالياً في البحر
يامن يعيش في أعماق البحر
ياخالق العالم
وخزاف الإنسان
ياإله الآلهة،
عيناي يائستان لرؤيتك،
أو تائقتان لمعرفتك،
إذا رأيتك
وعرفتك
وتأملتك
وفهمتك

فسوف تراني وتفهمني،
 لا الشمس ولا القمر،
 لا النهار
 ولا الليل
 ولا الصيف
 ولا الشتاء
 يتحركون اعتباطاً
 بل في فلكٍ مُحْكَمٍ
 إلى المكان المحدد
 وإلى النهاية الطيبة
 يامن تحمل معك في كل مكان
 الصولجان الملكي،
 اسمعني،
 أصغي إليّ
 لاتجعلني أصاب بالإعياء
 لاتتركني أموت.

١٥٦٥ : مدينة المكسيك

- المراسم -

يومض الرداء المطلي بالذهب. بعد مرور أربعة وخمسين عاماً على موته يرأس «موكتيزوما» الموكب. يتحرك الخيالة وكأنهم راجلون نحو الساحة الرئيسية لمدينة المكسيك. يقفز الراقصون على صوت رعد الطبول وعلى نواح غلايين «التشيريميا». كثير من الهنود الذين يرتدون الملابس البيضاء يحملون أغصاناً مزهرة. يحمل آخرون قدور طبخ «صلصالية» كبيرة. يختلط دخان البخور بعطور المرق المتبّل.

يترجّل موكتيزوما أمام قصر كوريتز.

ينفتح الباب. يظهر كورتيز بين غلمانة مسلحاً بمِطْرٍ مسنون.

يحنى موكتيزوما رأسه ويقدم أكاليل الزهور راکعاً. يلمس كورتيز كتفيه. ينهض موكتيزوما. بإيماءة بطيئة ينزع قناعه ويكشف الشعر المجعد والشارب المستدقّ لألونزو دي آفيل.

ألونزو دي آفيلا، سيد المشانق والمدينة، مالك الهنود والأراضي والمناجم يدخل إلى قصر مارتين كورتيز، مركز وادي «أواهكا». يفتح ابن غاز بابَه لإبن أخ غاز آخر. تبدأ اليوم رسمياً المؤامرة ضد ملك إسبانيا. ليس كل شيء في حياة المستعمرة حفلات ساهرة ومسايفات، العاب ورق، وحفلات صيد.

١٥٦٦ : مدريد

- المتعصب للكرامة الإنسانية -

يتحدّى فراي بارتولومي ديلاس كاساس الملك ومجلس الأنديز. هل سيعاقب نتيجة عدم طاعته؟ لا يهمه هذا الأمر كثيراً في سن الثانية والتسعين. لقد قاتل طيلة نصف قرن. أليست مآثره مفتاح مأساته؟ تركوه يربح معارك عديدة إلا أن نتيجة المعركة كانت مُحددة مسبقاً. كان يعرف ذلك منذ وقت طويل.

لن تطيعه أصابعه أبداً الآن. يملي الرسالة ويخاطب دون إذن من أحد البابا. يطلب من بيوس الخامس أن يأمر بوقف الحروب ضد الهنود والنهب الذي يستخدم الصليب غطاءً له. يغضب وهو يملي الرسالة يصعد الدم إلى رأسه ويرتجف الصوت الخشن الضعيف الذي تبقى له. فجأة يسقط على الأرض.

١٥٦٦ : مدريد

- حتى ولو خسرت، هذا جدير بالاهتمام -

تتحرك الشفتان. تنطقان كلمات بلا صوت: «سامحني يا إلهي؟». يتوسل فراي بارتولومي طالباً الرحمة يوم العقاب لأنه اعتقد أن العبيد المغاربة والسود سوف يخففون الكارثة التي تحل بالهنود.

يتمدد بجبهة رطبة شاحباً لا تتوقف شفتاه عن الحركة. بعيداً يقصف الرعد ببطء. يخلق مانح الولادة، رجل الفعل فراي بارتولومي عينيه. ورغم أن سمعه تدهور، يسمع قرع المطر على سقف أبرشية «آتوشا» يبلل المطر وجهه. يبتسم.

يتمتم القسيس الذي يرافقه شيئاً عن الضوء الغريب الذي أضاء وجهه. يسافر فراي بارتولومي تحت المطر، حرّاً من الشك والعذاب للمرة الأخيرة إلى العوالم الخضراء حيث عرف السعادة.

تقول شفتاه في صمت وهو يقرأ الصلوات في ضوء الحباحب مبللاً بالمطر الذي يضرب السقف المغطى بورق النخيل: «أشكر».

يقول وهو يحتفل بالقداس في أكواخ بلا جدران وهو يعمد الأطفال العراة في النهر: «أشكر».

يُصَلَّبُ القساوسة. تسقط آخر حبات الرمل من الساعة. يقلب أحدهم الساعة الرملية كي لا يقطع الزمن.

١٥٦٨: لوس توكويز

- كواي كاي بورو -

لن يعكس النهر وجهه ثانية ولا حزمة الريش المتألقة على خوذته.

لم تُصنع الآلهة لزوجته آرکويا هذه المرة، التي توسلت كي لا يمسه المرض أو الرصاص وأن لا ينسى النوم الذي هو شقيق الموت أن يعيده إلى العالم في نهاية كل ليلة.

قطع الغزاة كواي كاي بورو بالرصاص.

منذ أن انتخبه الهنود زعيماً، لم يكن هناك هدنة في هذا الوادي ولا في جبال آفيل. في مدينة كاراتاس الحديثة الولادة صلب الناس حين نطقوا اسمه بصوت منخفض.

مواجهاً الموت ومسؤوليه، سقط آخر الرجال الأحرار صارخاً: «اقتلوني! اقتلوني! حرروا أنفسكم من الخوف».

١٥٦٨: مدينة المكسيك

- أبناء كورتيز -

مارتن كان إسم ولد هرنان كورتيز الأكبر والذي أنجبته شهوات والده من المرأة الهندية مالينش، مات والده تاركاً له معاشاً سنوياً ضئيلاً.

مارتين هو أيضاً اسم ولد هرنان كورتيز الشرعي والذي أنجبته امرأة إسبانية والدها كونت وشقيقها دوق. ورث هذا المارتن شارة الشرف والثروة. إنه مركيز وادي «أواهكا» ومالك لآلاف الهنود وللأراضي التي أذلها والده وأحبها واختار أن يمكث فيها إلى الأبد.

كان من عادة المركيز مارتين أن يتجول في شوارع المكسيك على سرج من المخمل القرمزي المطرز بالذهب وخلفه يمشي حراسه مرتدين بزات حمراء ومسلحين بالسيوف. كل من يمر في طريقه يجب أن ينزع قبّعته ويبايعه وينضم إلى حاشيته. كان مارتن الآخر، الوغد، واحداً من الحاشية.

أراد المركيز مارتن أن ينفصل عن إسبانيا ويعلن نفسه ملكاً على المكسيك. حين فشلت المؤامرة أطلق الأعداء وسمّى الأسماء فعُقي عنه.

مارتن الوغد الذي خدم شقيقه في المؤامرة وكل شيء آخر يُعذب بالخلعة^(١) إلى جانبه يسجل الناسخ: «لقد عُرِّي ووضع في الخلعة: وحين تم توبيخه قال إنه لا يدين لأحد بأي شيء»، يدير الجلاد العجلة. تسحق الكبلات اللحم وتمدد العظام.

يُسجل الناسخ: «لقد سُئل ثانية ويقول أنه لا يملك شيئاً يقوله أكثر مما قاله».

تدور العجلة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة.

هافانا: ١٥٦٩

- القديس سيمون يحارب النمل -

يغير النمل على المدينة ويُدمر المحاصيل. افترس عدداً من المسيحيين ذوي النوم الثقيل من سرّهم.

تعقد سلطات هافانا اجتماعاً استثنائياً تقرر فيه طلب حماية أحد القديسين من النمل المفترس.

أجريت القرعة أمام المحترم ألونزو ألفاريز على الرسل الإثني عشر. يربح القديس سيمون ويصير حامياً يتوسط مع الله ويزيل النمل من المنازل والمزارع في هذه البلدة ومحيطها.

ستكافىء القرية بالمقابل القديس سيمون وتقيم حفلاً تكريمياً سنوياً له لا يعفى أحد من حضوره يتضمن صلاة الغروب وقداًساً وموكباً ومصارعة ثيران.

١٥٧١: مدينة المكسيك

- يجب أن تشي بجارك -

تتدلى شارات الشرف والسجادات الجميلة والمخمل والرايات من الشرفات. يتوهج درع فارس النظام في سانيتاغو أمام نائب الملك. يرفع الخدم قؤوسهم الكبيرة حول الصليب الضخم المثبت إلى منصة الإعدام.

المفتش العام قادم من مدريد. تعلن الطبول والأبواق عن وصوله. يجيء على ظهر بغل مزّين بالحلي والزخارف وسط شموع مضاءة لا تحصى وقبعات سوداء.

(١) - الخلعة: أداة تعذيب قديمة.

سَيُعَذِّبُ الهراطقة أو سَيُحَرِّقُونَ تحت سلطته المطلقة. أمر البابا «انوسنت الرابع» منذ قرون أن يكافأ قاتلو الأرواح وسارقو إيمان المسيح بالتعذيب، إلا أن البابا بولس الثالث أمر فيما بعد أن لا يستمر التعذيب أكثر من ساعة. منذ ذلك الوقت يستريح المفتشون قليلاً من عملهم في كل ساعة. سيأمر المفتش الجديد الذي وصل إلى المكسيك بعدم استخدام الخشب الأخضر أبداً في الإعدامات كي لا تختنق المدينة من الدخان المزيج وسيأمر أن تتم الإعدامات في أيام جميلة كي يستمتع الجميع بذلك. لن يزعج نفسه بالهنود لأنهم آمنوا حديثاً، وهم ضعفاء وقيمتهم قليلة.

بجلس المفتش قرب نائب الملك. تحييه طلقات المدفعية. تفرع الطبول ويعلن منادي البلدة المرسوم العام للإيمان. يأمر المرسوم الجميع أن يبلغوا عن أي شخص يعرفونه أو شاهدوه أو سمعوا عنه ولا يستثنى من هذا الزوجات والأزواج والآباء أو أي شخص آخر مهما كانت درجة قرابته. الجميع ملزمون بالتبليغ عن الأحياء أو الأموات الذين نطقوا، أو آمنوا بكلمات أو آراء هرطوقية أو مثيرة للشك أو خاطئة أو طائشة أو مسيئة أو غير أخلاقية أو تجديفية.

١٥٧١ : مدريد

- من هو المذنب أو المجرم أو الشاهد؟ -

أهذا هو الوجه نفسه، أم المرأة التي تعكسه؟ لا يفكر الملك بذلك مرتين. يصدر أمراً بمصادرة جميع المخطوطات التي تركها فراي بارتولومي لاس كاساس كي لاتقع في أيدي إسبان سيئين أو في يد أعداء إسبانيا. ما يقلق الملك فيليب الثاني بشكل خاص هو إمكانية نشر أو توزيع كتاب تاريخ الأنديز السميك جداً والذي لم يستطع لاس كاساس أن يكمله والذي مايزال حياً ومسجوناً ومقفلًا عليه في أبرشية سان غريغوريو.

«١٥٧٢ : كوزكو»

- توباك آمارو -

يجيء جاراً قدميه على الحصى. يقترب توباك آمارو على ظهر حمار قزم، وعنقه مقيدة بحبل إلى منصة الإعدام. أمامه يعلن منادي المدينة أنه طاغية وخائن.

يعلو الصخب في الحي الرئيسي.

- «لماذا يأخذونك أيها الآنكا^(١) ليقطعوا رأسك؟».

تتحول تمتمات السكان المحليين إلى زئير. تصرخ النساء: «ليقتلونا جميعاً». عالياً، على منصة الإعدام يرفع توباك آمارو يداً، يضعها على أذنه ويخفضها بهدوء. بعد ذلك، يصمت الحشد.

لم يكن يوجد شيء سوى الصمت حين يقطع سيف الجلاد رأس حفيد هويينا كاباك. تنتهي مع توباك آمارو أربعة قرون من السلالة الآنكية وأربعون عاماً تقريباً من المقاومة في جبال «ويلكابامبا». الآن ستتوقف عواصف الحرب والإيقاع الخشن للأبواق المحاربة عن مهاجمة وادي كوزكو.

- المقهورون يؤمنون -

سيعود ويتجول على الأرض. تعرف ذلك الجبال الأكثر علواً. ولأنها أكثر علواً ترى المسافة الأكثر بعداً.

كان ابناً للشمس ولامرأة بسيطة.

سجنَ الريح وقيد والده الشمس ليجعل الزمن يعاني.

رفع الأحجار إلى القمم بالحيال وبنى بهذه الأحجار المعابد والحصون.

تتبعه الطيور أينما اتجه. تحييه وتبهج خطواته. نذفت قدماه من الترحال الطويل وحين امتزج دم قدميه بالتراب تعلمنا كيف نحرثه. تعلمنا الكلام حين قال لنا: «تكلّموا». كان أكثر قوة وشباباً منا.

لم يعيش الخوف في صدورنا دائماً. لم نرتطم به دائماً كما هو الأمر مع منحدرات ومرتفعات دروبنا الوعرة. تاريخنا طويل. ولدَ تاريخنا في اليوم الذي خرجنا فيه من فم وعيني وإبطي ورحم الأرض.

إسباناري، شقيق إنكاري قطع رأس «إنكاري». تحول رأس إنكاري إلى نقود. تدفق الذهب والفضة من أحشائه المليئة بالبراز.

تعرف ذلك الجبال الأكثر علواً. يحاول رأس إنكاري أن ينمو نحو قدميه. ستتجمع أشلاؤه بالتأكيد في أحد الأيام. وحين يجيء هذا اليوم سيتجول على الأرض وستتبعه العصفير.

(١) - الآنكا: الملك.

١٥٧٤ : مدينة المكسيك

- فعل الإيمان^(١) الأول في المكسيك -

منذ أن نشر المنادون مرسوم الاتهامات انهمر الشجب على المهرطقين ومتعدي الزوجات والساحرات والمجذفين.

احتفل بفعل الإيمان في الأحد الأول لعيد الصوم الكبير من الصباح إلى المساء وبدأت محكمة التفتيش تصدر أحكامها على الفزاعات التي كانت تجرّ من زناناتها ومن غرف التعذيب. عالياً، على منصة الإعدام الفخمة، محاطاً بالرمّاحين والحشود المبتهجة، يعمل الجلاد. يقول نائب ملك إسبانيا الجديدة الذي يحضر المشهد جالساً على عرش مخملي واضعاً مخدة تحت قدميه :

- «لا يمكن أن يُذكر أن حشداً كبيراً في احتفال عام كهذا، أو في أي شيء له قداسة كبيرة سبق وشوهد من قبل».

جُلِدَ صائغان، وناسخ، وصانع أحذية من مائة إلى مائتي جلدة، لأنهم قالوا إنّ الجماع ليس ذنباً مهلكاً. يعاني بعض متعدي الزوجات من عقوبات مشابهة، من بينهم الراهب الأوغسطيني خوان سارميينتو، الذي يوجد في ظهره جرح غير مندمل، يُسَيَّر ليجدف في السفن لمدة خمسة أعوام.

يتلقى كل من الزنجي دومينغو الذي ولد في المكسيك والهجين ميغيل فرانكو مائة جلدة لأن الأول ينكر وجود الله والثاني جعل زوجته تعترف له. يُجَلَد أيضاً الصيدلي غاسبار ديلوس ريبس لأنه قال إنه من الأفضل التعايش مع المرأة بدلاً من الزواج وبأنه جائز شرعياً للفقراء والمظلومين بأن يحنثوا بإيمانهم من أجل النقود.

إلى التجذيف في السفن، السجن الشاق لمسببي الأذى، يذهب اللوثريون واليهود الذين رضعوا هرطقاتهم من أئداء أمهاتهم وبعض الإنكليز من أسطول جون هوكينز وفرنسي قال إن الملك والبابا جبانان.

يختتم إنكليزي من مناجم غوانا جواتو وحلاق فرنسي من يوكاتان حياتهما الهرطقية في المحرقة.

(١) - فعل الإيمان: الاحتفال الذي يرافق إصدار الحكم بالموت من قبل محكمة من محاكم التفتيش على امرئ متهم بالهرطقة والذي يتبع بتنفيذ الحكم من جانب السلطات الزمنية.

١٥٧٦ : غوانا جواتو

- الرهبان يقولون -

جاءت إلى المكسيك منذ عشرين عاماً قادتها حمامتان إلى غوانا جواتو. وصلت دون أن تصاب بأذى رغم أنها عبرت البحر والصحراء ضلّ الذين كانوا يحملونها طريقهم. أرسلها الملك إلينا ليشكرنا على الثروة التي لا تتوقف أبداً عن التدفق من أحشاء هذه الجبال.

عاشت في إسبانيا أكثر من ثمانية قرون. عاشت في غرناطة في كهف لتختبئ من المغاربة، وحين عثر عليها المسيحيون وأنقذوها لم يجدوا أي جرح في جسدها المتخشب. وصلت إلى غوانا جواتو سليمة. وبقيت سليمة، تجترح المعجزات. وها هي سيدتنا تمنح العزاء للفقراء والأغنياء بسبب بؤسهم وتحمي من البرد أولئك الذين ينامون خارج المنازل وفي القصور. لا تميز رحمتها اللامتناهية بين الخدم والأسياد. ولا ي فشل أي شخص يستدعيها في الحصول على العطف الرباني. أنقذت فضيلتها كثيراً من الهنود الذين يذهبون إليها تائبين ومؤمنين. بقيت سيف الله الذي يعاقب بغضب عادل الأوثان والهنود المذنبين في المكسيك. المبتلون الذين تضرعوا إليها ودفعوا الصدقات لم يمسسهم الطاعون.

في المناطق الأخرى، يموت الهنود الذين لا يقتلهم التيفوئيد من الجوع أو العمل الشاق. تتناثر الجثث في الحقول والساحات وتمتلئ بها المنازل التي مات جميع سكانها ولم يبق أحد يخبر عن ذلك. ينشر الطاعون في أرجاء المكسيك روائح التعفن والدخان، وعلينا نحن الإسبان أن نسد أنوفنا حين نمر.

١٥٧٦ : هوشيميلكو

- الحوار بين سانتياغو يشارب الطاعون -

حتى الأطفال الرضع هنا دفعوا الجزية مالا وذرّة. إذا استمر الطاعون من سيدفع؟ بنت السواعد المحليّة كاتدرائية المكسيك. إذا لم يتوقف الطاعون من الذي سيزرع هذه الحقول؟ من الذي سيغزل وينسج في المشاغل؟ من الذي سيبنى الكاتدرائيات ويعبد الشوارع؟.

يناقش الرهبان الفرنسيّسكانيون الموقف في أبرشيّتهم. من بين ثلاثين ألف هندي عاشوا في «هوشيميلكو» بقي فقط أربعة آلاف حين جاء الإسبان وهذا ليس مبالغة. مات الكثيرون وهم يقاتلون مع هرنان كورتيز وهم يفتحون البلدان ويقتلون الرجال من أجله. مات أيضاً الكثيرون وهم يعملون من أجله ومن أجل بدرو دي ألفارو. وقتل الطاعون عدداً كبيراً..

يجيء إلى راعي الأبرشية فراي جيرونيمو مندييتا الوحي الذي ينقذ.
يحضرون للقيام بالقرعة. يخلط قندلفت معصوب العينين قصاصات الورق في صحن فضي.
كتب في كل قصاصة اسم قديس له مكانة رفيعة في البلاط السماوي. يختار القندلفت واحدة.
يفتحها الأب مندييتا ويقرأ: «إنه الحواري سانتياغو».
أعلن من الشرفة لهنود هوشيميلكو وبلغتهم. يتحدث الراهب الرؤيوي راعياً على ركبتيه،
رافعاً ذراعيه: «سيهزم سانتياغو الطاعون».
يعده بمذبح.

١٥٧٧: هوشيميلكو

- الحواري سانتياغو يحارب الطاعون -

كان صوت اصطدام الأذرع يُسمع من مقبرة سانتياغو في مساء كل معركة، في أثناء الأعوام
الشاقة للغزو، وكان القديس يقاتل مع حشد الغزاة ركباً على حصانه الأبيض، حاملاً رمحاً في
يده. كان من عادة القديس سانتياغو أن يقتل الهنود وأن لا ينقذهم، وكان الطاعون الذي لا يلمس
الإسبان يستمر في إبادة الهنود في «هوشيميلكو» وفي أجزاء أخرى من المكسيك.
بينما كان الليل يرخي سدوله، يسمع الأب مندييتا، من حجرته صرخات وأنينا أكثر قوة من
أناشيد الملائكة.
يجب أن يتوسط أحد ما إلى الله أو سيتبخر الهنود من هوشيميلكو. يناقش الفرنسي سكانيون
الموقف ثانية ويقررون أن يجروا القرعة. يختار القدر المبارك سيباستيان ليكون القديس الحامي.
يعدونه ببناء مذبح.

١٥٧٩: كويتو

- ابن أتا هواليا -

شاهد بيتو الكاهن الهندي لإقليم أرشيدونا في رؤياه الشيطان في شكل بقرة. قالت له إن الله
متضايق جداً من المسيحيين ولن يدافع عنهم، أما غوامي، الكاهن الهندي لتامبيسا فقد قضى
خمسة أيام في العالم الآخر. شاهد الأعاجيب وأصغى إلى الإله ويمتلك الآن قوة المطر والإنبعاث.
يعلن بيتو وغوامي أن الهنود الذين لا ينضمون إلى التمرد سيحصدون الضفادع والثعابين في حقول
أبدية الجذب.

ينصبّ النبيان نفسيهما على رأس رماح كثيرة. وفي جنوب شرق كويتو يتمرّد هنود «الكويخو» ويهاجمون قرى عديدة وينتظرون عبثاً أن يحصل تمرّد في الجبال. يأسر فرانسيسكو آتاهوالبا، ولد الآنكا وقائد الجيش الإسباني متآمري الجبال ويخمد التمرد.

تأتي الهزيمة بعد بضعة معارك. يجبر الإسبان جميع هنود إقليم «الكويخو» والمناطق المحيطة «بكويتو» على حضور إعدام النبيين بيتو وغوامسي. يُعرضان في شوارع كويتو، يُعذّبان بكلاّبات حامية، يُشنقان ويُقطعان وتُعرض قطعتهما. يراقب الكابتن فرانسيسكو المشهد، جالساً على المقعد الملكي.

١٥٨: بونيس آيرس

- المؤسسون -

أبحر ضابط إسباني منذ نصف قرن تقريباً من «سينيل» إلى هذه الشواطئ، المجهولة. وظّف كل الثروة التي جمعها من نهب روما في هذه الحملة. أسّس هنا مدينة وحصناً أحاطه بالأكواخ وأبحر في النهر بحثاً عن جبال الفضة والبحيرة الغامضة التي تنام فيها الشمس.

بحث سيباستيان كابوت منذ عشرة أعوام عن كنز الملك سليمان مبحراً في هذا النهر الذي لا يُعبّر عن اسمه الفضي والذي يوجد فقط وحلّ على إحدى ضفتيه ورمل على الضفة الأخرى ويقود إلى أنهار أخرى تقود إلى الأدغال.

لم تستمر مدينة بدرودي ميندوزا طويلاً. بينما كان جنوده الذين دفعهم الجوع إلى الجنون يأكلون بعضهم كان الضابط يقرأ فيرجيل وإيرازموس وينطق بكلمات من أجل الخلود. وفي وقت قصير جداً تلاشى الحلم «ببيرو» أخرى، فرغب أن يعود إلى إسبانيا، إلا أنه لم يصل إلى هناك حياً. فيما بعد، جاء ألونزو كابريرا الذي أحرق بونيس آيرس باسم الملك. استطاع أن يعود إلى إسبانيا وهناك قتل زوجته وانتهت حياته في مصح عقلي.

يجيء الآن خوان دي غاري من أسنسيون. وتولد سانتا ماريا ديلوس بونيس آيرس ثانية وجاءت مع غاري مجموعة من الباراغويين، من أبناء الغزاة الذين رضعوا من أمهاتهم «الكوراكوانيات» حليبيهم الأول واللغة المحلية التي يتحدثون بها.

يُجسّد سيف غاري، الملتصق بيده، ظلّ الصليب. تصطك أسنان المؤسسين من البرد والخوف. يعزف النسيم ألحاناً من الحفيف في رؤوس الأشجار، وخلف هذا، في السهول اللانهائية الإمتداد، يتجسّس عليهم الهنود والأشباح بصمت.

١٥٨: لندن

- دريك -

ثلاثة أنخاب لذهب السفن الشراعية ! تحيا فضة بوتوسي !
تصرخ النساء وتقرع أجراس الكنيسة منبهة : «لقد جاء التنين». أبحر فرانسيس دريك حول
العالم في ثلاثة أعوام. عبر خط الإستواء مرتين ونهب البحر الإسباني، سارقاً المرافىء والسفن من
تشيلي إلى المكسيك.

يعود الآن بسفينة واحدة وبحارة محتضرين عددهم ثمانية عشر شخصاً، إلا أنه يحضر معه
كنزاً يعادل مائة وعشرين مرة المبلغ الذي خُصص للرحلة. تُنصَّب الملكة إيلزابيث الشريكة
الرئيسية وصاحبة الخطة القرصان فارساً. يُقام الاحتفال على ضفة نهر «التايمز»، على السيف
الذي يمنحه لَقَبُهُ نُقِشَتْ كلمة للملكة إيلزابيث: «من يطعنك يادريك يطعنني». يقدم لجلالته وهو
راكع على قدميه بروشاً سرقة في المحيط الهادي.

مرتفعة فوق الضباب والسخام، تتربّع إيلزابيث على قمة امبراطورية ناشئة. إنها ابنة هنري
الثامن وآن بولين التي قُطِعَ رأسها في برج لندن لأنها أنجبت فتاة. تلتهم الملكة العذراء عشاقها
وتستخدم قبضتيها ضد خادوماتها وتبصق على ملابس أفراد حاشيتها.

سيصبح فرانسيس سيكون فيلسوف الملكة وقاضي قضااتها. وسيصبح ويليم شكسبير شاعرها
وفرانسيس دريك قائد سفنها. مُحْتَقَرُ العواصف، سَيِّدُ الأشرعة والرياح، القرصان دريك يتحرك في
البلاط كأنه يتسلق الصواري والأشرعة. إنه قصير وبدين له لحية شديدة الاحمرار، ولد في البحر
ورُبِّي على خشية الله. إن البحر منزل له، ولا يشن أي هجوم إلا بعد أن يضغط الإنجيل على
صدره، الإنجيل الذي يضعه تحت ثيابه.

١٥٨٢: مدينة المكسيك

- مالون جلد المبحر؟ -

يتقدّم المصباح منتهاكاً الظلمة مقتلعاً منها وجوه الأشباح وأيديها ويثبتها إلى الجدار بالمسامير.
لا يلمس المسؤول شيئاً، يخبىء يديه المقترنتين تحت رداءه. عيناه نصف مغمضتين وكأنه
خائف أن تنتقل العدوى إليهما. لقد جاء ليشرف على تطبيق النظام الجديد في مستشفى سان
باولو. أمر نائب الملك ألا يختلط المرضى الذكور، وأن يُوضَعَ البيض والهجمن في غرفة واحدة وأن
يوضع السود والخلاسيون في غرفة أخرى والهنود في غرفة منفصلة. ويأمر أن توضع جميع النساء
مهما كانت وضعيتهن أو لونهن في غرفة واحدة.

١٥٣٨ : كوبا كابانا

- أم الإله أيهارا -

يعبران بحيرة تيتيكاكا في قاربٍ مصنوع من عشب التيغا. تسافر معه مرتدية ثيابَ الإحتفال. مؤه رداؤها، بالذهب في مدينة لاباز. حين يصلان يضع رداءه عليها ليقبها من المطر ثم يدخلان إلى قرية «كوباكابانا». كان المطر يلسع الحشود التي جاءت لتستقبلهم. يدخل فرانسيسك تيتو يوبانكوي معها إلى المعبد ويزيل غطاءها. يأخذها إلى المذبح تعانقهم عذراء «كوباكابانا» جميعاً من مكانها المرتفع. ستحمي البشر من الطاعون والحزن وطقس شهر شباط السيء.

صاغها النحات الهندي في بوتوسي اشتغل عامين ليمنحها الجمال اللائق بها. على الهنود أن يرسموا أو ينحتوا صوراً تحاكي النماذج الأوروبية فقط ولم يرغب فرانسيسك تيتو يوناكوي أن ينتهك الحظر. لقد نوى أن يصنع عذراء مماثلة لسيدتنا في «كانديلاريا»، إلا أن يديه صاغتا هذا الجسد الآندي ذا الرثتين الكبيرتين الجائعتين للهواء والجمجمة الكبيرة والرجلين القصيرتين والوجه الهندي العريض الذي يحتوي شفتين مكتنزتين وعينين لوزيتين تحدقان بحزن نحو الأرض المصابة بالكدمات.

١٥٨٣ : سانتياغو - تشيلي

: كان حراً لوهلة -

يحاول أن ينهض مستنداً على يديه إلا أنه يسقط على وجهه. يحاول أن يتكىء على مرفقه فينزلق. يحاول أن يقدم ركبته فيغوص في الوحل. كان يبكي تحت المطر دافئاً وجهه في الوحول. لم يبك هرناندو مارافيللا حين جُلد بالسوط مائتي جلدة وهو يُجرّ في شوارع ليما إلى المرفأ، ولم تُلَمَح دمة واحدة على وجهه حين جُلد مائتي جلدة في سانتياغو. يسوطه المطر الآن مستخلصاً الدم الجاف والوحول. قالت له مالكته الأرملة دونا أنطونيا نابيا منذ زمن طويل حين أحضروا العبد الهارب إليها: «أيها الحقير، هكذا تعضّ اليد التي تغذيك!». هرب هرناندو مارافيللا لأنه شاهد في أحد الأيام امرأة جميلة كصورة ولم يقدر على مقاومة اللحاق بها.

قبضوا عليه في ليما وحققت معه محكمة التفتيش وحُكم عليه بأربعمئة جلدة لأنه قال إن الشيطان هو الذي يُرتبُ الزواج وأن الأسقف لايساوي شيئاً وأنه يتبرز عليه.
هذا الذي ولد في أفريقيا حفيداً لطبيبٍ وابناً لصيادٍ يلتف على نفسه ويبكي. كان جلده ينسلخ بينما المطر ينهمر على سانتياغو.

١٥٨٣ : ثلاثيلوكو

- ساهاغن -

تغني الحمامة المطوقة.
تقدّم امرأة الأزهار إلى حجر حُطّم إلى قِطْع. تقول المرأة للحجر: «إلهي! كم عانيت يا إلهي!».
يدلي الحكماء العجائز المحليون بشهاداتهم لفراي برناردينو دي ساهاغن متوسلين: «دعنا نموت بما أن آلهتنا ماتت».

فراي برناردينو دي ريبيرا الذي ولد في ساهاغن: ابن القديس فرانسيس، حافي القدمين ويلبس رداءً كهنوتياً مرقعاً، الذي يبحث عن الفردوس وعن ذاكرة المتهورين، سافر أكثر من أربعين عاماً عبر المكسيك وإقطاعية ويهوسينكو وتولا وتولتيكس وعبر منطقة تيهوكو لينقذ صور وكلمات الزمن الماضي. أنقذ ساهاغن ومساعدوه الشبان في كتاب التاريخ العام لإسبانيا الجديدة الذي يتألف من إثني عشر مجلداً أصوات الهنود القديمة ومهرجاناتهم وطقوسهم وآلهتهم وطريقتهم في حساب مرور الأعوام والنجوم وأساطيرهم وقصائدهم وطبهم وحكاياتهم عن العصور الغابرة وعن الغزو الأوروبي. إن التاريخ يغني في هذا العمل الأول العظيم للأنثروبولوجيا الأميركية.
أمر الملك فيليب الثاني منذ ستة أعوام بالإستيلاء على هذه المخطوطات المحلية التي ترجمها ساهاغن ونسخها كي لا يبقى لها أي أثر. أين انتهت هذه الكتب التي قيل إنها تُخلدُ وتنشر عبادة الأوثان؟ لأحد يعرف. لم يستجب مجلس الأنديز لتوسلات المؤلفين والناسخين اليائسة. ما الذي فعله الملك بأربعين عاماً من حياة ساهاغن وبقرنٍ عديدةٍ من حياة المكسيك؟^٩ يقولون في مدريد إن الصفحات استخدمت لتعليب التوابل.

لايستسلم العجوز «ساهاغن». في سن الثمانين. يتشبّث ببعض الأوراق التي أنقذت من الكارثة ويُملي على طلابه في ثلاثيلوكو السطور الأولى من عمل جديد سيدعى فن الكهانة فيما بعد سيذهب ليعدّ تقويماً مكسيكياً كاملاً. حين ينهي التقويم يبدأ بتأليف قاموس ناهواتلي - إسباني لاتيني. وبعد القاموس...

في الخارج تعوي الكلاب خائفة من المطر.

١٥٨٣ : آكوما

- مملكة سيبول الحجرية -

استجاب الكابتن أنطونيو دي أسبيخو الذي صنع ثروة سريعة على حدود المكسيك لدعوة سيرانة^(١) مدن الذهب السبع فقام على رأس بعض الخيالة المحاربين برحلة (أوديسة) إلى الشمال، وبدلاً من مملكة سيبول الخرافية عثر على صحراء شاسعة تتناثر فيها أحياناً بعض القرى على شكل حصون. لم يكن هناك أحجار ثمينة تتدلى من الأشجار لأنه لم يكن يوجد أشجار إلا في الأودية النادرة، ولم يكن هناك توهج ذهبي سوى ذلك الذي كانت الشمس تستخرجه وهي تضرب الصخور بقسوة.

نصب الإسبان علمهم في تلك القرى ومايزال الهنود لا يعرفون أنهم سيُجبرون حالاً على تغيير أسمائهم وبناء معابد لعبادة إله آخر رغم أن الروح العظيمة قالت لهم في الماضي أن سلالة جديدة، سلالة ذات السنة مثل الشوكة، ستصل جالبة معها الجشع والخيلاء. يقدم الهنود للكابتن أسبينو الذرة والكعك والديكة والجلود ويرحب به سكان الجبال العليا ويحضرون الماء والذرة.

فيما وراء ذلك يحلق حصن بُني من الطين والصخور في السماء الأرجوانية. من حافة الهضبة تهيمن قرية الآكوماز على الوادي المخضر. بحقول الذرة التي ترويهما الأقنية والسدود. الآكوماز، أعداء النافاخوس مشهورون بوحشيتهم. حتى فرانسيسكو فاسكويز دي كورنادو الذي جاء إلى هنا منذ أربعين عاماً لم يتجرأ على الإقتراب منهم.

يرقص الآكوماز على شرف أسبيخو ويضعون عند قدميه الثياب الملونة والديكة، قرون الذرة وجلود الأيائل.

بعد بضعة سنوات يرفضون دفع الجزية. سيستمر الهجوم ثلاثة أيام وثلاث ليال، ستقطع رجل لكل من بقي على قيد الحياة بضربة فأس واحدة وسيُرمى الزعماء من فوق الجرف.

- الخنية الليل، قصيدة نافاخوسيه -

أيها المنزل المصنوع من الفجر
أيها المنزل المصنوع من ضوء المساء
أيها المنزل المصنوع من سحابة داكنة

(١) - السيرانة: واحدة من مجموعة كائنات أسطورية لها رؤوس نسوة وأجساد طيور كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك.

يامن يوجد على بابه سحابة سوداء.
تتدلى منها خيوط سوداء...
والذي يقف البرق فوقه
أتمنى أن أمشي سعيداً
أتمنى أن أمشي سعيداً مع شلالات كثيرة
أتمنى أن أمشي سعيداً مع نباتات كثيرة
أتمنى أن أمشي سعيداً على خط اللقاح
أتمنى أن أمشي سعيداً
ويكون جميلاً ما ينتظرني
ويكون جميلاً ما خلفته وراني
ويكون جميلاً ما هو فوقني
وما هو تحتي
وما هو حولي
ويصبح الجمال غاية كل شيء.

١٥٨٦ : كوري

- الطاعون -

لا تلمع الأنفلونزا كالسيف الفولاذي، لكن لا يستطيع أي هندي أن يتفادها. يقتل الكزاز
والتيفوئيد من الناس أكثر مما يستطيع ألف من الكلاب الرمادية التي لها أعين نارية ومخالب
مزبدة أن تقتل.
يهاجم الجدري بشكل سري، أما البندقية فتهاجم بصوت صاحب وسط غيوم الشر والدخان
الكبريتي، لكن الجدري يدمر الهنود أكثر مما تدمرهم البنادق.
إن رياح الطاعون تدمر هذه الأقاليم، تضرب البشر وترميهم أرضاً تلتهم أجسادهم، تأكل
أعينهم وتغلق حناجرهم وتفوح من الجميع رائحة التعفن.
يرن في هذه الأثناء صوت غامض فوق البيرو. يدوس على الطاعون ويخترق ابتهالات الذين
يحتضرون، يقول هذا الصوت الذي يهمس من أذن إلى أخرى: «كل من يرمي الصليب خارج بيته
سيعود من الموت».

١٥٨٨ : كويتو

- حفيد آتاهوالبا -

تتعرّق الأعمدة والأرابيسك والزخارف ذهباً. يصلّي القديسون والعذراوات المعبودات اللواتي يرتدين أردية ممّوهة وكورس الملائكة ذات الأجنحة الذهبية الصغيرة ذهباً: هذا واحدٌ من المنازل التي تقدمها كويتو له، هذا الذي ولد في بيت لحم منذ قرون في معلف تبين ومات عارياً. تمتلك عائلة الملك آتاهوالبا مذبحةً في كنيسة فرانسيس هذه، في مكان الشرف، في جناح الكنيسة العظيم قرب المبشّر. يرتاح الموتى عند قدم المذبح. يشغل المدفن الرئيسي ولد آتاهوالبا الذي عُمدَ باسم فرانسيسكو مثل والده وقاتل والده. كان يجب على الله أن يحفظ العظمة للكابتن فرانسيسكو آتاهوالبا لو كان يصغي، كما يقولون، لوجهات نظر القادة بانتباه أكبر من الذي يمنحه لصرخات المَقُودين عرف ابنُ الملك كيف يقمع الانتفاضات المحلية في الجنوب. أحضر إلى كويتو كأسرى زعماء كارناريابامبا وكويس وكوفىء بمكتب مدير هذه المدينة للشؤون العامة. جاءت بنات فرانسيسكو وبنات أخيه ليضعن صورة القديسة كاترين التي نحتها نحاسٌ من طليطلة يُدعى خوان بوتيسا فاسكويز في مكان مرتفع على مذبح آتاهوالبا. أرسل الصورة من إسبانيا ألونزو، ابن فرانسيسكو وماتزال الأسرة لا تُدرِك أن ألونزو مات في مدريد بينما كانت القديسة كاترين تعبر المحيط لتصل إلى هذه الكنيسة. مات ألونزو آتاهوالبا حفيد الملك في السجن. كان يستطيع العزف على القيثارة والكمان وموترة المفاتيح. كان يرتدي فقط الملابس الإسبانية التي يُفصلها أفضل الخياطين، ولم يدفع أجرة منزله لوقتٍ طويل. لا يُسجنُ السادة بسبب الديون إلا أن ألونزو ذهب إلى السجن بعد أن شجبه أفضل الخياطين في مدريد وتجار الجواهر وصانعو القبعات والقفازات. ولم يدفع للمنحوتة التي تضعها الآن أسرته بين الأكاليل الذهبية على المذبح الممّوه بالذهب.

١٥٨٨ : هافانا

- القديس مارشال يحارب النمل -

يستمر النمل المفترس في قتل البشر وتهديم الجدران. يقطع الأشجار ويلتهم المزارع والفاكهة والذرة ولحم الشاردين. وبسبب عدم فعالية راعي الأبرشية القديس سيمون ينتخب مجلس المدينة جماعياً حامياً آخر. تعبدُ المدينة بأن تحتفل بيومه في كل عام. إن القديس مارشال هو الدرع الجديد لهافانا الذي يحميها من النمل المفترس. يُعرّف القديس مارشال الذي كان أسقفاً «الليموغس» منذ ثلاثة قرون كأخصائي، ويقال إن نفوذه كبير عند الله.

١٥٨٩ : كوزكو

- يقول إنه امتلك الشمس -

مُتَّصِلًا تحت الأغطية يُخَفَّفُ مانسيو سيرا دي لوكويزامو الحمل عن ضميره. يملي أمام الكاتب بالعدل ويُقسم: «إننا اكتشفنا هذه المناطق في ظرفٍ كهذا حيث لم يَكُنْ يوجد في أيٍّ منها لصٌ واحد أو رجلٌ شريرٌ أو عاطلٌ عن العمل ولم يكن توجد امرأة فاسقة أو سيئة...».

لا يريدُ ضابط بيزارو العجوز أن يرحل من هذا العالم دون أن يقول للمرة الأولى: «إن الأراضي والجبال والمناجم والمراعي وأراضي الصيد والغابات وجميع المصادر حُكمت أو قُسمت بطريقة عرفها الجميع وحصلوا على ملكيتهم دون أن يحتلها أو يأخذها أي شخص آخر...».

إن دون مانسيو هو آخر المتبقين على قيد الحياة من الجيش الذي غزا البيرو. كان منذ أكثر من نصف قرن أحد أولئك الذين غزوا مدينة «كوزكو» المقدسة وسرقوا كنوز مقابرها ومنازلها وهدموا أعمدة معبد الشمس المزين بالذهب التي كان تألقها يجعل أي شخص يدخل يبدو كجثة. يقول إنه تلقى الجزء الأفضل من الغنيمة: حصل على وجه الشمس الذهبي الكبير ذي الأشعة النارية وألسنة اللهب، التي غزت المدينة وأعمت سكان كوزكو عند ساعة الفجر.

رهن دون مانسيو الشمس في لعبة ورق وخسرها في ليلة واحدة.

١٥٩٢ : ليما

- إحراق المهرطقين في ليما -

تحمل الريح رماد ثلاثة لوثريين إنكليز أسروا في جزيرة بونا. أحرق أحدهما ويدعى هنري أوكسلي حياً لأنه لم يتخلَّ عن دينه.

يلتفُّ الدخان صاعداً من وسط دائرة محاطة بالرماح الطويلة بينما يزداد الحشد احتياجاً ومحكمة التفتيش تقرأ أحكاماً بالجلد والآلام الأخرى والإذلال.

عوقب كثيرون لأنهم تزوجوا مرتين أو بسبب الجماع وجرائم أخرى متعلقة بالآثام الجسدية. وحُكم على راهب دومينيكاني وآخر فرانسيسكاني وآخر أوغسطيني وآخر جزويتى بتهمة إغواء الراهبات. وحُكم على الجندي خوان ديپورتيلو لأنه أقسم بأذني الله. حُكم على إيزابيل دي أنكولو وهي زوجة جندي بتهمة أنها قرأت كلمات التكريس بصوت منخفض كي يرغب بها الرجال. وحُكم على البحار بارتولومي ديلاغاريس لأنه أكد أنه لا يوجد إثم كونه يدفع مقابل الجنس وهو عازب. حُكم على الحلاق لورنزو ديلابينو لأنه قال حين احتل أحدهم مقعد زوجته في الكنيسة: «إذا كانت هذه هي الطريقة المتبعة فهذا يعني أنه لا يوجد إله».

حكم على بدرو لويس أنريكويز، من مدينة سيفيل، بالسجن لمدة عشرة أعوام لأنه أكد أنه إذا أخذ المرء ديكاً إلى حقل يخلو من أصوات الكلاب في منتصف الليل وقطع رأسه فإنه سيعثر على حجرة صغيرة، بحجم حبة بندق وإذا حك شفتيه بها هذا سيجعل المرأة الجميلة الأولى التي يصادفها تموت من الحب ولأنه أكد أنه إذا قتل المرء هرة في شهر كانون الثاني ووضع حبة لوبياء في كل مفصل منها ودفنها، فإن حبات اللوبياء التي تنمو منها تجعل كل من يتذوقها وهو ينظر في المرأة لامرئياً ولأنه قال أيضاً إنه كان شخصاً فظاً ومعالجاً وعلامة على ذلك كان يضع صليباً على صدره وآخر في سقف حلقه ولأنه ادعى أنه شاهد في السجن عجائب وشم أطيّب العطور.

١٥٩٣: كوارابابي

- أنشييتا -

أشار «إغناسيو دي ليولا» إلى الأفق وأمر: «اذهب وأضرم النار في العالم». كان خوسيه آنشييتا أصغر الرسل الذين أحضروا رسالة يسوع والأخبار الطيبة إلى غابات البرازيل. بعد أربعين عاماً يلقبه الهنود كارايبيبي، الرجل المجنح، ويقولون إنه حين يرسم علامة الصليب يوقف العواصف ويحوّل الأسماك إلى لحم خنزير والرجل الذي يحتضر إلى بطل. تهبط ملائكة من السماء لتعلن له عن وصول المراكب الشراعية أو عن هجوم الأعداء. يرفعه الله عن الأرض حين يصلي. جسده النحيل الذي يحرقه قميصه النسيجي يصدر الأشعة حين يجلد نفسه متقاسماً العذاب مع ابن الله الوحيد.

ستشكره البرازيل بسبب معجزاته. من يد هذا القديس ذي الثياب البالية جاءت القصائد الأولى التي كتبت على هذه الأرض والقواعد اللغوية التوبية — الكوارانية الأولى والمسرحيات الأولى، ومسرحيات الأسرار المقدسة المكتوبة باللغة الفطرية، والتي تنقل الإنجيل مازجة الشخصيات المحلية بالأباطرة الرومانيين والقديسين المسيحيين. كان آنشييتا أول مدرس وطبيب ومكتشف ومؤرخ لحيوانات ونباتات البرازيل في كتاب يخبرنا كيف يغيّر الكواراس لون ريشه وكيف تبيض «البببوا» في الأنهار الشرقية وكيف يعيش الشيهم^(١).

يتابع في سن الستين تأسيس المدن وبناء الكنائس والمستشفيات ويحمل على كتفيه النحيلين الألواح الخشبية الثقيلة مع الهنود. يبحث عنه البشر والطيور كأنهم ملهمون بنورانيته المتواضعة والنظيفة. يمشي فراسخ عديدة دون أن يتذمر أو أن يسمح لهم بأن يحملوه في الشباك عبر هذه الأقاليم حيث يمتلك الجميع لون الحرارة ويتأكلون في لحظة ليولدوا ثانية، الفاكهة التي صارت عسلاً، الماء، الموت، بذار الفاكهة الجديدة: الأرض تغلي، البحر يغلي على نار بطيئة، وأنشييتا يكتب على الرمل بعصاه أشعاره لخالق الأبدية.

(١) - الشيهم: حيوان شائك من القوارض.

١٥٩٦ : لندن

- رالي -

السير والتر رالي، مدير التبغ والصانع العسكري المغرور ينفث ثعابين دخان من أنفه وحلقات ودوائر دخانية من فمه وهو يقول: «إذا قطعوا رأسي فسيستط سعيدياً وجليوني بين أسنانه؟». يعلق صديقه: «ستنتن».

لم يكن يوجد في البار سوى عبد أسود صغير ينتظر صابراً في الزاوية. يروي رالي كيف اكتشف الجنة الأرضية العام الماضي في غويانا هناك، حيث تختبئ الدورادو. يعلق شفثيه متذكراً طعم الفاكهة وبيض الإغوانة ثم يغمض عينيه واصفاً فاكهة وأوراقاً لا تسقط أبداً عن رؤوس الأشجار. يقول: «اسمع يا أخي، إن مسرحيتك عن العشاق الشباب... نعم، تلك، التي تدور أحداثها في فرج الغابة، إنها مذهشة. تدور أحداثها في فيرونا وتفوح برائحة القفص. لقد اخترت الخلفية الخاطئة يا عزيزي، ذلك الهواء، هناك...».

يعرف صديق رالي، الأصل ذو العينين اللعوبتين أن غويانا هي مستنقع حيث السماء سوداء دائماً بسبب البعوض، إلا أنه يصغي صامتاً ويوافق لأنه أيضاً يعرف أن رالي لا يكذب.

١٥٩٧ : سيفيل

- مشهد في السجن -

جرحه الأتراك. هاجمه القراصنة وجلده المغاربة. حرمه القساوسة من الكنيسة. سجن في الجزائر وفي كاسترو ديليريو. والآن هو سجين في سيفيل. جالساً على الأرض قرب الفراش الحجري يغمس قلمه في المحبرة ويتساءل. عيناه مثبتتان على لهب الشمعة ويده الطيبة متوازنة في الفراغ.

هل للإلحاح قيمة؟ ما يزال جواب الملك فيليب مؤلماً، حين طلب منه وللمرة الثانية عملاً في أميركا: «ابحث عما يناسبك هنا». وإذا كانت الأشياء قد تغيرت منذ ذلك الوقت، فإنها تغيرت نحو الأسوأ. كان يمتلك سابقاً أمل الإستجابة على الأقل. إلا أن الملك المؤتزر بالسواد والمفصول عن العالم لم يعد منذ ذلك الوقت يتحدث مع أحد سوى مع أشباحه داخل جدران الأسكوريال.

ميغيل دي سرفانتس وحيد في زنزانته ولا يكتب للملك... ولا يطلب العمل في أي مكتب فارغ في الأنديز. يبدأ على صفحة بيضاء برواية مصائب شاعر فارس، أحد أولئك الفرسان الذين يمتلكون رمحاً مرمياً في المعلق وسيفاً صدئاً ودرعاً مهترئاً وجواداً ضعيفاً وكلباً جباناً.

ترن أصوات كثيفة في السجن لكنه لا يسمعها.

١٥٩٨ : بوتوسي

- قصة فلوريانا روزاليس امرأة بوتوسي الطاهرة -

(معرض موجز للقصة نقله بارتولومي أرزانس أورسواري فيلا)

عمدوها باسم فلوريانا بسبب جمالها العظيم الذي بدا منذ أن ولدت كزهرة جميلة ورشيقة ولأن اسم والدتها كان آنا.

كانت الشابة المدهشة التي ربيت على الفضيحة في عزلة المنزل تتجنب أن ترى أحداً أو يراها أحد إلا أن هذا أشعل رغبات طالبي يدها الذين أحاطوا بها منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها. كان الأكثر نجاحاً في متابعة طلب يدها دون خوليو شانسير مالك النجم والكابتن رودريغو دي ألبوكويركي وحاكم توكومان الذي مرّ من هنا في طريقه إلى «ليما» وترى في بوتوسي بعد أن شاهد فلوريانا في الكنيسة.

بدافع من الضغينة المحضة ولأنه رُفِضَ، يتحدّى حاكم توكومان والد فلوريانا في مبارزة ويجرحان بعضهما قرب نبع إلى أن تفصل بينهما بعض السيدات من اللواتي لم تنقصهن الشجاعة.

احترقت فلوريانا غضباً من رؤية والدها مجروحاً وقررت أن تنتقم بيدها. أرسلت تخبر الحاكم أنها ستنتظره مساء غد في حانوت معين حيث ترغب بالتحدث معه دون أن يراها أحد. ارتدى الحاكم أفضل ثيابه حتى بدا فارغاً ومزهواً بإفراط وكانت هذه رذيلة سيئة في الرجال الذين درسوا في مدرسة «هليوغا بالوس» الذين قال عنهم «هيريديانو» أنه احتقر الملابس الصوفية الرومانية واليونانية وارتدى ألواناً ذهبية وأرجوانية مزينة بالأحجار الثمينة على النمط الفارسي، كما يذكر «لامبرايديو». وصل الحاكم بثيابه الأنيقة في الوقت المحدد حيث ظهرت فلوريانا حاملة معها بين الأزهار الجميلة أفعى غضبها السامة. أخرجت من كمها موسى حاداً واندفعت إليه كلبوة لتقطع وجهه وهي تصب لعناتها عليه. تجنب الحاكم الموسيقى بيده وأشهر، خنجراً. متيقظة للخطر، القت فلوريانا على وجهه كومة من الملابس ثم أمسكت بيديها عصا كبيرة وختمت على قدره. لقد ضربت الحاكم ضربة بطحته أرضاً.

حاول والدا فلوريانا المهمومان والخائفان، أن يخبأها في منزلهما إلا أن هذا كان مستحيلاً، إذ جاء الحاكم والسلطة القضائية العليا والشرطة راكضين ولم يكن أمام فلوريانا من بديل سوى أن تصعد إلى غرفتها وترمي نفسها من النافذة إلى الشارع. شاء الله أن تعلق تنورتها بنتوء من إطار النافذة فعلقته به ورأسها متدل إلى الأسفل.

أخبرت الخادمة دون سانشيز فارفان الذي كانت تعرفه وتعرف أنه يحب سيدتها أن يذهب إلى الزقاق خلف المنازل ليرى إذا كانت فلوريانا هناك لأنها رمت نفسها لتوها من النافذة. ولكن حين شاهد الكابتن رود ريغو دي آلبوكويركي دون خوليو يتحدث بشكل سري مع الخادمة تبعه إلى الزقاق.

وصل دون خوليا حين كانت فلوريانا متدلية وهي تتوسل طالبة المساعدة وقد امتلكها الخوف وصارخة أنها تختنق. اقترب حبيبها الفارس ومد ذراعيه وأمسكها من كتفيها ودفعها بقوة ساقطاً معها على الأرض.

في هذه اللحظة جاء الكابتن رود ريغو متفوهاً بكلماته الغرامية ثم غطى فلوريانا بردانه ورفعها. حين شاهد دون خوليو ذلك اعتملت فيه الغيرة فنهض وطعن الكابتن بخنجره قائلاً له إنه خائن وضيع. سقط الكابتن إلى الأرض بجرح مهلك في صدره وبدأ يتوسل طالباً الإعراف، حين سمعت فلوريانا ذلك لعنت قدرها ومصائب شرفها ورحلت بسرعة كبيرة.

ارتدت فلوريا ثياباً هندية لتهرب من بلدة «بوتوسي» ولكن حين كانت على وشك امتطاء بغل، يُبلِّغ أحدهم الحاكم فيجيء إلى المكان ليزجهاً في السجن. حين شاهد الحاكم فلوريانا اخترق الطفل الأعمى الذي يدعى كيوبيد قلبه بسهم مريع. أمسكها من يديها لاهثاً وحملها إلى القصر.

في الساعة العاشرة من تلك الليلة، أي في الساعة التي كان عليها أن تدخل فيها إلى غرفة الحاكم ربطت فلوريانا حبلاً إلى الشرفة وهبطت إلى يدي خوليو الذي كان ينتظرها في الأسفل. طلبت الشابة من دون خوليو قبل أن تتحرك خطوة واحدة أن يقسم أن لا يمس طهارتها.

وحين اكتشف أمر هربها وأحدق بهما الخطر حمل دون خوليا فلوريانا على كتفيه وركض بها إلى ساحة ديل غاتو البعيدة. طار فوق الأحجار والوحد تحت سيل من التعرق وحين استطاع أخيراً أن يجلس ليستريح، وبعد أن أنزل فلوريانا عن ظهره انهار فجأة.

ظانة أنه أغمي عليه وضعت رأس دون خوليو في حضنها، وبعد أن اكتشفت أنه مات قفزت مرعوبة وهربت إلى «سان لورينزو» في شهر آذار من عام ١٥٩٨.

بقيت هناك مختبئة وقررت أن تحافظ على طهارتها الدائمة وأن تستمر إلى نهاية عمرها خادمة مطيعة لله.

- دوبيتات^(١) إسبانية للغناء والرقص -

رأيت رجالاً يعود إلى الحياة
بعد أن تلقى ألف طعنة رمح

(١) - الدوبيت: مقطع شعري مؤلف من بيتين.

وفيما بعد رأيتَه يموت
من نظرة واحدة فقط.

في أعماق البحر
تنهد حوت مراراً
فروت تنهداته هذه الحكاية:
إن من يحب، يتألم.

أريد اليوم أن أغني
لأن الأقدار ستجلب الدموع
إلى عيني غداً.

١٥٩٨ : مدينة بنما

- أوقات النوم والقدر -

يريد سيمون توريس، صيدلي بنما، أن ينام إلا أنه لا يستطيع أن يزحزح عينيه عن ثغره في السقف. كان جفناه ينفتحان ويحدقان بالثغرة كلما أغمضهما. يشعل سيمون غليونيه ويدخن محاولاً أن يبعد البعوض بالدخان وبيده. يلتف ويتقلب مبللاً ومحترقاً في الفراش الذي التوى من جراء الصدمة التي تعرض لها في ذلك اليوم. تغمزه النجوم عبر الفتحة ويود أن يتوقف عن التفكير، وهكذا تمر الساعات إلى أن يصيح الديك إما ليعلن عن النهار أو ليدعو الدجاجات.

منذ اسبوع نزلت امرأة من السقف وسقطت على سيمون.

تلعثم الصيدلي: «من، من، من أنت؟».

قالت وهي تمزق ثيابها: «لأنتملك وقتاً طويلاً».

نهضت في الصباح متألقة ومتألثة وارتدت ثيابها بسرعة كبيرة.

- «إلى أين أنت ذاهبة؟».

- «إلى نومبر دي ديوس. تركتُ الخبز هناك في القرن».

صرخ الصيدلي: «إلا أنه يبعد عشرين فرسخاً».

صححت له: «ثمانية عشر فقط». وقبل أن تختفي قالت له: «كن حريصاً على نفسك. كل من

ينام معي يفقد ذاكرته».

١٥٩٩ : كويتو

- هنود أزهيرالداس الذين هم من أصل أفريقي -

يبقون مستيقظين، لا يغمض لهم جفن. يمتلئون بالشكوك. هذه الفرشاة التي تسرق صورتهم، ألن تسرق أرواحهم منهم؟ الفرشاة سحر مثل المرأة، وتمتلك الناس كالمرآة.

يجبرهم البرد المرعب لكويتو على السعال بين فينة وأخرى ويزار الفنان بهم. متعبين وشبه مختنقين من الأطواق يستأنفون وضعياتهم ويبقون متقلبين إلى أن يعطسوا ثانية. جاؤوا إلى هذه المدينة منذ بضعة أيام وما يزالون لا يستطيعون أن يفهموا لماذا جاء هؤلاء البشر الأقوياء ليعيشوا في مكان بارد كهذا ولماذا تمتلك المنازل أبواباً ولماذا تحتوي الأبواب أقفالاً ومصاريع.

دفعت العاصفة منذ نصف قرن، سفينة إلى الصخور الساحلية، قرب فم نهر، أزهيرالداس. كان يوجد في السفينة عبيد من غينيا سيباعون في ليما. انطلق السود وضاعوا في الغابات. بنوا القرى وأنجبوا أطفالاً من النساء المحليات وتكاثر هؤلاء الأولاد. من بين الثلاثة الذين يرسم صورتهم الآن أندريه سانشير كاليك، يوجد إثنان ولدا من ذلك التمازج الأفريقي مع النساء الإكوادوريات. أما الثالث، فرانسييسكو دي آروبي فقد جاء من غينيا. كان عمره عشرة أعوام حين تحطمت السفينة.

ألبسوا ثياب السادة: أردية وعباءات، أكماماً مخرمة وقبعات كي لا يتركوا انطباعاً سيئاً لدى الملك حين يتلقى في مدريد صورة أملاكه الجديدة، البرابرة الذين كانوا لا يقهرون حتى هذا الوقت. وضعت رماح في أيديهم وعقود من الأسنان والأصداف على ثيابهم الإسبانية ووضعت على وجوههم تزيينات ذهبية تخترق آذانهم، ومناخيرهم وشفاههم.

١٥٩٩ : نهر شاكيريز

- الحكماء لا يتحدثون -

هذا هو الطريق الأكثر إشعاعاً على الأرض. من البحر إلى البحر تنطلق قافلة الفضة الطويلة. خطوط لاتحصى من البغال تحمل عبر الغابة معادن بوتوسي في طريقها إلى السفن الشراعية المنتظرة في بورتوبيلو.

تواكب قروود صغيرة قافلة الفضة عبر بنما وهي تصرخ دون توقف ساخرة من البغالين وتقذفها بثمار الغوافة.

كان فراي ديبغو دي أوكانا يراقبها بإعجاب من ضفة نهر «شاكريز». لكي تعبر النهر، تشكل القروء سلسلة تبدأ من الشجرة وكل واحد منها يمسك الآخر بذيله إلى أن تتأرجح السلسلة وتجمع القوة التي تقذفها بعنف إلى أعلى أغصان الضفة الأخرى.

يجيء إليه هندي من البيرو يحمل متاعه ويقول له: «أيها الأب، إنهم بشر. إنهم لا يتحدثون كي لا يلاحظ الإسبان ذلك لأنهم إذا عرفوا ذلك سيرسلونهم إلى العمل في المناجم».

١٥٩٩: لا امبريال

- سهام اللهب -

ينشب التمرد على شواطئ المحيط الهادئ وتهز الأصداء سلاسل جبال الأنديز.

جاء غارسيا أونيز ليولا ابن أخ القديس أغناطيوس إلى هنا من البيرو وهو مشهور بأنه صياد لا يكلّ وقاتل محترف. هناك أسر توباك أومارو، آخر الأنكيين، ثم عينوه حاكماً على تشيلي ليروض الآروكانيين. هناك قتل الهنود وسرق الخراف وأحرق المحاصيل دون أن يترك نبتة واحدة. الآن يعرض الآروكانيون رأسه على رمح.

يستعمل الهنود عظام المسيحيين كأبواق تعلن الحرب بأقنعة حربية ودروع جلدية، تدمر خيالة الآوركانيين الجنوب. تسقط سبع بلدات واحدة بعد أخرى تحت مطر السهام النارية. هكذا يصبح المصطادون صيادين. يحاصر الآروكانيون «لامبريال» ويغيرون مجرى النهر ليقطعوا عنها الماء.

تستعيد نصف مملكة تشيلي وكلّ المناطق الممتدة إلى جنوب بيو - بيو هويتها الآروكانية.

يقول الهنود وهم يشيرون إلى الرمح: «هذا هو سيدي وهو لن يأمرني بأن أحفر بحثاً عن الذهب أو أن أحضر الأعشاب للمواقد ولا أن أعتني بالقطيع أو أبذر أو أحصد. أريد أن أبقى مع هذا السيد».

١٥٩٩: سانتا مارتا

- يشنون الحرب ليهارسوا الحب -

ينشب التمرد على شواطئ الكاريبي وتهز أصداءه سيرا نيفادا. ينتفض الهنود من أجل حرية الحب.

في مهرجان البدر ترقص الآلهة في جسد الزعيم «سوشاسيك» وتعير ذراعيه السحر. أصوات الحرب المتصاعدة من قرى «جريبوكا» وبوندا توقظ أرض التيرونا كلها وتهز «ماسينغا» وماسينغويلا

وزاكا ومازاكا وبوريتاكا وبيتراما وماروما وتيرونكا وكواتشاك وتشوينكا وسينتو ونهوانجي وماماتوكو وسينناغا ودورسينو وغيراكا وأرويغواو دوراما ويبوكاكا ودونا وتشينغ وماساكا ودوداما وساكاسا وكومينكا وغوارينا وموراكاتاكا وشوكوينكا وماسانغا.

يرتدي الزعيم «سوشاسيك» جلد يغور. بالسهم الصافرة والسهم الحارقة والسهم السامة يحرق التيرونيون المعابد ويكسرون الصلبان ويقتلون الرهبان. يقاتلون ضد عدو الإله الذي يحظر عاداتهم.

منذ زمن موغل في القدم، كان أي شخص في هذه الأراضي يرغب بالطلاق يحصل عليه، وكان الأقرباء يمارسون الحب إن أرادوا ذلك، رجلاً مع رجل وامرأة مع امرأة أو رجلاً مع امرأة إلى أن جاء الرجال الذين يرتدون الحديد، أولئك الذين رموا إلى الكلاب كل من أحب كما كان أسلافه يفعلون.

يحتفل التيرونيون بانتصاراتهم الأولى، يعزفون في معابدهم التي يسميها العدو منازل الشيطان على المزمار المصنوع من عظام المهزومين ويشربون خمرة الذرة ويرقصون على قرع الطبول وإيقاع الأبواق الصدفية. يغلق المحاربون جميع المرات والطرق المؤدية إلى سانتا مارتا ويجهزون للهجوم الأخير.

.. ١٦ : سانتا مارتا

.. كانت لهم بلاد -

تحتاج النار إلى وقت لتشتعل. إنها تشتعل ببطء.

تصرُّ المعادن. يتحرك رجال يرتدون الدروع. لقد فشل الهجوم على سانتا مارتا وأصدر الحاكم أمراً بالتدمير الشامل. وصلت الأسلحة والرجال من «كارتاجينا» في الوقت المناسب وتبعثر التيرونيون الذين أهزلتهم سنوات كثيرة من دفع الجزية والعبودية منهزمين.

أبيدوا بالنار. أحرقت القرى والمزارع وحقول الذرة ومحاصيل البطاطا والنيهوت وبساتين الفاكهة. أحرقت المزروعات المروية التي أبهجت العين ومنحت الطعام والمزارع حيث كان التيرونيون يمارسون الحب في وضح النهار، لأن الأطفال الذين يصنعون في الظلام يولدون عمياناً. كان كل شيء يحترق.

كم من العوالم الكثيرة تضيء هذه النار؟ العالم الذي كان والذي شوهد والعالم الذي كان ولم ير. نفي التيرونيون في نهاية خمسة وسبعين عاماً من التمردات وهربوا إلى الجبال، إلى الأمكنة القاحلة والبعيدة التي تخلو من السمك والذرة. نفاهم الغزاة إلى تلك الأمكنة البعيدة المرتفعة، سيطروا على أراضيهم واستأصلوا ذاكرتهم. وهكذا يمكن أن يطال النسيان في عزلتهم البعيدة

الأغنيات التي غَنَوْها حين عاشوا سوية أحراراً وأقوياء يلبسون أردية قطنية متعددة الألوان وعقوداً ذهبية وأحجاراً مشعة. وهكذا يمكن أن ينسوا إلى الأبد أن أجدادهم كانوا يغاور. يتركون خلفهم الخراب والقبور. تهمس الريح. تهمس الأرواح المعذبة وترقص النار في المسافة.

- تقنيات الصيد -

في أعماق الدغل الأمازوني يجلس صياد من قبيلة «ديزانا» على صخرة مرتفعة ويتأمل النهر. تنحدر المياه حاملة الأسماك والأحجار المصقولة. تنحدر المياه مع ضوء الصباح الأول. يمعن الصياد النظر ويشعر أن النهر القديم يتحول إلى دم يتدفق في شرايينه. لن يصطاد صياد السمك حتى يربح قلوب الإناث من الأسماك.

قريباً منه، في القرية، يستعد صياد آخر. لقد تقيأ واستحم فيما بعد في النهر ونظف نفسه من الداخل والخارج. يشرب عصير النباتات التي لها لون الأيائل بحيث تحبل عطورها جسده ويرسم على وجهه القناع الذي تفضله الأيائل. بعد أن ينفخ دخان التبغ على أسلحته، يمشي بهدوء إلى النبع الذي يشرب منه الأيائل هناك يرش عصير الأنثاس، الذي هو حليب ابنة الشمس. نام الصياد وحيداً في تلك الليالي الأخيرة. لم يعاشر النساء ولم يحلم بهن، بحيث لا يغار الحيوان الذي سيصطاده وسيخترقه برمحه وسهامه.

.. ١٦ : بوتوسي

- العجينة الثامنة للعالم -

تحمل قوافل من اللامات والبغال إلى ميناء «آريكا» الفضة التي نزفتها جبال بوتوسي من أفواهها. بعد رحلة طويلة تصل السبائك إلى أوروبا لتمول الحرب والسلام والتقدم.

تتلقى بوتوسي بدلاً من ذلك، من سيفيل أو عن طريق التهريب خمور إسبانيا قبعات وحرير فرنسا، ربطات ومرايا ونسيج فلاندرز، سيوفاً ألمانية وورقاً جنوبياً وجوارب نيبوليتانية، زجاجاً من البندقية وشمعاً قبرصياً وأماساً سيلانياً ورخاماً هندياً غربياً وعطوراً عربية وملقحة وسجاداً فارسياً وبورسلاناً صينياً وعبيداً سوداً من «كيب فيرد» وأنغولا وخيولاً قوية من تشيلي.

كل شيء مرتفع الثمن في هذه المدينة الأغلى في العالم. فقط شراب الذرة وأوراق الكوكا رخيصة الثمن. يمضي الهنود الذين أسروا بالقوة في البيرو أيام الآحاد في الزرائب ويرقصون على إيقاع الطبول ويشربون «الشيكا» إلى أن يسقطوا أرضاً في صباحات الإثنين يجمعون كالقطيع في الجبل،

يمضغون الكوكا ويضربون بالقضبان الحديدية، ليجثوا عن شرايين الفضة، عن الثعابين الخضراء والبيضاء التي تظهر وتختفي في أحشاء هذا البطن الكبير حيث لا يوجد ضوء أو هواء. يكدح الهنود طوال الأسبوع، هؤلاء السجناء الذين يتنفسون الغبار الذي يقتل الرئات ويمضغون الكوكا التي تخدع الجوع وتقنع الإعياء، ولا يعرفون أبداً متى يخيم الليل أو يبرز فجر إلى أن ينتهي يوم السبت ويرن الجرس من أجل الصلاة ونهاية العمل. عندئذ يتحركون إلى الأمام حاملين شموعاً مضاءة ليظهروا فجر الأحد من الحفر العميقة والقنوات والأروقة اللانهائية.

يشاهدهم قسيس جاء حديثاً إلى بوتوسي يصلون إلى ضواحي المدينة موكباً طويلاً من الأشباح القذرة بظهور جرحتها السياط ويقول: «لأريد أن أشاهد صورة الجحيم هذه».

يقترح عليه أحدهم: «إذا أغلق عينيك».

يقول: «لأستطيع، إذا أغلقت عيني سأرى أكثر من ذلك».

- نبوءات -

تزوَّجا البارحة أمام النار كما تتطلب التقاليد وسمعا الكلمات المقدسة:

لها: «حين يشتعل بنار الحب لا تتحولي إلى جليد».

له: «حين تشتعل بنار الحب لا تكن جليداً».

يستيقظان على وهج النار، يتعانقان ويهنتان بعضهما بعينييهما ويرويان أحلامهما.

أثناء النوم، تسافر الروح خارج الجسد وتعرف في أبدية أو في رقة عين ما الذي سيحدث. يتم تقاسم الأحلام الجميلة، وليتقاسماها يستيقظان باكراً جداً. ترمى الأحلام السيئة، على أية حال، إلى الكلاب.

الأحلام السيئة، الكوابيس المتعلقة بالهاوي والعقبان أو الوحوش يمكن أن تنذر بالأسوأ. والشيء الأسوأ هنا هو أن تجبر على الذهاب إلى مناجم زئبق «هوان كاميليا» أو إلى جبل بوتوسي الفضّي البعيد.

- أنشودة كوزكو -

رغبت لامة
أن يكون لها شعر ذهبي
متألّقا كالشمس
قوياً كالحب

وناعماً كالضباب
يحله الفجر
لينسج صغيرة
يعلم عليها
عقدة بعد عقدة
الأقمار التي تعبر
والأزهار التي تذبل

١٦٠٠: مدينة المكسيك

- عربات -

عادت العربات إلى شوارع المكسيك العريضة بعد أن حظرها منذ أكثر من عشرين عاماً الملك المتقشّف فيليب الثاني. قال المرسوم إن استخدام العربات يحوّل البشر إلى عاطلين عن العمل ويعوّدهم على حياة الراحة والكسل وهكذا يخسرهم العضلات المفيدة في فنون الحرب. وبما أن الملك فيليب الثاني مات الآن، تنتشر العربات ثانية في هذه المدينة. تحوي في داخلها الحرير والمرايا ويزينها في الخارج الذهب ودروع السلاحف وعلى الباب تعلّق شارات الشرف. تنفث عطر الخشب الرائع وتتحرك بنعومة البندول وتهتزّ كالهدى وخلف الستائر يبتسم النبلاء الإستعماريون ويلوحون بأيديهم. على مقعده الرفيع وسط الهدّابات والشرابات الحريرية، تقريباً مثل ملك يجلس الحوذي المحتقر، والأحصنة منعلة بالفضة. ما يزال استخدام العربات محظوراً على الهنود والعاهرات والذين عاقبتهم محاكم التفتيش.

١٦٠١: فال أدوليد

- كوفييدو -

حكمت إسبانيا البرتغال ومستعمراتها عشرين عاماً بحيث استطاع الإسباني أن يمشي على الأرض دون أن تطأ قدمه تربة أجنبية. إلا أن إسبانيا هي أعلى بلد في أوروبا. تنتج دائماً أشياء قليلة ونقوداً كثيرة. من الإسكودات التي تبلغ خمسة وثلاثين مليوناً والتي ولدت منذ ستة أعوام لم يبق حتى ظلّ. إن المعلومات التي نشرها مؤخراً دون مارتين غونزاليس في كتاب يدعى رسالة في السياسة الضرورية، غير مشجعة: بعامل من الصدفة أو الوراثة، كل إسباني يعمل يحصل على

ثلاثين إضافية. أما الذين يحصلون على دخل يعتبر العمل بالنسبة لهم خطيئة. أما الطبقة الارستقراطية فتحول غرفة النوم إلى ساحة معركة. وفي إسبانيا ينمو التحاذون والقساوسة أكثر مما تنمو بعض الأشجار القليلة.

تبحرُ مراكب محملة بذهب أميركا إلى جنوا. لاتتركُ المعادن التي تصل من المكسيك والبيرو أدنى رائحة في إسبانيا. ويبدو وكأن العمل الفذ للغزو أنجزه أصحاب البنوك والتجار الألمان والجنوبيين والفرنسيين والقلمنكيين.

يعيش في فالادوليد شاب مشلول وضعيف البصر ينحدر من دم نقي يمتلك لساناً وسيفاً حادين. في أوقات المساء وبينما ينزع له خادمه حذاءه، يحلم بالأشعار. وفي الصباح تنزلق ثعابينه من تحت أبواب القصر الملكي.

يشخص فرانسيسكو دي كوفييدو في ذهنه، بينما رأسه مدفون في مخدته، القوة التي تحول الجبان إلى محارب والتي تهدى القاضي الأكثر قسوة، ولاعناً مهنة الشاعر هذه، يحك عينيه ويقرب المصباح، وبخبطة واحدة يخرج من رأسه الأشعار التي ستمنعه من النوم. الأشعار تخبر عن دون دويلون، الذي:

يولد بشكل مشرف في الأنديز

حيث العالم يرافقه

يجيء ليموت في إسبانيا

ويدفن في جنوا.

١٦.٢ : ريسيف

- الحملة الأولى ضد المارييس -

في المطاحن التي تضغط وتعصر قصب السكر يقاس عمل كل عبد كما يقاس وزن القصبه وضغط الآلة الساحقة وحرارة الفرن. تنعدم قوة العبد خلال خمسة أعوام ولكن المالك يستعيد في عام واحد الثمن الذي يدفع له. حين تنعدم فائدة أيدي العبيد ويصبحون أفواهاً لافائدة لها، يحصلون على حريتهم.

يختبئ العبيد الذين يربحون الحرية قبل الشيخوخة المفاجئة أو الموت المبكر في الجبال التي تقع في شمال شرق البرازيل. يرسل الحاكم العام للبرازيل الحملة الأولى ضد المارييس. تتألف من بعض البيض الفقراء والهجن المتلهفين لأسر وبيع السود ومن بعض الهنود الذين وعدوا بالأمشاط والسكاكين والمرايا الصغيرة ومن كثير من الخلاسيين.

يعود قائد الحملة من نهر «تابيكورو» الذي يدعى بارتولوميو بيزيرا ويعلن في ريسيف: «لقد دمر مركز التمرد»، ويصدق الجميع.

١٦.٣ : روما

- أجزاء العالم الأربعة -

صدرت في روما طبعة منقحة وموسعة من كتاب سيزار ريبا: علم الأيقونات. يظهر قاموس الصور الرمزية هذا العالم كما يبدو من الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط.

تظهر أوروبا على القمة، ملكة، محاطة برموز قوتها، تدعمها الأحصنة والرماح. تحمل بيد واحدة أعمدة المعبد وتحمل بالأخرى شبحاً. تضع تاجاً على رأسها وتستلقي تيجان أخرى عند قدميها وسط التيجان الكهنوتية والكتب وفراشي الرسم والآلات الموسيقية: القوانين والقيثارات. وإلى جانب البوق يوجد بوصلة ومسطرة.

في الأسفل، إلى اليمين، تظهر آسيا. تقدم القهوة والفلفل والبخور. تزينها أكاليل الأزهار والفاكهة وينتظرها جمل راجع.

في جانب آخر تظهر أفريقيا امرأة مغربية غسقية اللون برأس فيل وعلى صدرها عقد مرجاني. وحولها أسد وثعبان وعقرب وسنابل قمح.

في أسفل كل شيء تظهر أميركا امرأة بوجه يخيف الناظر إليه. ترتدي الريش فوق جلدها الزيتوني العاري. عند قدميها يستلقي رأس بشري مقطوع وسحلية. إنها مسلحة بالقوس والنشاب.

١٦.٣ : سانتياغو

- القطيع -

يحصل مجلس بلدة سانتياغو على حديد وشم جديد مصنوع من الفضة لوشم العبيد الهنود على وجوههم. يأمر الحاكم ألونزو دي ريبيرا أن جزءاً خامساً من قيمة كل أروكاني تم بيعه في موانئ فالديفيا وآريكا يجب أن يخصص لكلفة الحرب وتغذية الجند.

تتلاحق حملات الصيد. يعبر الجنود نهر «البيو - بيو» ويقومون بالجلد ليلاً. يحرقون ويبترون ويعودون بالرجال والنساء والأطفال مقيدون من أعناقهم. وحالاً يوشمون يباعون للبيرو.

يرفع الحاكم إناء الخمرة ويشرب نخب المعارك التي ربحت. يشرب الأنخاب على الطريقة الفلمنكية مثل بدرو دي فالديفيا. أولاً، جرعة كبيرة بعدها أخرى للسادة والسيدات الذين يتذكروهم. حين ينتهي من الناس يشرب أنخاب القديسين والملائكة ولا ينسى أبداً أن يشكرهم على الذريعة التي يقدمونها.

ليما: ١٦.٥

- ليلة القيامة -

بعد عيد الميلاد تماماً، دمرت المدافع الثقيلة للطبيعة مدينة آريكويا. انفجرت سلسلة الجبال وتقيأت الأرض أسس المنازل. تبعثر البشر تحت الأنقاض وأحرقت الحمم المحاصيل ثم نهض البحر وابتلع مرفأ آريكا.

جمع راهب حافي القدمين حشداً في ساحة ليما. البارحة، عند الغسق. أعلن أن هذه المدينة الفاسقة ستنهيار في الساعات القليلة القادمة وسينهار محيطها كله.

صرخ: «لن ينجو أحد. لن ينجو حتى الحصان أو السفينة الأكثر سرعة».

تمتلئ الشوارع وقت الغروب بالتائبين الذين يعاقبون أنفسهم بالمشاعل. يصرخ المذنبون بذنوبهم في الزوايا والأغنياء يرمون عن شرفاتهم آنية الفضة وثياب الحفلات في الشوارع. تكشف أسرار تجعل شعر الرأس ينتصب. الزوجات الخائفات ينزعن بلاط الأرصفة ويضربن أثداءهن بها. يركع اللصوص والغواة أمام ضحاياهم، يقبل الأسياد أقدام عبيدهم ولا تتسع أيدي الشحاذين للصدقات الكثيرة. تتلقى الكنيسة نقوداً أكثر مما تلقت في جميع أعياد الصوم الكبير في تاريخها كله، وإذا لم يكن الناس يبحثون عن قسّ يعترفون له، كانوا يبحثون عن واحد ليزوجهم. غصت الكنائس بالبشر الذين يريدون أن يلوذوا بحمايتها.

بزغ الفجر.

تشرق الشمس فوق ليما كما لم يحدث من قبل. يبحث التائبون عن مراهم لظهورهم المتشقة ويطارد الأسياد عبيدهم. اللواتي خطبن حديثاً يحققن عن رجالهن الجدد الذين بخروهم ضوء الفجر، البشر الذين تابوا من ذنوبهم يتجولون في الشوارع بحثاً عن ذنوب جديدة يرتكبونها تسمع شهقات البكاء واللعنات خلف كل باب. لا يوجد شحاذ لم يختف عن البصر، أيضاً اختبأ الكهنة ليحصوا الجبال النقدية التي قبلها الله البارحة. ستشتري كنائس ليما بالنقود المتبقية الريش الأصلي لكبير الملائكة، جبريل.

١٦.٧: سيفيل

- الفراولة -

يتذكر الضابط غونزاليس دي ناخيرا الذي عاش ستة أعوام في تشيلي ويروي. يتحدث عن أولئك الذين ولدوا وسط الأبواق والطبول، عن النبلاء الذين ارتدوا الدروع منذ أن كانوا في مهودهم، وجعلوا من أجسادهم جداراً لصد هجمات الهنود. يصّر أن المطر يخرج السنابل الذهبية من التربة التشيلية وأن الهنود يدفعون الجزية من الذهب الذي يستخرجونه من بطون العطاءات.

يتحدث أيضاً عن فاكهة نادرة لها لون وشكل القلب تنفجر مخرجةً عصيرها اللذيذ حين تلمس الأسنان. تستطيع أن تنافس بحيويتها ومذاقها وعطرها ألد الفاكهة الإسبانية، رغم أنهم هناك في تشيلي يشتمونها بتسميتها فراولة.

١٦.٨: بويرتو برينسيبي

- سيلفستر دي بالبو -

ولدت أول قصيدة ملحمية في تاريخ كوبا في المنزل الطيني المسقوف بسعف النخيل لسيلفستردى بالبو الذي يعمل في مجلس بلدة بويرتو برينسيبي. يملئ المؤلف مقاطعه الشعرية الفخمة على الأسقف ألتميرانو الذي اختطفه القرصان الفرنسي جلبرت جيرون منذ أربعة أعوام في مرفأ «منزانييلو».

تخرج من مملكة نبتون^(١) الفقمات والحوريات إلى سفينة القرصان متعاطفة مع الأسقف، الذي لن يقبل شيئاً في الدفاع عنه يقدم سكان «منزانييلو» مائتي دوقية وألف جلد ومؤناً أخرى فيعتق القرصان اللوثرى الرهينة. جاءت الساتيرات والفونات^(٢) والقنطورات^(٣) من الغابات إلى الشاطئ حاملات التين الشوكي والأنناس والأفوغاته والتبغ. وأحضرت حوريات الغابة الفاكهة البرية وأشياء أخرى وأيضاً أحضرت حوريات الماء لترحب بالقسيس الأسماك النهرية وأحضرت له حوريات الينابيع والبرك سلاحف لذيذة الطعم من «ماسابو». حين كان القراصنة جاهزين لجمع الفدية هجم عليهم بعض الشباب، زهرة شباب «منزانييلو» ومنحوهم ما يستحقونه. كان الذي اخترق صدر جلبرت جيرون برمحه شاباً أسود يدعى سلفادور:

آه يا سلفادور الكريبولي، أيها العبد البطل

لتحلّق شهرتك في الأرجاء بلا نهاية،

لأنه في مدح جندي شجاع

لن يكلّ قلم أو لسان أبداً.

مليئاً بالإعجاب والرهبة، يستحضر سيلفستر دي بالبو طراودة ويقارن شباب منزانييلو بآخيل ويوليس بعد أن خلطهم بالحوريات والسنتورات. ولكن وسط هذه الآلهة الرائعة تمّ تخليد جميع

(١) - نبتون: إله البحر.

(٢) - فون: أحد آلهة الحقول والقطعان عند الرومان.

(٣) - قنطور: كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس.

سكان هذه القرية بشكل متواضع. يسمي المؤلف العبد الأسود الذي تصرف كبطل وكثيراً من فاكهة الجزيرة وأعشابها العطرية وحيواناتها بأسمائها.

١٦.٨ : سيفيل

- ماتيو آليمان -

يسافر ماتيو آليمان في السفينة المبحرة إلى المكسيك. لكي يسافر إلى الأنديز يُقدّم رشوة إلى سكرتير الملك ويبين نقاء دمه.

هذا الذي ينحدر من أب وأم يهوديين والذي تحرق له محكمة التفتيش أي قريب، والذي يدعى ماتيو آليمان يبتكر لنفسه نسباً مسيحياً متفوقاً وشارة شرفٍ مفروضة وحول سيدته فرانسيسكادي كالديرون إلى ابنته الكبرى.

عرف الروائي كيف يتعلم فنون شخصيته كوزمان دي ألفاراشي الماهر في الاحتيال والتشرد والخبث الذي يغير لباسه واسمه ومدينته ليمحو العار الذي لحق به لينجو من البؤس: «سأرقص على اللحن نفسه مثل كل الآخرين، طالما يستمر». هذا مايقوله كوزمان دي ألفاراشي في الرواية التي تقرأها إسبانيا كلها.

١٦.٨ : قرطبة

- الأنكا غارسيلاسو -

يبلغ الستين من العمر، يتكىء على الطاولة، يغمس قلمه في المحبرة القرنية ويكتب بطريقة تبريرية. يكتب نثراً مليئاً بالتفاصيل وأنيقاً. يمدح الغازي بلغته التي جعلها لغة له. بيد واحدة يحيي الغزو معتبراً أنه عمل العناية الإلهية: «إن الغزاة، سواعد الإله، نصّروا العالم الجديد ودفعت المأساة ثمن الخلاص». باليد الأخرى، يودّع مملكة الأنكيين التي دُمّرت قبل أن تعرف ويستحضرها وكأنه يحن إلى الفردوس. تنتمي يد واحدة إلى والده، الذي يعمل ضابطاً لدى بيزارو. وتنتمي الأخرى إلى أمه، ابنة عم «آتاوالبا» التي أذلها ذلك الضابط ورمها بين ذراعي جندي.

ولد الأنكا غارسيلاسو من عملية اغتصاب مثل أميركا. ويعيش مثل أميركا ممزقاً إلى أشلاء. رغم أنه عاش نصف قرن في أوروبا ما يزال يصغي إلى أصوات طفولته في كوزكو كأنها ما تزال مسموعة: الأشياء التي تعلمها وهو في طرحته، والحليب: جاء إلى العالم في تلك المدينة المدمرة بعد أن وصل الإسبان وشرب في تلك المدينة من شفتي والديه القصص التي جاءت من ذلك اليوم البعيد حين أسقط الشمس على بحيرة تيتيكاكا الأمير والأميرة اللذين ولدا من علاقته الغرامية مع القمر.

١٦.٩ : سانتياغو

- كيفه تتصرفه على المائدة -

أخبروه بذلك هذا الصباح حين أحضروا الشوكولاته العطرية التي يتصاعد منها البخار. بقفزة واحدة خلّص الحاكم نفسه من الأغطية الهولندية: قرّر ملك إسبانيا أن يجعل استعباد الهنود الذين يؤسرون في الحرب قانونياً.

احتاجت الأنباء إلى عام تقريباً لتعبر المحيط وسلاسل الجبال. بيع الأروكانيون لبعض الوقت بحضور كاتب بالعدل وأي شخص يحاول الهرب يقطعون مفاصله، وستغلق موافقة الملك أفواه بعض المتذمّرين.

- «ليبارك الله هذا الخبز».

يقدم الحاكم عشاء لمرّوضي البشر في هذه الأراضي العدوّة. يشرب الضيوف خمرة البلاد بقرون الثيران ويأكلون خبز الذرة المغلف بأوراق الذرة. وكما يشير الحكيم الفونصو، يلتقطون بثلاثة أصابع قطع اللحم المتبّلة، وكما أضاف إيرازموس روتردام، لا يقضمون العظام أو يرمون قشور الفاكهة تحت الطاولة. بعد تناول شراب الكويلين الساخن يستخدمون نكاشة أسنان دون أن يتركوها بين شفاههم أو خلف آذانهم.

١٦١١ : ياروتيني

- مدّمّر الوثن -

إنهم يحطمون كاباك هوانكا بالفؤوس. يصرخ القسيس فرانسيسكو دي آفيلّا بالهنود أن يتحركوا. ما يزال هناك كثير من الأوثان التي يجب أن تكتشف وتدمّر في أراضي البيرو حيث يعرف أن لأحد يمتنع عن خطيئة عبادة الأوثان. لا يستريح الغضب الإلهي أبداً. ولا يجلس آفيلّا، جالد السحرة، أبداً.

إلا أن عبيده الذين يعرفون يتألمون عند كل ضربة. إن هذه الصخرة الكبيرة رجل اختاره وأنقذه الإله «بارياكاكا» تقاسم معه كاباك هوانكا لوحده كعكته وأوراق الكوكا حين قنّع بارياكاكا نفسه بالأسماك وجاء إلى ياروتيني وتوسّل طالباً شيئاً يشربه ويمضغه. إن هذه الصخرة الكبيرة رجل كريم. جمّده بارياكاكا وحوّله إلى حجر كي لا يجرفه إعصار العقوبة الذي يجرف الجميع.

رمى آفيلّا القطع عن الجرف. ووضع مكان كاباك هوانكا صليباً. فيما بعد يسأل الهنود عن تاريخ كاباك هوانكا ويدونه.

١٦١٢: سان بدرو دي أوماباتشا

- المضروب يضرب -

يصفرُ السوط المصنوع من الجلد المدبوغ والذي هو رمز السلطة في الجو ويضرب. يمزق الجلد إلى قطع ويشق اللحم. عارياً وموثقاً إلى البكرة، يتحمل كريستوبال دي ليون مولوهواماني زعيم جماعة أومباشا التعذيب. يتزامن أنينه مع لسعات السوط. متنقلاً بين الزنزانة ومنصة التعذيب والسوط يعيش الزعيم في الألم. تجاسر أن يتمرد على نائب الملك في ليما. ولم يرسل النسبة المحددة له من الهنود. كان مسؤولاً عن قلة الأيدي التي تحضر الخمر من السهول إلى كوزكو والتي تنسج وتحيك الملابس كما يأمر الحاكم. يستخدم الجلاد الذي هو عبد أسود السوط بمتعة. إن هذا الظهر ليس أسوأ أو أفضل من أي ظهر آخر.

١٦١٣: لندن

- شكسبير -

تصاب شركة فيرجينيا بخيبة أمل كبيرة على شاطئ أميركا الشمالية الذي يخلو من الذهب أو الفضة، مع ذلك تضيع كرايس الدعاية في جميع أنحاء انكلترا أن الإنكليز يبيعون الهنود في فيرجينيا لآلء السماء مقابل لآلء الأرض.

منذ وقت ليس بطويل، كان جون دون^(١) يستكشف جسد عشيقته في قصيدة كما يستكشف المرء أميركا، وفيرجينيا وذهب فرجينيا هو الموضوع الأساسي لاحتفالات خطبة الأميرة إيلزابيث. تقام حفلة تنكرية بقيادة جورج تشايمان على شرف ابنة الملك، تدور حول صخرة ذهبية كبيرة هي رمز لفيرجينيا أو لأوهام مالكي أسهمها: الذهب، مفتاح القوى كلها، سر الحياة الذي يطارده السيميائيون، ابن الشمس كما الفضة. ولّد من القمر والنحاس من الزهرة. يوجد ذهب في مناطق العالم الكروية الدافئة، حيث تبذر الشمس أشعتها بسخاء.

يُمثّل في احتفالات خطبة الأميرة عمل لوليم شكسبير أيضاً يدعى «العاصفة» وقد جاء هذا الإلهام بسبب تحطم سفينة تابعة لشركة فيرجينيا في برمودا. تجري أحداث مسرحية خالق

(١) - جون دون: شاعر إنكليزي مشهور جداً.

الأرواح والعجائب الكبير هذه المرة في جزيرة تقع في البحر الأبيض المتوسط الذي يشبه البحر الكاريبي. هناك يقابل الدوق بروسبيرو كاليبان ابن الساحرة سيكوراكس، عابدة إله الهنود الباتاغونيين. كاليبان متوحش، هندي على النمط الذي شاهده شكسبير في معرض ما في لندن: شيء ينتمي إلى الظلمة، وحش أكثر من كونه إنساناً، الذي يتعلم فقط أن يلعن، ولا يمتلك مقدرة على المحاكمة أو الإحساس بالمسؤولية يستطيع أن يجد مكاناً في المجتمع الإنساني فقط كعبد أو مربوطاً كقرد، أي في المجتمع الأوروبي، الذي لا يمتلك هو على الإطلاق أدنى اهتمام في الانضمام إليه.

١٦١٤ : ليما

- مجلس مدينة ليما ولادة الرقابة على المسرح -

أكد في هذا المجلس أنه بسبب عدم فحص الأعمال الكوميديّة التي تمثّل في هذه المدينة أنه قيلت أشياء كثيرة مؤذية بحق السلطات والشرف المرتبط بهذه الحكومة. ومن أجل أن تتوقف هذه الأشياء غير اللائقة في المستقبل يتوجب علينا أن نقدّم علاجاً. وبعد أن طرحت المسألة ونوقشت تم التوصل إلى إتفاق وأصدر أمر يقتضي التنويه لمؤلفي الأعمال الكوميديّة الحاليين والمستقبليين بأن لا يمثلوا أية ملهة قبل أن تشاهد وتفحص وتتم الموافقة عليها من قبل الشخص الذي يعينه المجلس في حينه وكل من يخالف سيدفع غرامة قدرها مائتا بيزو.

١٦١٤ : ليما

- رقصات هندية حظرت في البيرو -

جناحا الكندور، رأس الببغاء، وجلد اليغور: يرقص الهنود البيروفيون رقصة أسلافهم التي تدعى «ريمي» في عيد القربان. يؤدّون صلاتهم للشمس باللغة الكويتشوانية في وقت رشّ البذار أو يبايعون الشمس حين تحدث ولادة في فصل الحصاد. إلى النهاية وبمساعدة إلهنا لكي تُقمع المناسبات التي تسبّب البطالة والكسل ولكي يتوقف الشيطان عن ممارسة خدعه يقرّر كبير أساقفة ليما أن تتوقف الرقصات والأغاني التي تمارس باللهجة المحلية أو باللغة العامية. يعلن كبير الأساقفة عن عقوبات مريعة ويأمر بحرق جميع الآلات الموسيقية المحلية بما فيه المزمار القصبيّ رسول الحب:

ستنامين على الشاطئ،
وسأجيء في منتصف الليل.

١٦١٥ : ليما

- غوامان بوما -

يتكىء على الطاولة، وهو يبلغ سبعين عاماً من العمر، يغمس القلم في المحبرة القرنية ويكتب ويرسم متحدياً. يكتب نثراً مستعجلاً ومتقطعاً يلعن الغازي بلغته ويجعلها تنفجر. تظل اللغة القشتالية تضغط على الكلمات الكويتشوية والأيمارية ولكن بعد كل شيء، قشتالة هي قشتالة بالنسبة للهنود، وبدون الهنود لا يساوي جلالكم أي شيء.

ينهي غوامان بوما اليوم رسالته الموجهة إلى ملك إسبانيا. كانت موجهة في البداية إلى فيليب الثاني الذي مات حين كان غوامان يكتبها. يريد أن يرسلها الآن إلى يد فيليب الثالث يتنقل الرحالة من قرية إلى أخرى، يسير المؤلف فوق جبال يغطيها الثلج، يأكل إذا استطاع ويحمل على ظهره مخطوطته التي تكبر بالأمنلة والكلمات. يعود المؤلف من العالم... يعبر في العالم وهو يبكي طوال الطريق ويصل أخيراً إلى ليما. ويقرر أن يسافر من هنا إلى إسبانيا ولا يعرف كيف سيتدبر الأمر. وما الذي يهم؟ لأحد يعرف غوامان ولا أحد يصغي إليه والملك بعيد جداً ومرتفع جداً، إلا أن غوامان الذي يحمل القلم في يده يعامله نداً لند ويخاطبه بشكل مألوف ويشرح له ما يجب عليه أن يفعله.

منفيًا من مقاطعته، عارياً، معاملاً كأنه لاشيء، لا يتردد غوامان في إعلان نفسه وريثاً للسلاط الملكية الياروفيلكية والآنكية ويسمي نفسه مستشار الملك والمؤرخ الهندي الأول وأمير الإقليم ونائب الحاكم. كتب هذه الرسالة الطويلة بدافع من كبريائه: يبدأ نسبه من أقدم أسياذ «هوانكو» واندماج في الإسم الذي يمنحه الباز والكوجر، شعار نبالة أسلافه الذين حكموا الأراضي التي تقع في شمال البيرو قبل الأنكيين والإسبان.

إن كتابة هذه الرسالة تسبب البكاء. الكلمات، الصور، دموع الغضب. إن الهنود هم المالكون الطبيعيون لهذه المنطقة والإسبان هم غرباء هنا. يدوس الرسول سانتياغو الذي يرتدي الزي العسكري على محلي ساقط. في المآذب الصحن منمنمة بالنساء. يحمل البغال سلة مليئة بأبناء الكاهن المهجنين. أيضاً، إنه عقاب من الله أن يموت كثير من الهنود في مناجم الفضة والزئبق. في كل أنحاء البيرو، حيث يوجد مائة، لا يبقى عشرة. يسأل الأنكا: «هل تأكلون الذهب؟»، يجيب الغازي: «نأكل هذا الذهب».

ينهي غوامان رسالته اليوم، لقد عاش من أجلها. لقد استغرقت معه نصف قرن لتكتب وترسم. تتألف تقريباً من ألف ومائتي صفحة. اليوم ينهي غوامان رسالته ويموت.

لن يراها فيليب الثالث ولا أي ملك آخر أبداً. سوف تنه في الأرض ضائعة لمدة ثلاثة قرون.

١٦١٦ : مدريد

- سرفانتس -

- «أية أنباء تحضرها من أبنينا؟».
- «إنه يستلقي ياسيدي وسط الدموع والصلوات. إنه متورّم وله لون الرماد. لقد أسلم روحه سابقاً وهو بين الكاتب بالعدل والقسيس والندّابون ينتظرون».
- «لو كان معي فقط بلسم فييرا براس... جرعتان منه وسيتحسن».
- «كيف وهو يبلغ السبعين وعلى وشك الاحتضار ولا يوجد إلا ستة أسنان في فمه ولا يملك إلا يداً واحدة تعمل وهو مليء بالندوب من الحروب واللعنات والسجون؟ هذا لن يفيد به بأي شيء ياسيدي».
- «لأقول جرعتين بل قطرتين».
- «لقد تأخر الوقت».
- «لقد مات، أهذا مات قوله؟».
- «يحتضر ياسيدي».
- «انزع قبعتك ياسانشو وأنت ياروزينانتة، أخفض رأسك. وآه ياأمير النبالة وملك الحروف».
- «ما الذي ستفعله بدونه ياسيدي؟».
- «لا شيء لا يعظمه».
- «أين سنضع أنفسنا ونحن وحيدان هكذا؟».
- «سنذهب إلى حيث أراد أن يذهب ولم يستطيع».
- «إلى أين ياسيدي؟».
- «لنقوم ما اعوج على شواطئ «كارتاجينا» وفي وهاد «لاباز» وغابات «سوكونسكو»».
- «إنها أمكنة ظريفة لطحن عظامك».
- «يجب أن تعرف ياسانشو، ياأخي على طرقات كثيرة وفي رحلات كثيرة أن العظمة في الآنديز تنتظر الفارس الجوّال المتعطش للعدالة والشهرة...».
- «حسناً، لم تمض وهلة على تعرضنا للضرب».
- «... وسوف يكافئ المرافقون بممالك كبيرة لم تكتشف أبداً».
- «ألا يوجد بعضها في مكان أقرب؟».
- «وأنت ياروزينانتة، إن الأحصنة في الآنديز تنل بالفضة والقطع الذهبية، وتعتبر آلهة».
- «إن ألف ضربة غير كافية بالنسبة له. إنه يريد أكثر من ألف ضربة».
- «أخرس ياسانشو».

- «ألم يقل والدك أنّ أميركا هي ملاذ للأندال ومعبد للعاهرات؟».
- «اخرس، سأخبرك».
- «قال إن كل من يذهب إلى الآنديز يترك ضميره على رصيف المرفأ».
- «ولهذا سنذهب، للتنظف شرفه، هذا الذي تبنا كأحرار في السجن».
- «ألا نستطيع أن نندبه هنا فقط؟».
- «هل تدعو هذه الخيانة تبجيلاً؟ الآن أيها الوغدا سننطلق ثانية. إذا كان قد صنعنا لنطوف في العالم، سنأخذه عبر العالم. أحضر لي خوذتي والدرع والرمح ياسانشوا».

١٦١٦ : بوتوسي

- صور موكب -

جبل بوتوسي السحري: على هذه السهول المرتفعة والمعادية والتي منحت العزلة والبرد فقط، ازدهرت أكثر مدن العالم ازدحاماً بالسكان.

ترأس صلبان فضية فخمة الموكب الذي يتقدم بين صفين من الرايات والسيوف. ترن على الشوارع الفضية الحوافر الفضية للأحصنة المزينة بالمخمل والسروج المطرزة بالآلئ. من أجل التصديق على الذين يحكمون ومن أجل تقديم العزاء للذين يخدمون تمرّ الفضة في عرض متوهجة، واثقة، متبخرة، متأكدة أنه لا يوجد مكان على الأرض لا تستطيع شراءه.

ترتدي المدينة ثياب المهرجان وعلى الشرفات تتدلى شعارات النبالة وأشياء أخرى، ومن بحر الحرير الذي يصدر حفيفاً ومن زبد البريمات وشلالات الآلئ تراقب السيدات بإعجاب الموكب الذي يتقدم والمؤلف من مجموعة أبواق وشومات^(١) وطبول بأصوات حادة. كان بعض السادة يضعون عصاة سوداء على إحدى أعينهم وكانت تبدو أورام وجراح على جباههم، وهذه لم تكن علامات حرب بل سفلس. كانت القبلات وكلمات الغزل تطير من الشرفات إلى الشارع ومن الشارع إلى الشرفات.

تظهر شخصيات الأنانية والجشع المقنعة. يغني الجشع من خلف قناعه الثعباني بينما حصانه يثب:

جَنَرَ جميع الشرور
يسموني، ولا أتعب أبداً
ليس لأشبع رغبة.

(١) - الشوم: آلة موسيقية خشبية قديمة.

تجيب الأنانية التي ترتدي بنظلاً أسود وسترة سوداء مطرزة بالذهب وقناعاً أسود تحت قبعة سوداء كثيرة الريش:

إذا غزوت الحب
وغزا الحب الموت، سيتفق الجميع
أن لا شيء أقوى مني.

يرأس الأسقف جيشاً طويلاً وبطيئاً من الكهنة والتائبين الذين غطوا رؤوسهم مسلحين بشموع طويلة وبشمعدان فضي، بعد ذلك تفرض أبواق المذيعين أنفسهم على أصوات أجراس الكنائس معلنة عن عذراء «كواديليوب» ضوء الصابرين، مرآة العدالة، ملاذ الخاطئين وعزاء المبتلين، النخلة الخضراء، الصولجان المزهر والصخرة المضيئة. تظهر في موجات من الذهب وأمهات اللآلئ تحملها أذرع خمسين هندياً مثقلة بجواهر كثيرة وتراقب بعينين مندهشتين صخب الملائكة ذات الأجنحة الفضية والعرض البديع لعابديها. وعلى حصان أبيض مطهم يجيء فارس السيف المشتعل تتبعه كتيبة من الخدم والغلمان ترتدي بزات بيضاء. يقذف الفارس قبعته بعيداً ويغني للعذراء:

رمادي كجمال سيدتي
التي تظهر كثيراً من الجمال
لتذهل السماء والأرض.

يركض الخدم والغلمان الذين يرتدون بزات أرجوانية خلف فارس الحب الإلهي الذي يجيء خبياً على حصانه كخيال على الطريقة الرومانية وحواف رداءه الحريري الأرجواني تتأرجح في الريح. يركع على ركبتيه أمام العذراء ويخفض رأسه المتوج بالغار ولكن حين يهبي نفسه ليغني أشعاره ينبعث وابل من الدخان الكبريتي ويقاطعه. لقد غزت منصة الشيطان الشارع ولا أحد يعير أدنى انتباه إلى فارس الحي الإلهي.

يفتح الأمير تارتر، عابد محمّد، جناحيه الخفاشيين وتظهر الأميرة بورسبيرين التي تمتلك شعراً طويلاً وفستاناً طويلاً وتقذف من مكان عال تجديفات يصفق لها أتباعها من الشياطين. وفي مكان ما يلفظ اسم يسوع المسيح وتنفجر منصة الجحيم مصدرة صوتاً مرتفعاً - يقفز الأمير تارتر والأميرة بورسبيرين عبر الدخان واللهب ويسقطان أسيرين عند قدمي أم الإله.

الشارع مغطى بملائكة صغار وهالات وأجنحة فضية متألقة أما الكمنجات والغيتارات والبرق والشومات تصدر ألحاناً عذبة. موسيقيات يرتدين ثياب عازبات يحتفلن بوصول الرحمة والعدالة والسلام والحقيقة، بنات بوتوسي الأربع الرشيقات محمولات على محفات من الفضة والمخمل، وكان للخيول التي تجرّ منصتهم صدور ورؤوس هندية.

بعد ذلك يجيء الثعبان ملتقاً ومتموجاً، يتقدم الثعبان على أقدام هندية في الطريق المضاء بالمشاعل زارعاً الخوف والنار في الاحتفالات ومظهراً التحدي والقوة عند قدمي العذراء. حين يقطع الجنود رأسه بالفؤوس والسيوف يظهر من أحشاء الثعبان الآنكا بكبرياء محطم إلى أشلاء. جارا ثوبه الفانتازي، يركع ابن الشمس على قدميه أمام الضوء الإلهي. كانت العذراء تزهو برداتها الذهبية وباليواقيت والآلء والصليب الذهبي الذي يشع على تاجها الإمبراطوري أكثر تألقاً من السابق فوق عينيها المندهشتين.

بعد ذلك يجيء الحشد. حرفيون من كل مهنة ومتشردون شحاذون يستطيعون أن يجبروا حتى العين الزجاجية على البكاء: المهجنون أبناء العنف، الذين ليسوا عبيداً أو أسياداً، يمشون على أقدامهم، إذ أن القانون يحظر عليهم اقتناء الخيول أو الأسلحة كما يمنع الخلاسيين من استخدام المظلات بحيث لا يستطيع أي شخص أن يخبىء وصمة العار التي تلوث الدم إلى الجيل السادس. يجيء مع المهجنين والخلاسيين أرباع الزنوج وأنصاف السود وبقية الخلائط التي أنتجها الصياد وفريسته

وفي الخلف يتقدم حشد من الهنود محملاً بالفاكهة والأزهار وصحون الطعام التي يتصاعد منها البخار يتوسلون إلى العذراء من أجل الصفح والعزاء وفي نهاية المؤخرة كان بعض السود يجرون المحفة التي تركها جميع الآخرين.

١٦١٦: سانتياغو باباسكويارو

- هل إله الأسياك، هو إله العبيد؟ -

تحدث نبي هندي عن الحياة الحرّة. مرتدياً الثياب التقليدية، سافر عبر الصحارى والجبال مثيراً الغبار ومغنياً على الإيقاع الحزين لجذع شجرة أجوف عن الأعمال الفذة للأسلاف، وعن الحرية الضائعة. بشر العجوز بالحرب ضد أولئك الذين احتلوا أراضي الهنود وآلهتهم وجعلوا الهنود يفجرون رثاتهم في مناجم. زاكاتيكاس. أعلن أن أولئك الذين ماتوا في الحرب الضرورية سينبعثون والعجائز الذين ماتوا وهم يقاتلون سيولدون شباباً وأقوياء.

سرق التيبهوانيون البنادق وصنعوا وأخبأوا الأقواس والسهام لأنهم رماة مهرة كنجم الصباح، رامي السهام المقدس. سرقوا الأحصنة وقتلوا ليأكلوا سرعة حركتها وقتلوا البغال ليأكلوا قوتها.

نشبت التمرد في سانتياغو باباسكويارو في شمال دورانغوا. داس التيبهوانيون، هنود المنطقة الأكثر مسيحية، والذين كانوا أوائل المرتدين عن دينهم، على الصليب، وحين توسل الأب برناندور سيزنيروس طالباً الرحمة، أجابوه: «ليساعدك الله». في الجنوب حطموا وجه العذراء بالمناجل وتجرعوا الخمرة بكؤوس القربان. وفي قرية «زابجي» طارد الهنود الملفعون بالأردية

الكهنوتية الجزويتية والقلنسوات، الإسبان الفارين عبر الغابات. ضربوا الأب هرناندو ديل توفار بالهراوات في سانتا كاتارينا قائلين له: «لنر إذا كان الله سينقذك». انتهى الأب خوان ديل فالي متمدداً عارياً على الأرض رافعاً يده التي ترسم إشارة الصليب عالياً في الجو، أما يده الأخرى فتغطي عضوه الذي لم يستخدم أبداً.

إلا أن العصيان لم يستمر طويلاً، إذ أن القوات الإستعمارية هزمت الهنود في سهول «كاكاريا». وسقط مطر أحمر على الموتى. سقط المطر عبر فضاء كثيف بالبارود وثقّب الموتى بطلقات من الوحل الأحمر.

ترنّ الأجراس في زاكاتياس داعية إلى الولائم الاحتفالية. يتنهّد مالكو المناجم بارتياح، لن يكون هناك نقص في الأيدي التي تحفر. لاشيء سيقاطع رخاء الملكة. سيكونون قادرين على البول بهدوء في الأوعية الفضية ولن يمنع أحد زوجاتهم اللواتي تتبعهن مائة خادمة وعشرين فتاة من حضور القدّاس.

١٦١٧: لندن

- نفايات تبغ فيرجينية في ضباب لندن. -

الشخصيات:

الملك: (ملك بريطانيا جيمس الأول، ملك اسكوتلندة السادس). لقد كتب: «إن التبغ يحوّل أعضاء الإنسان الداخلية إلى مطبخ، يوسخها ويملوها بنوع من السخام الزيتي والمدهن. كتب أيضاً أن أي شخص يدخن يقلد التصرفات البربرية والوحشية للهنود المتوحشين والعبس والكفار».

جون رولف: استعماري انكليزي في فيرجينيا. إنه أحد الأعضاء الأكثر تميزاً من البشر الخاصين الذين حدّدتهم واختارتهم إصبع الله... لأنه أنتج خلائط جيدة من التبغ في مزارعه وذلك من البذور التي أحضرها إلى فيرجينيا من تراينيداد. أرسل إلى لندن منذ ثلاثة أعوام في سفينة إيلزابيث أربعة براميل مليئة بالأوراق التي افتتحت تجارة التبغ التي كانت مزدهرة سابقاً في لندن. يمكن أن يقال بشكل جيد إن جون رولف وضع التبغ على عرش فيرجينيا كنبتة ملكية لها قوة مطلقة. في العام الماضي جاء إلى لندن مع الحاكم «ديل» باحثاً عن مستعمرين جدد وإيداعات جديدة لشركة فيرجينيا واعداً بأرباح خيالية لأصحاب الأسهم، لأن التبغ بالنسبة لفيرجينيا سيكون مكانته الفضة في البيرو. جاء أيضاً ليقدم للملك جيمس زوجته، الأميرة الهندية بوكاهونتاس المعّدة باسم ربيكا.

عالم جديد قديم

السير توماس ديل: كان حاكماً لفيرجينيا حتى العام الماضي. جعل زواج رولف بوكاهونتاس قانونياً والذي هو أول زواج أنكلو - هندي في تاريخ فرجينيا على أساس أن هذا الزواج يعتبر عملاً سياسياً ملائماً جداً للمساهمة في تقديم تموين الحبوب والأيدي بسلام من قبل السكان المحليين. على أية حال، في طلبه للأذن لم يذكر جون رولف هذا الجانب من القضية ولم يذكر أي شيء عن الحب رغم أنها لم تبلغ الثمانية عشرة من العمر. قال رولف إنه أراد أن يتزوج هذه الوثنية، ذات الثقافة الوقحة والتصرفات البربرية والمنحدرة من جنس ملعون من أجل صالح مزرعته وشرف بلاده وعظمة الله ومن أجل خلاصه ولتحويلها إلى المعرفة الصحيحة بالله وبالمسيح.

بوكاهونتاس: كانت تعرف أيضاً باسم ماتوكا حين عاشت مع الهنود. كانت البنت المفضلة لدى الزعيم الكبير بوهاتان. بعد أن تزوجت رولف تركت عبادة الأوثان وغيّرت اسمها إلى ريكا وغطت عريها بملابس إنكليزية. ارتدت قبعة وربطة عنق مرتفعة وجاءت إلى لندن واستقبلت في البلاط. كانت تتحدث وتفكر كامرأة إنكليزية وشاركت زوجها في دينه الكاليفيني بإخلاص ووجدت فيها شركة فرجينيا الداعم الأكثر قدرة وغبابة لتمكّن نفسها في لندن. ماتت مصابة بمرض إنكليزي. كانت تبهر في التاييمز في طريقها إلى فرجينيا وحين انتظرت السفينة الرياح المفضلة لفظت بوكاهونتاس نفسها الأخير بين ذراعي جون رولف في آذار عام ١٦١٧ ولم تكن قد وصلت إلى سن الواحد والعشرين.

أوبيكانكانوف: إنه عم بوكاهونتاس والأخ الأكبر للزعيم الكبير بوهاتان. منح العروس في الكنيسة البروتستانتية في «جيمس تاون». منذ ثلاثة أعوام لم ينطق بأية كلمة قبل وأثناء وبعد مراسيم الزواج إلا أن بوكاهونتاس أخبرت رولف بقصة عمها. عاش أوبيكانكانوف، مرة في إسبانيا وفي المكسيك، كان في ذلك الوقت مسيحياً معروفاً باسم لوي دي فيلاسكو ولكنه حالما عاد إلى بلاده تخلص من الصليب والرداء الكهنوتي ورماهما في النار، ذبح القساوسة الذين كانوا يرافقونه واستعاد اسم أوبيكانكانوف والذي يعني في اللغة الهندية: هذا الذي يمتلك روحاً نظيفة.

يجمع ممثل من مسرح غلوب تفاصيل هذه القصة ويسأل نفسه الآن وهو يواجه إبريقاً من البيرة، مالذي سيفعله بها. هل يكتب قصة حب مأساوية أم مسرحية أخلاقية عن التبغ وقواه الشريرة؟ أم يعدّ حفلة تنكرية يكون موضوعها غزو أميركا؟ ستنجح المسرحية بالتأكيد لأن لندن كلها تتحدث عن الأميرة بوكاهونتاس وزيارتها السريعة الزوال إلى هنا. هذه المرأة التي تعادل مجموعة من الحريم كلّ لندن تحلم بها عارية بين الأشجار وفي شعرها أزهار عطرية. أي ملاك منتقم طعنها بسيفه؟ هل كفرت عن ذنوب شعبها الوثني أم هل كان موتها تحذيراً من الله لزوجها؟ التبغ، الإبن غير الشرعي لبروسبرين وباخوس... ألا يحمي الشيطان العقد الغامض بين

تلك العشب والنار؟ هذا الدخان الذي يصيب الرجل الفاضل بالدوار، أليس ابن الشيطان؟ والفسق المخبوء لجون رولف.. وماضي أوبيكانكانوف، المعروف سابقاً باسم لوي دي فيلاسكو، أهو منتقم أم خائن؟.. يدخل أوبيكانكانوف إلى الكنيسة وذراعه في ذراع الأميرة.. طويلة، منتصب، صامتة... يختتم صائد الحكايات غير الحكيم عمله وهو يدفع ثمن بيرته ويخرج إلى الشارع قائلاً: «لا، لا، إن هذه القصة جيدة جداً للكتابة وكما قال شاعر الآنديز اللطيف «سيلفا»: إذا كتبتها ما الذي سيبقى عندي لأرويه لأصدقائي؟».

١٦١٨ : ليما

- عالم صغير -

مات مالك فابيانا كريولا خفّض في وصيته ثمن حريتها من مئتين إلى مائة وخمسين بيزو. أمضت فابيانا الليل دون أن تنام وهي تفكر كم يساوي صندوقها الخشبي المليء بمسحوق القرفة. لاتعرف أن تجمع ولهذا لا تستطيع أن تحسب الحريات التي اشترتها بعملها خلال نصف القرن الذي أمضته في العالم ولا ثمن الأولاد الذين أنجبوا من خلالها وأخذوا منها. يجيء الطائر مع ضوء الفجر الأول وينقر النافذة بمنقاره يعلن الطائر نفسه كل يوم أن وقت الاستيقاظ والذهاب قد حان. تتأهب فابيانا، تجلس على الحصيرة وتفحص قدميها المتآكلتين.

١٦١٨ : لواندا

- الرحيل في السفينة -

يُقبَضُ عليهم بشباك الصيادين. يتقدّمون الآن إلى الساحل مربوطين إلى بعضهم من أعناقهم بينما تصدح طبول الألم في القرى. يساوي العبد على الشاطئ الأفريقي أربعين عقداً زجاجياً أو صفارة مربوطة إلى سلسلة أو مسدسين أو حفنة طلقات. كان يقدم اللحم الإنساني مقابل الحصول على البنادق القديمة والمناجل وشراب الرّم والحبرير الصيني. يفحص الكاهن عمود الأسرى على الرصيف الرئيسي لميناء لواندا. يتلقى كلّ عبد قرصة ملح على لسانه ورشة من الماء المقدّس على رأسه واسماً مسيحياً. يترجم المترجمون الموعظة: «أنتم الآن أبناء الله..»، ينصحهم ألا يفكروا بالأراضي التي يغادرونها وأن لا يأكلوا لحم الكلب أو الجرذ أو

الحصان ، يذكرهم بالرسالة الإنجيلية التي أرسلها القديس بولس إلى «أفسس» : «أيها العبيد اخدموا أسيادكم» يذكرهم باللغة التي صَبَّها نوح على أبناء حام الذين بقواً سوداً طوال العصور. يشاهدون المحيط للمرة الأولى ويروّعهم هذا الوحش الكبير الذي يزأر. يظنون أن البيض يأخذونهم إلى مسلخ بعيد ليأكلوهم ليصنعوا منهم الزبوت والشحوم. تسوقهم سياطُ مصنوعة من جلود جواميس البحر إلى قوارب كبيرة تعبر الأمواج المتكسرة. على السفن يواجهون مدفعية موزعة على الطرفين. تمنعهم السلاسل والقيود من الانتحار غرقاً. سيموت كثيرون في الرحلة وسيباع الباقون على قيد الحياة في أسواق أميركا ويوشمون ثانية بالحديد المحمّى.

لن ينسوا آلهتهم أبداً. سيتننّع أوكسالا الذي هو رجل وامرأة بالقديس جيروينمو وبالقديسة بربرة. سيصبح أوباتالا يسوع المسيح وسيتحوّل «أوشن» الذي هو روح الحسية والمياه العذبة إلى عذراوات «كانديلياريا» ، إلى الفهم والفضيلة والمتع وسيصبح القديسة آنّي في ترينيداد. خلف القديس جورج والقديس أنطوني والقديس ميخايل ستكون رماح «أوغم» إله الحرب. سيغني «بابلو» داخل القديس لازاروس. ستحلّ رعود ونيران «شانغو» المخيف في القديس جون والقديسة بربرة وسيستمرّ «إيليكاوا» في كوبا بامتلاك وجهين: الحياة والموت، وفي شمال البرازيل سيكون «لايكسو» رأسان الإله والشيطان، ليقدم للمؤمنين العزاء والانتقام.

١٦١٨ : ليما

- ظلمة شديدة -

يدفع الصديقان رداثيهما الرثين إلى الخلف ويكنسان الأرض بقيعتيهما. يتبادلان تحيات الاحترام ثم تبدأ المجاملات : «إن جدعتك شيء عجيب».

- «إن قرحتك التناسلية رائعة فنية».

يعبران قطعة الأرض الخالية والذباب يطاردهما.

يتحدثان وهما يبولان مديرين ظهريهما للريح.

- «مرّ وقت طويل ولم نر شيئاً».

- «إنني أهرب كذباً. وتزداد معاناتي».

- «نعم».

يخرجُ السحلية كسرةُ خبز من جيبه. ينفخ عليها. يلينها ويدعو شحاذ الخبز ليكون ضيفه.

يتأملان الأزهار في النباتات الشائكة وهما جالسان على صخرة.

يقضم شحاذ الخبز لقمة بأسنانه الثلاثة ويقول : «يوجد في السراي صدقات جيدة... إنه أفضل

مكان لعين في ليما. إلا أن الحمّال رمانّي في الخارج ورفسنّي».

- «أنت لا تعني خوان أوتشوا؟».
- «إن اسم الشيطان أفضل له. يعلم الله أنني لم أفعل له شيئاً».
- «لم يعد خوان أوتشوا هناك».
- «هذا صحيح».
- «لقد نبذوه ككلب والآن لم يعد حملاً في السراي ولم يعد يساوي شيئاً».
- «يبتسم شحاذ الخبز بعد أن شعر بأنهم انتقموا له. يمدد أصابع قدميه العارية».
- «لأنه قام بأعمال سيئة؟».
- «لا، لم يكن هذا هو السبب».
- «إذا لأنه كان غيباً جداً».
- «لا، لا، لأنه ابن خلاسي وحفيد زنجي. أسود جداً وبشكل مخز».

١٦٢: مدريد

- رقصات الشيطان

تجيء من أميركا -

شكراً لجثة القديس إسيديور التي نامت قربها في الأيام القليلة الماضية، إن الملك فيليب الثالث يشعر بتحسّن. أكل هذا الظهر وشرب دون اختناق. أضاءت أطباقه المفضلة عينيه وأفرغ كأس الخمرة بجرعة واحدة.

يرطب الآن أصابعه في الوعاء الذي يحمله خادم راع. يقدم خادم الاستحمام المنديل إلى كبير خدم الأسبوع. ينقله كبير خدم الأسبوع إلى كبير الخدم. يركع كبير الخدم لدوق «أوسيدا» يأخذ الدوق المنديل ويحني رأسه ثم يسلمه للملك. وبينما يجفف الملك أصابعه يزيل الطفيليّ الفتات عن ثيابه ويصلي القسيس صلاة شكر لله.

يتثاءب فيليب، ويفكّ ياقته العالية المزركشة، ويسأل عن الأخبار.

يقول له الدوق أن هيئة إدارة المستشفى جاءت إلى القصر. إنهم يشكون أن الجمهور يرفض الذهاب إلى المسرح منذ أن منع الملك الرقصات، والمستشفى يعتمد على إيرادات المسرح. قالت الهيئة للدوق: «سيدي منذ أن توقفت الرقصات توقفت الإيرادات. إن المرضى يموتون ولانملك شيئاً ندفعه من أجل الضمادات والأطباء». يقرأ الممثلون أشعاراً ألفها لوب دي فيغا تمجّد الهنود:

تاكويتان ميتاناكوني

إسباني من هنا إلى هناك

لا يوجد في إسبانيا حب
هكذا يبدو لي
هناك الأنانية هي الملك
أما هنا فالحب.

لكن ما يريده الجمهور من أميركا هو الرقصات والأغاني غير المحتشمة التي تثير البشر الأكثر احتراماً. لافائدة للممثلين في جعل الأحجار تبكي والموتى يضحكون ولا في جعل الفنون المسرحية تستخرج الإضاءة من الغيوم الكرتونية. تقول هيئة المستشفى وهي تئن: «إذا بقيت المسارح خالية يجب أن تغلق المستشفيات».

يقول الدوق: «أخبرتهم أن جلالتم سيقرر».
يحك فيليب ذقنه ويفحص أظافره.

- «إذا لم يغير جلالتم رأيه فإن ما مُنِعَ قد مُنِعَ وبشكل جيد».

إن رقصة السربنده والشاكون تجعل الجنس يشع في الظلام. لقد شجب الأب ماريانا هذه الرقصات التي هي ابتكارات الزنوج الأميركيين المتوحشين وهي شيطانية في كلماتها وحركاتها. حتى في المواقب تسمع أشعارهم التي تمدح الخطيئة وحين تنفجر إيقاعات دفهم الداعر وصنوجهم لاتستطيع حتى الراهبات في الأديرة أن يسيطرن على أقدامهن وعلى دغدغات الشيطان التي تكهرب أردافهن وبطونهن.

تلاحق عينا الملك طيران ذبابة كبيرة كسولة بين بقايا المأدبة. يسأل الملك الذبابة: «وأنت، ماذا تعتقدين؟».

يظن الدوق أن الكلام موجه إليه فيقول: «إن هذه الرقصات التهريجية هي موسيقا لِسَبْتِ السحرة كما قال جلالتم بشكل جيد، ومكان السحرة هو النار في الساحة الرئيسية».

تختفي الحلويات عن الطاولة إلا أن الرائحة تعلق في الجو.

يأمر الملك الذبابة هاذياً: «أنت التي تقررين».

يلح الدوق: «إن أسوأ عدو لجلالتم لا يستطيع أن يتهمكم بعدم التسامح. كان جلالتم متسامحاً في زمن الملك والدك حفظه الله...».

يهذي فيليب: «ألسنت أنت التي تقودين؟».

- «إن كل من تجرأ على رقص السربنده حصل على مكافأة مختلفة... مائتي جلدة وجرعة تجذيف في السفن».

يهمس الملك ويغلق عينيه: «أقول، أنت».

- «أنت»، وتظهر كمية من الزبد واللعب الذي ينتجه فمه دائماً بإفراط على شفقيه.

يشم الدوق رائحة احتجاج. فيغلق فمه حالاً وينسحب على رؤوس أصابع قدميه.

يغلب النعاس فيليب الذي ثقل جفناه ويحلم بامرأة ريانة عارية تفترس ورق اللعب.

١٦٢٢: سيفيل

- الجرذان -

إن الأب أنطونيو فاسكويز دي اسبينوزا الذي وصل حديثاً من أميركا هو ضيف الشرف. بينما كان الخدم يقدمون قطع الديك الرومي مع الصلصة اندفعت موجات زبدية في الجو وجننت العاصفة بحراً أبيض مرتفعاً وحين جيء بالدجاجات المحشية سقطت أمطار استوائية على المائدة. يروي الأب أنطونيو أن المطر يسقط عنيفاً على الساحل الكاريبي حتى أن النساء يحملن ويولد أبنائهن وهم ينتظرون توقفه، وحين يتوقف يكونون قد كبروا.

يأكل الضيوف الذين سحرتهم القصة والمأدبة ويصمتون، يمتلئ فم الكاهن بالكلمات وينسى الطعام. يستمع الأولاد والنساء الجالسون على الوسائد وكأنهم في قداس.

كان العبور من ميناء هوندوران في تروجيللو إلى سانلوكار دي باراميدا عملاً فذاً. تابعت السفن طريقها وهي تصطدم ببعضها، تعذبها رياح عنيفة باردة. ابتلع البحر الغاضب عدة سفن والتهمت أسماك القرش كثيراً من البحارة. ولكن لم يكن هناك شيء أسوأ من الجرذان، قال الأب أنطونيو هذا وهو يخفض صوته.

ملأ الله السفن بالجرذان ليعاقب الذين ارتكبوا ذنوباً كثيرة في أميركا والذين لا يكثرثون بالإعتراف أو بالعشاء الرباني كما يجب أن يفعلوا قبل أن يصعدوا إلى السفن. وضعها في المخزن بين المؤن وتحت مؤخرات السفن وتحت قاعة الكوثل وفي القمرات وعلى مقعد القبطان. كانت جرذاناً كبيرة وكثيرة أثارت الخوف والإعجاب. سرقت الجرذان أربعة قنطارات خبز من الحجرة التي كان الكاهن ينام فيها بالإضافة إلى البسكويت الذي كان تحت باب القبو. افترست لحم الخنازير وجوانب قطع اللحم المقدد في المخزن الصدري لمؤخرة السفينة. وحين ذهب المسافرون الظامئون ليلبثوا عن الماء وجدوا جرذاناً غارقة تعوم في الصحاريج. وحين ذهب الجائعون إلى خن الدجاج، كان كل ما عثروا عليه هو العظام والريش وربما على دجاجة زاحفة بقدمين مقروضتين. لم تنج حتى الببغاوات وهي في أقفاصها. وبدأ البحارة يراقبون الماء والطعام المتبقيين ليلاً ونهاراً مسلحين بالهراوات والسكاكين فهاجمتهم الجرذان وعضت أيديهم وأكلت بعضهم.

وصلت الجرذان إلى الزيتون والفاكهة إلا أن الحلويات بقيت سليمة ولم تلمس قطرة من الخمرة.

- «هل ترغبون بسماع الصلوات الجديدة التي ألقتها؟ بما أن الصلوات القديمة لم تُهدئ غضب الرب.؟»

لا يجيبه أحد.

يسعل الرجال ويرفعون المناديل إلى أفواههم. اختفت النساء الواقفات اللواتي كن يصدرن أوامرهن إلى الخدم. كان الذين يستمعون وهم جالسون على الأرض حُولاً وفاغري الأفواه. يرى الأطفال الأب أنطونيو بأنف كبير وأسنان ضخمة وبشارب طويل ثم يحنون رؤوسهم باحثين عن ذيله تحت الطاولة

١٦٢٤ : ليما

- بشر للبيع -

- «إمشي!».
- «أركض!».
- «غني!».
- «ما هي عيوبه؟».
- «افتح هذا الفم!».
- «هل هو سكران أم مشاكس فقط؟».
- «كم تدفع ياسيدي؟».
- «والأمراض؟».
- «يساوي هذا الثمن مرتين».
- «اركض».
- «من الأفضل ألا تغشني وإلا سأعيده».
- «إقفز أيها الكلب».
- «لا تحصل على بضائع كهذه مقابل لاشيء».
- «اجعله يرفع ذراعيه».
- «اجعله يغني جيداً بصوت مرتفع».
- «هل لهذه المرأة أولاد أم لا؟».
- «لنر أسنانها».

يجرونهم من أذن واحدة وسيوشم اسم المشتري على الخدود أو الجبهة وسيكونون أدوات عمل في المزارع وأحواض الصيد والمناجم أو أسلحة في الحرب سيصبحون قابلات وظئرات^(١) يمنحن الحياة ليأخذها الجلادون وحافرو القبور. سيصبحن مغنيات ولحماً للفراش.

(١) - ظئرات: مرضعات لغير أولادهن.

تقع زريبة العبيد إلى اليمين في وسط ليما إلا أن مجلس المدينة صوّت لتوه من أجل إزالتها. سيوضع السود المعروضون للبيع في محجر للأرقاء يقع على الجانب الآخر من نهر ريماك قرب مسلخ «سان لازار». هناك سيصبحون بعيدين عن المدينة بحيث لا تحمل الرياح أبخرتهم المعفنة والمعدية.

١٦٢٤ : ليما

- أسود يسوق أسود -

عرض ثلاثة عبيد أفارقة في شوارع ليما بأيدي موثقة وأعناق مقيدة بالحبل. كان الجلادون، الذين هم أيضاً سود، يمشون خلفهم بعد كل بضعة خطوات تنهال عليهم مائة ضربة سوط وحين يسقطون تخصص لهم ضربات أخرى.

أصدر رئيس البلدية الأمر. لقد أدخل العبيد ورق لعب إلى مقبرة الكاتدرائية وحولوها إلى مقبرة مستخدمين أحجار القبور طاوولات وكان رئيس البلدية يعرف أن هذا الدرس سيكون عبرة لجميع السود الذين أصبحوا وقحين وكثيري العدد ومدمني شغب.

يستلقي الثلاثة الآن في فناء منزل سيدهم. ظهورهم لحم ممزّق. يعوون حين تغسل جراحهم بالبول والرّم.

يلعن مالكنهم رئيس البلدية، يهزّ قبضته ويقسم بأن ينتقم، لأنه لايجوز لأحد أن يلعب ألعاباً كهذه بملكية بشر آخرين.

١٦٢٤ : ليما

- الشيطان يعمل -

يشعّ القمر متألقاً حين تعلن أجراس الكنيسة عن الساعة الواحدة. يغادر خوان موغروفيخو سيردا البار ويسير في ليل ليما المعطر ببراعم أشجار البرتقال.

في تقاطع شارع «باركن» يسمع أصواتاً غريبة أو أصداء، فيتوقف ويصغي.

أسموديو يقول إنه تحرّك عدة مرات منذ أن أبحرت سفينته من سيفيل. لدى وصوله إلى بورتوبيللو سكن في أجساد تجار عديدين يسمّون الخدع القدرة صفقات، والسرقعة عملاً، وأداة فتح الأقفال عصاً للقياس، وعاش في بنما في رجل أعمال دجال بإسم مزيف كان يحفظ غيباً كيف يتصرّف كدوق ومركيز...

- «أخبرني يا أسموديو، هل ينتبه هذا الشخص لقواعد الطبقة الأرستقراطية الحديثة؟».

- «جميعهم يا أمونيو. كان يكذب ولم يدفع أبداً ديونه ولم يزعج نفسه بالوصية السادسة. كان يستيقظ متأخراً دائماً ويتحدث أثناء القداس ويشعر بالبرد طوال الوقت فكّر فقط كم هو قاس أن

يشعر المرء بالبرد في بنما والتي قامت بمحاولة جيدة لتصبح جحيماً. في بنما تتعرق الأحجار، والناس يقولون: أسرعوا بالحساء. سوف تزداد سخونته».

لا يستطيع دون خوان دي موغروفيخو الدائح أن يرى أسموديو أو أمونيو الذين يتحدثان من مكان ما، لكنه يعرف أن أسماء كهذه لا تخطر في حيوات القديسين، ورائحة الكبريت التي لا يمكن أن يخطئ في معرفتها المرء كافية لفهم فحوى هذه المحادثة البليغة. يبسط دون خوان ظهره على الصليب الطويل في تقاطع شارع «باركن» الذي يسقط ظله على الشارع ليبقى بعيداً عن أمونيو وأسموديو، يصلب ويستحضر سريّة من القديسين لتحميه وتنقذه. إلا أنه لا يستطيع أن يصلي لأنه يريد أن يصغي ولن يفقد كلمة واحدة من هذا الحديث.

يقول أسموديو أنه غادر جسد ذلك السيد ليدخل إلى كاهن مرتد عن دينه وبعد ذلك وفي الطريق إلى البيرو وجد سكناً في أحشاء سيدة ورعة كانت مختصة ببيع الفتيات.

- «هكذا وصلت إلى ليما ونصحتك حول العمل في متاهاتها كانت مفيدة جداً. قل لي ماذا يحدث في هذه البراري... هل تجمع الثروات هنا بشكل شريف؟».

- «لو كانت تجمع بشكل شريف، ستكون الجحيم أقل ازدحاماً».

- «ماهي أفضل طريقة لإغراء رجال الأعمال».

- «فقط ضعهم في العمل واتركهم فيه».

- «هل يحب الناس هنا أو يحترمون أسيادهم؟».

- «الخوف».

- «إذاً ماذا عليهم أن يفعلوا ليستمروا؟».

- «لا يستحقون ذلك».

يستحضر دون خوان عذراء «آنتوش» ويبحث عن المسبحة التي نسيها ويمسك بمقبض سيفه بينما تستمر الأسئلة وأجوبة أمونيو السريعة.

- «أخبرني هل يرتدي ثياباً جيدة أولئك الذين يفترضون أنهم أفضل الناس؟».

- «يستطيعون ذلك نظراً لأنهم يجعلون الخياطين منشغلين طوال العام».

- «هل يتذمرون كثيراً؟».

- «في ليما الوقت دائماً مناسب للتذمر».

- «والآن أخبرني لماذا يغيرون في بعض الأسماء؟».

- «أولاً ليتجنبوا قول الحقيقة وثانياً كي لا يسمي أحد القديسين».

تهاجم نوبة سعال دون خوان في تلك اللحظة. يسمع صرخات: «لنذهب! لنهرب!»، وبعد صمت طويل يخلص نفسه من الصليب الذي يحميه. يتحرك بركبتين مرتجفتين نحو شارع «ميرشانت» وبوابات «بروفنسيا». لم يبق من الرجلين المهذارين نفخة دخان واحدة.

١٦٢٤ : سيفيل

- الفصل الأخير من حياة النذل -

يعكس النهر وجه الرجل الذي يستنطقه.

- «ماذا أفعل ببطلتي؟ هل أقتله؟».

يرقص حذاؤه الضيق المتدلي من الرصيف الحجري فوق نهر «كوادالكويفر» يمتلك هذا الرجل عادة أن يهزّ قدميه حين يفكر.

- «يجب أن أقرر. أنا الذي خلقتة وجعلته ابن حلاق وساحرة وابن أخ جلاّد. توجّته أميراً على العالم السفلي للقمل والشحاذين وعلاًفاً للمشنقة».

تشعّ نظارته على المياه المتدرجة نحو الخضرة وتثبت على الأعماق حين يطلق أسئلته: «ماذا أفعل؟ علّمته أن يسرق الدجاج ويستدر الصدقات باسم جراح المسيح. تعلّم مني الغشّ في لعبة الطاولة والورق والمبارزة. بفنوني أصبح دون جوان الراهبات ومهرجاً مشهوراً».

يجعد فرانسيسكو دي كويفيدو أنفه ليجعل نظارته مرتفعة إلى الأعلى: «إنه قراري ويجب أن أتّخذه. لم يوجد أبداً رواية في تاريخ الأدب لم تحتو فصلاً أخيراً».

يمد عنقه باتجاه السفن التي تخفض أشرعتها وهي تقترب من أرصفة المرفأ.

- «لم يعان أحد منه كما عانيت. ألم أجعل جوعه جوعي حين كانت معدته تئنّ وحين لم يكن بوسع المستكشفين أنفسهم أن يعثروا على عينين في رأسه. إذا كان يجب أن يموت دون بابلو، ينبغي أن أقتله إنه مثلي، فلذة بقيت من السنة اللهب».

يحدق من بعيد شاب رث الملابس بالسيد الذي يحكّ رأسه متكئاً فوق النهر. يقول الصبي لنفسه: «لا بد أنه عفريت عجوز، عفريت عجوز مجنون يحاول أن يصطاد بدون سنارة».

يقول كويفيدو في نفسه: «هل أقتله؟ ألا يعرف الجميع أن تحطيم المرايا يجلب النحس؟ هل أقتله؟ لنفترض أنني جعلت الجريمة عقوبة عادلة لما اقترفه في حياته الشريرة؟ سيكون حصة صغيرة للمفتش ورجال الرقابة. إن مجرد التفكير بمتعتهم يلوي معدتي».

يبدأ طيران النوارس. ترسو سفينة قادمة من أميركا. يقفز كويفيدو ماشياً. يتبعه الصبي مقلداً مشيته المتقوّسة.

يتوهج وجه الكاتب. لقد عثر على ظهر السفينة على القدر الملائم لشخصيته؟ إنه سيرسل النذل دون بابلو إلى الآنديز. أين في غير أميركا يمكن أن تنتهي حياته؟ أصبح لروايته خاتمة وهاهو كويفيدو يمشي شارداً في مدينة سيفيل هذه حيث يحلم الرجال بالرحلات والنساء بالعودة إلى الأوطان.

١٦٢٤ : مدينة المكسيك

- نهر من الغضب -

يقذف الحشد الذي يغطي الساحة الرئيسية والسوارع المجاورة اللعنات والأحجار على قصر نائب الملك. تتكسر أحجار الأرصفة والكلمات التي تتهمه بالخائن واللص والكلب ويهوذا على المصاريح والمداخل المحكمة الإغلاق. تختلط الشتائم المنصبة على نائب الملك مع صيحات الابتهاج بكبير الأساقفة الذي عزله من الكنيسة لأنه يضارب بخبز هذه المدينة. كان نائب الملك يخزن لبعض الوقت الذرة والقمح في مخازنه الخاصة ويلعب بالأسعار. يغلي الحشد: «اشنقوه. اضربوه. اضربوه حتى الموت» يطالب البعض برأس الضابط الذي دنس الكنيسة بجرحه لكبير الأساقفة خارجها، آخرون يريدون أن يعدموا «ميخيا» الذي يرأس صفقات عمل نائب الملك والجميع يريدون أن يشووا نائب الملك المحتكر بالزيت.

ترتفع الرماح والعصي والمطارد فوق الرؤوس وطلقات البنادق والمسدسات ترفع أيد لامرئية راية الملك فوق سقف القصر وتعول الأبواق طالبة النجدة لكن لا يأتي أحد لمساعدة نائب الملك المحشور في الزاوية. أغلق سادة المنطقة قصورهم على أنفسهم وهرب القضاة والمسؤولون عبر الشقوق. ورفض الجند أن يطيعوا الأوامر.

لاتقاوم جدران السجن عند الزاوية الهجوم. ينضم السجناء إلى المد الغاضب. تسقط بوابات القصر وتلتهم النار الأبواب ويغزو الرعاع الغرف إعصاراً ينزع ستائر الجدران ويكسر أقفال الصناديق الكبيرة ويلتهم ما يصادفه. هرب نائب الملك مقتعاً كأسقف عبر قناة سرية إلى أبرشية سان فرانسيسكو.

١٦٢٥ : مدينة المكسيك

- ما الذي تحبه في مدينتنا؟ -

يسلي الأب توماس كيج الذي وصل حديثاً نفسه في منتزه «الأميدا». يراقب بعينين جائعتين السيدات وهن يتجولن في نفق بين الأشجار الطويلة. لا يوجد امرأة واحدة ترتدي شالاً أو طرحة تصل إلى تحت الخصر، فمن الأفضل إظهار الأرداف المتأرجحة وتصنع المشية الجميلة. كان يمشي خلف كل سيدة مجموعة من النساء السود والخلاسيات الجذابات تظهر أثداؤهن من تقويرات فساتينهن. ومن أجل الإثارة والدعابة يثبتن أزهاراً على أحذيتهم العالية الكعب ويلففن على جباههن عصابات حريرية عليها كلمات مطرزة.

يصل القس إلى القصر محمولاً على ظهر هندي.
يقدم له نائب الملك الأناس والشوكولاته الحارة ويسأله ما الذي يحبه في المدينة.
قاطع المضيف مديح الأب كيچ للمكسيك ولنسائها وعرباتها وأزقتها قائلاً: «هل تعرف أنني أنقذت حياتي بشعرة؟ وشعرة من رجل أصلع في ذلك..».
تنبثق من فم نائب الملك جداول أخبار عن انتفاضة العام الماضي.
بعد الكلام عن الدخان الكثير والدم وبعد صحنين آخرين من الشوكولاتة يعرف الأب كيچ أن نائب الملك أمضى عاماً في أبرشية سان فرانسيسكو ومايزال غير قادر على الخروج من القصر خوفاً من أن يجازف بتلقي وابل من الأحجار. على أية حال، إن كبير الأساقفة المرتد يعاني من عقوبة النقي في «زامورا» البائسة والبعيدة وأرسل بعض القسيسين للتجذيف في السفن وكان شق ثلاثة أو أربعة من المشاغبين كافياً لسحق وقاحة العامة.
يقول نائب الملك: «لو كان الأمر بيدي لشنق الجميع». ينهض عن كرسيه ويعلن: «الجميع! جميع سكان هذه المدينة اللعينة». يعود إلى الجلوس ثانية. ثم يتنفس ويقول: «إن هذه الأراضي جاهزة دائماً للتمرد. لقد نظفت شوارع المكسيك من العصابات».
يضيف بثقة وهو يمسك عنقه: «أتعرف شيئاً ما؟ أبناء الإسبان، الذين ولدوا هنا... من كان على رأس التمرد؟ لقد كانوا هم. الكريبوليون! يعتقدون أنهم يملكون البلاد ويريدون أن يحكموا...».
يحدث الأب كيچ بعيني متصوف إلى الشمعدان الكريستالي الذي يهدد بلطم رأسه ويقول: «لقد أسأؤوا إساءة مجحفة بحق الله.. إنها سدوم ثانية.. لقد رأيتها بأعيني هذا المساء.. إنها متعة أرضية...».
يهز نائب الملك رأسه مؤكداً.
يمرّ القس جملة: «سوف يقطعون عاجلاً كالعشب. سوف يذبلون كما تذبل الأعشاب الخضراء».

يتناول رشفة الشوكولاته الأخيرة.

يضيف وهو يضع الكوب الصغير في صحنه بهدوء: «هذا ما ينصّ عليه المزمور السابع والثلاثين».

١٦٢٥ : ساماياك

- رقصات هندية منعت في غواتيمالا -

يعلن القساوسة أنه لم يبق ذكرى أو أثر للطقوس والعادات القديمة في إقليم فيراباز.. إلا أن أصوات المنادين في البلدة تصبح خسنة وهي تعلن تعاقب مراسيم الحظر.
يصدر الآن خوان مالدونادو القاضي الملكي قوانين جديدة ضد رقصات مؤذية لصيادي الهنود ولحفظ القانون المسيحي الذي يقرّون به، لأن رقصات كهذه تحضر إلى الذهن تضحيات قديمة

وطقوساً مسيئة لإلهنا. إن الهنود يبذرون الأموال على الريش وآنية الشرب التي تمنعهم من العمل في المزارع ومن دفع الجزية والحفاظ على منازلهم.

إن أي شخص يرقص رقصة «التن» سيجلد مائة جلدة. في رقصة التن يبرم الهنود عقداً مع الشيطان. إن «التن» أو «رابينال آشي» هي رقصة خصب ممسحة بالكلمات والأقنعة. والتن هو أيضاً جذع شجرة أجوف ترافق قرعه أصوات أبواق طويلة صدّاحة، حين تستمر مسرحية ابن الكويتشين، سجين «الرابيناليين» يرقص المنتصرون ويغنون تمجيداً لعظمة المقهور الذي يودّع أرضه توديعاً مشرفاً ويصعد إلى المحرقة حيث سيقدم أضحية.

١٦٢٦ : بوتوسي

- إله الخصب -

تتطوفن البحيرة، تهدم السدّ وتغزو المدينة. يحطّم الطوفان أشياء كثيرة إلى أشلاء. تجرّ البغال أشلاء البشر خارج الوحل. ينتهي مزيج من الإسبان والكريبولييين والهجن والهنود في قبور مشتركة. تبدو منازل بوتوسي جثثاً محطمة.

لا يهدأ غضب بحيرة «كاريكاري» إلى أن ينظم القساوسة عرضاً لمسيح الصليب الحقيقي. تهدأ المياه حين ترى الموكب يقترب. سمعت هذه المواعظ نفسها من جميع منابر البيرو في تلك الأيام: «أيها المذنبون، إلى متى ستلعبون ألعابكم مع رحمة الرب؟ إن صبر الرب لانهائي. إلى متى أيها المذنبون؟ ألم تكفكم التحذيرات والعقوبات؟».

ليس انفجار بحيرة بوتوسي شيئاً جديداً في هذه البقاع العريضة الخصبة. سقطت منذ خمسة وأربعين عاماً صخرة كبيرة على مجموعة من السحرة الهنود في «آتشوكالا» التي تقع على بعد بضعة فراسخ من مدينة «لاباز». كان الناجي الوحيد هو الزعيم الذي أصيب بالخرس وروى القصة بالإشارات. دفنت صخرة أخرى مجموعة من الهراطقة الهنود بعد وقت قصير في «ياناأوكا» قرب «كوزكو». بعد عام انفتحت الأرض وابتلعت الرجال والمنازل في «آركوبيا»، وبما أن المدينة لم تتعلم من هذا الدرس أظهرت الأرض مخالبتها بعد فترة وجيزة ولم تترك شيئاً منتصباً سوى أبرشية سان فرانسيسكو وفي عام ١٥٨٦ اجتاح المحيط مدينة سان ماركوز دي أريكا وجميع مرافئها وشواطئها. حين بدأ القرن الجديد، ثار بركان آبيناس. كان غضبه عظيماً إلى درجة أن رماده عبر سلاسل الجبال براً ووصل إلى شواطئ نيكاراغوا بحراً.

ظهر نجمان محذران في هذه السماء عام ١٦١٧ ومكثا رافضين الذهاب. أخيراً تحركا بعيداً. شكراً للأضحيات ولوعود المؤمنين في جميع أنحاء البيرو الذين صلّوا التاسوعية^(١) بدون توقف.

(١) - التاسوعية: عبادة تستمر تسعة أيام.

١٦٢٨ : شيباس

الشوكولاتة والأسقف -

لا يضع فلفلاً أسود كالذين يعانون من مشاكل في الكبد لا يضيف الذرة لأنها تسبب انتفاخاً في البطن. يضيف بسخاء القرفة التي تساعد على إفراغ المثانة وتقوي البصر والقلب لا يستثني الفلفل الحار المطحون جيداً. يضيف ماء زهر البرتقال والسكر الأبيض ومسحوقاً شجرياً ليمنح اللون ولا ينسى أبداً حفنة اليانسون وحفنتين من الفانيلا ومسحوق زهرة الإسكندرية.

يعبد الأب كيچ الشوكولاتة المزبدة المحضرة جيداً. إذا لم تغمس الحلويات والمرزبانية^(١) في الشوكولاته لن يكون لها نكهة. يحتاج كوباً من الشوكولاتة في منتصف الصباح ليخرج، وكوباً آخر بعد العشاء لينهض عن الطاولة وآخر ليتمدد في الليل ويصدّ النعاس.

منذ أن وصل إلى شيباس لم يلمسها. يحتجّ بطنه، إلا أن الأب توماس يفضل أن يعيش بشكل سيء بين الدوخات والاعماءات إذا كانت تجنبه القدر الذي قتل الأسقف بيرناردو دي سالازار. حتى وقت متأخر، كانت نساء هذه المدينة تذهب إلى القُدّاس مع مجموعة من الخادومات والوصيفات اللواتي بالإضافة إلى حمل الوسائد المخملية، يحملن كانوناً وأداة للتسخين وكأساً لتحضير الشوكولاتة. ولأن للنساء معداً حساسة، لا يتحملن عناء الصلاة بدون الإكسير الساخن الذي ما يزال جزءاً من القُدّاس الأكبر. هكذا كان الأمر إلى أن قرّر الأسقف بيرناردو دي سالازار أن يحظر هذه العادة بسبب الفوضى التي سببتّها في الكنيسة.

انتقمت السيدات، ومات الأسقف في صباح أحد الأيام في مكتبه. وعند قدميه كانت قطع الكوب الذي قدّمه أحدهما له، تستلقي مبعثرة.

١٦٢٨ : مدريد

- دم أزرق للبيع -

وقع الأسطول الإسباني في يد القرصان بيت هن مقابل شاطئ ماتنزاس في كوبا. ستذهب كلّ الفضة القادمة من المكسيك والبيرو إلى هولندا. رُفّع «هن» في أمستردام إلى أميرال فخري وحُضّر له استقبال كأنه بطل قومي. من الآن فصاعداً سيغني الأطفال الهولنديون:

بيت هن، بيت هن

إسمك قصير

لكنّ شهرتك طويلة.

(١) - المرزبانية: حلوى من مسحوق اللوز والسكر وزلال البيض.

في مدريد تحكّ الرؤوس لم يبق سوى ثقب في الكنز الملكي.
 يقرّر الملك من ضمن إجراءات الطوارئ الأخرى أن يعرض في السوق ألقاب النبلاء للبيع. تمنح النبالة للأعمال المميّزة. وما هو العمل الأكثر تميّزاً من الحصول على المال لدفعه من أجل ذلك؟ يستطيع أيّ عاميّ أن يستيقظ في الصباح نبيلاً له نسب عريق بأربعة آلاف دوقية والذي كان البارحة ابن يهودي أو حفيد مسلم يستطيع أن يبدأ يومه بدم نقي.
 إلا أنه يمكن الحصول على الألقاب الثانوية بثمن أقل. يوجد في قشتالة كثير من النبلاء الذين سيخرجون رافعين مؤخراتهم إلى الأعلى إذ لم تغطّهم أرديتهم، سادة عظمة وهمية يعيشون وهم يزيلون أوساخاً غير مرئية عن جركيناتهم^(١) وشواربهم: إنهم يقدمون للذي يدفع ثمناً أعلى حق استخدام كلمة «دون» والتي هي كل ما تبقى لديهم.
 أولئك الذين فقدوا مكانتهم في العالم يشتركون مع أولئك الذين يركبون عربات فضية بالإحساس بالشرف والحنين إلى العظمة وبالرعب من العمل – والتسوّل أقل قيمة – وباحتقار الإستحمام الذي هو عادة المغاربة والإستحمام غريب عن الدين الكاثوليكي ويُغضب محاكم التفتيش.

- أغنية عن اليد الأنديّة تغنى في إسبانيا -

يذهب المرء إلى روندا من أجل الإجاّص
 ومن أجل التفاح إلى أرغوناليس
 يذهب إلى الآنديز ليجمع نقوداً
 وإلى سييرا لارتكاب الحماقات.

ذهب زوجي إلى الآنديز
 لينهي بؤسه:
 جاء ليخبرني أخباراً كثيرة
 وبأشياء ثمينة قليلة من أجل الصرف.

ذهب زوجي إلى الآنديز
 وأحضر لي خنجراً

(١) - جركينة: سرة طويلة ضيقة لا كمين لها.

عليه نقش يقول :

إذا أردت أن تأكل يجب أن تعمل.

يذهب الرجال إلى الآنديز

من أجل قبرة ذهبية.

إنهم يمتلكون الآنديز ها هنا

إذا أردوا فقط أن يعملوا.

١٦٢٩ : لاس كانكريخيراس

- باسكونان -

يصرّ رأسه ويتألم. ممدّداً في الوحل وسط كومة من الموتى، يفتح نونيز دي بينيدا عينيه : العالم لوحة من الدم والوحل ملطخة بالمطر الذي يدوم ويرتدّ ويطرطش ويرتدّ

يرمي الهنود أنفسهم عليه. يمزقون درعه وخوذته الحديدية التي بعجتها الضربة التي صرعه ثم يعروّنه. يصلّب فرانسييسكو قبل أن يقيدوه إلى جذع شجرة.

تسفع العاصفة وجهه. يتوقف العالم عن الدوران. يخبره صوت من داخله عبر صرخات الآروكانيين: «أنت في مستنقع في إقليم تشيلان، في أرضك، تشيلي. هذا المطر هو الذي رطب بارودك وهذه الرياح هي التي أطفأت فتائلك. لقد خسرت. أصغ لهؤلاء الهنود الذين يتجادلون حول طريقة موتك».

يتمتم فرانسييسكو صلاته الأخيرة.

فجأة تتطاير مجموعة من الريش الملون عبر المطر. يفسح الآروكانيون طريقاً للحصان الأبيض الذي يخرج من منخريه ناراً متفجرة ومن فمه زبداً. يهمز الخيال المقنّع بخوذة حصانه بشدة. يقف الحصان على قائمته أمام «موليكان» المنتصر. يخيم الصمت على الجميع.

يفكر فرانسييسكو : «إنه الجلاّد. انتهى كلّ شيء الآن».

يقول الخيال المريش شيئاً ما لموليكان. يسمع فرانسييسكو فقط صوت المطر والريح. ولكن حين يختفي الخيال يفك موليكان وثاق الأسير وينزع رداءه ويغطيه به.

بعد ذلك تعدو الأحصنة إلى الجنوب.

١٦٢٩ : ضفاف نهر البيو - بيو

- بوتابيتشون -

يشاهدون حالاً حشداً يتقدم من ناحية الجبال البعيدة. يخز موليكان حصانه ويتقدم ليلتقي بالزعيم بوتابيتشون.

كان مع المجموعة القادمة من سلاسل الجبال أسير يتعثّر بين الأحصنة مقيداً من عنقه بحبل. ينصب بوتابيتشون رمحه الثلاثي الرؤوس على التلة المسطحة. يفك وثاق الأسير ويرمي غصناً على قدميه.

- «سمّ القادة الثلاثة الأكثر شجاعة في جيشكم».

يتلعثم الجندي: «لأعرف».

يأمر بوتابيتشون: «سمّ واحداً».

- «لأذكر».

- «سمّ واحداً»

يسمى والد فرانسيسكو.

- «سمّ آخر».

يسمى آخر. ويؤمر بأن يكسر غصناً مع كل إسم. يراقب فرانسيسكو المشهد وأسنانه تصطك. يسمي الجندي إثني عشر قائداً. يحمل إثني عشر غصناً في يده.

- «إحفر حفرة الآن».

يرمي الأسير الأغصان في الحفرة واحداً بعد آخر مكرراً الأسماء.

- «ألق عليها وسخاً وغطيتها».

يقول بوتابيتشون بعد ذلك: «لقد دفن القادة الشجعان الإثنا عشر الآن؟».

يضرب الجلاّد الأسير بهراوته المليئة بالمسامير. ينتزعون قلبه، ويدعون موليكان إلى تجرع جرعة الدم الأولى. يعوم دخان التبغ في الجو حين يمر القلب من يد إلى أخرى.

بعد ذلك يقول بوتابيتشون السريع في الحرب البطيء في الكلام لموليكان: «جننا لنشتري القائد الموجود معك... نعرف إنه ابن الفارو، الزعيم الكبير الذي جعل أرضنا ترتجف».

يقدم له إحدى بناته ومائة خروف قشتالي وخمس لامات وثلاثة أحصنة وسروج وعدة عقود من الحجر الثمين. سيكفي هذا لشراء عشرة إسبان.

يبتلع فرانسيسكو لعابه. يحدّق موليكان بالأرض، بعد برهة يقول: «يجب أن آخذه إلى أبي أولاً وإلى الزعماء الآخرين لإقليمي «ريبوكورا» أريد أن أريهم غنيمة شجاعتي».

يقول بوتابيتشون: «سننتظر».

يفكر فرانسيسكو: «إن حياتي هي فقط موت بعد آخر». تطنّ أذناه.

١٦٢٩ : ضفاف نهر امبريال

- موليكان -

«هل استحممت في النهر؟ اقترب من النار. أنت ترتجف. اجلس واشرب. تعال أيها القائد هل أنت أصم؟ وتحدث لغتنا كواحد منا؟.. كل واشرب. أمامنا رحلة طويلة. ألا تحب الشيك؟ ألا تحب لحمنا غير المملح؟ طبولنا لا ترقص قدميك؟. أنت محظوظ أيها القائد الولد. أنتم بشر يحرقون وجوه الأسرى بالحديد الذي لا يمحي أثره. أنت سيء الحظ أيها القائد الولد. إن حريتك الآن ملكي. أنا آسف عليك. اشرب. اشرب. انزع هذا الخوف من قلبك لن أبيعك أبداً. إن قدرك في يد إله العالم والإنسان. إنه عادل. اشرب. أكثر؟ قبل أن تصل الشمس سنكون في ريبوكيورا. أريد أن أشاهد والدي واحتفل. إنه عجوز. عاجلاً ستذهب روحه لتأكل البطاطا السوداء هناك خلف القمم الثلجية. أسمع وقع خطى الليل؟ أجسادنا نظيفة وقوية للبدء بالرحلة. الخيول تنتظرنا. قلبي يخفق بسرعة أيها القائد الولد. أسمع قرع طبول قلبي؟ أسمع موسيقا سعادتي؟

١٦٢٩ : إقليم ريبوكيورا

- لتقول وحداً -

قمرأ بعد قمر مر الزمن. سمع فرانسيسكو وتعلم الكثير في سنوات أسره. لقد تعلم ، ويوماً ما سيكتب الجانب الآخر من هذه الحرب التشيلية : هذه الحرب العادلة التي شنها الهنود ضد الذين خدعهم وأخطأوا معهم واسترقوهم وفعلوا ما هو أسوأ من ذلك.

يصلي فرانسيسكو في الغابة راکعاً أمام صليب مصنوع من الأغصان. سيذهب الليلة إلى حصن ناسيمينتو. سيستبدل هناك بثلاثة زعماء آروكانيين أسرى. سيحرسه في الرحلة مائة رمح.

يمشي الآن نحو المقر. تنتظره في أجمة الأشجار دائرة من المعاطف الرثة والوجوه الموحلة. تمر الفراولة أو شيكا التفاح من فم إلى آخر.

يتلقى المبجل «تيريوبيلان» غصن القرفة الذي هو الكلمة ويرفعه ثم يمدح طويلاً كلاً من الزعماء الحاضرين يمدح موليكان، المحارب الباسل الذي ربح أسيراً مهماً في المعركة وعرف كيف يأسره حياً.

يقول تيريوبيلان : «حين حملنا سلاحنا ضد الطغاة الإسبان الذين اضطهدونا وأذلونا فقدت شعوري بالعطف نحوهم فقط في المعركة. لكن حين رأيتهم كأسرى فيما بعد سبب لي هذا ألماً وحرزاً عظيماً وآلم روحي أنني أدرك أننا في الحقيقة لانكرههم كأشخاص، إلا أننا نكره جشعهم وقساوتهم وغرورهم».

يلتفت إلى فرانسييسكو قائلاً: «وأنت أيها القائد الصديق والرفيق الذي سيرحل بعيداً ويتركنا متألّمين وحزينين بدون عزاء لاتنسانا». يسقط تيرويوبيلان غصن القرفة في وسط الدائرة ثم يهز الآروكانيون الأرض بضربات أقدامهم.

١٦٣: موتوسينتل

- لن يخونوا موتاهم -

كان فراي فرانسييسكو برافو يعظ في قرية موتو سينتل لمدة عامين تقريباً. أخبر الهنود في أحد الأيام أنه استدعي إلى إسبانيا. قال إنه يرغب بأن يعود إلى غواتيمالا ويبقى فيها إلى الأبد مع قطيعه الذي يحبه إلا أن رؤساءه في إسبانيا لن يسمحوا له. قال فراي فرانسييسكو: «إن ما يمكن أن يقنعهم هو الذهب فقط». قال الهنود: «لانملك ذهباً».

صحّ القسيس: «نعم تملكون.. أعرف أن هناك ذهباً مخبأ في موتوسينتل». شرحوا له: «ليس هذا الذهب لنا. إنه لأسلافنا. نحن فقط نعتني به ثم إذا فقد منه شيء ماذا سنقول لهم حين يعودون إلى الحياة؟». - «أعرف فقط ماذا سيقول رؤسائي في إسبانيا. سيقولون: إذا كان هنود القرية التي تريد أن تمكث فيها يحبونك، فلماذا أنت فقير؟».

اجتمع الهنود ليناقدشوا المسألة.

في أحد أيام الأحد، يعصبون عيني فراي فرانسييسكو ويدورون به إلى أن يدوخ. ذهب الجميع خلفه من الشيخ الأكبر إلى الرضيع. حين يصلون إلى مؤخرة الكهف يزيحون العصابة عن عينيه. ينبهر القس، وتتألم عيناه من لمعان الذهب. كان يوجد ذهب أكثر من كنوز ألف ليلة وليلة ولم تعرف يداه المرتجفتان أين تبدآن. حوّل رداءه إلى حقيبة وحمل ما قدر عليه. بعد ذلك أقسم بالله وبالكاتب المقدسة أنه لن يكشف السرّ أبداً ثم منحوه بغلاً وكعكات ذرة كزاي في رحلته.

بعد مرور فترة من الزمن تلقى القصر الملكي في غواتيمالا رسالة من فراي فرانسييسكو برافو أرسلها من ميناء فيراكروز. قال إنه يؤدي واجبه رغم أن هذا يؤلم روحه بأن يقدم خدمة للملك تتعلق بقضية مهمة ومميّزة مرتبطة بنوع من العمل. وصف الموضع المحتمل للذهب: «أعتقد أنني ابتعدت عن القرية قليلاً. كان هناك جدول يجري في جهة اليسار». وضع في الظرف بعض الحينّات ووعد أن يستخدم ما تبقى من أجل روح قديس في «ملقة».

يندفع القضاة والجنود على ظهور خيولهم إلى موتو سينتل. يطلب القاضي خوان مالدونادو الذي يرتدي رداء أحمر ويحمل صولجاناً أبيض، من الهنود أن يسلموا الذهب.

يعدمهم ويضمن لهم المعاملة الحسنة.
يهتددهم بالعقوبات.
يسجن بعضهم.
يعذب البعض الآخر بأدوات تعذيب خشبية.
يجبر البعض على الصعود على درجات منصة الإعدام،
ولا يحظى بشيء.

١٦٣: ليما

- ماريّا، ملكة ظهور السفن -

تقول ماريّا ديل كاستيللو وهي تطلق تنهيدة: كل يوم تحدث مشاكل كثيرة ولا يأتي زوج. يُقدّم عند قدميها عامل المسرح والملقن والممثلة النجمة العزاء ويمنحونها النسائم من مراوحهم. اعتقل حراس محكمة التفتيش خوان من بين ذراعي ماريّا في الغسق المتلبّد وزجوه في السجن لأن الألسنة المسمومة قالت إنه قال بينما كان يستمع إلى الإنجيل: «أوه.. كل ما يوجد فيه هو الحياة والموت».

قبل بضع ساعات في الساحة الرئيسية وفي الشوارع الأربعة التي تؤدي إلى زاوية التاجر، أعلن الزنجي لازارو أوامر نائب الملك الجديدة بخصوص المسارح.

يأمر نائب الملك الكونت تشينشون بأن يفصل حائط من الطوب النساء عن الرجال في المسرح تحت طائلة العقوبة إذا جلس أي شخص في منطقة الجنس الآخر. يجب أيضاً أن تتوقف المسرحيات الكوميديّة بوقت أبكر حين تقرر الأجراس من أجل الصلاة ويجب أن يغادر الرجال والنساء من أبواب مختلفة كي لا يتم ارتكاب اعتداءات خطيرة ضدّ الربّ، أبيتنا، كما يحدث غالباً في ظلام المعبر الضيق وقرّر نائب الملك أنه إذا لم يكن هذا كافياً فيجب أن يُخفّض سعر البطاقات. تصرخ ماريّا: «لن ينال مني أبداً. مهما حاصرني لن ينال مني».

حافظت ماريّا ديل كاستيللو، الزعيمة العظيمة للمسرح الكوميدي في ليما على حيويتها وجمالها اللذين جعلها مشهورة وماتزال بعد ستين عاماً تسخر من المحجبات اللواتي يظهرن عيناً واحدة، وبما أن عينيها جميلتان فإنها تنظر وتغوي وتخيف بوجهها المكشوف. كانت طفلة تقريباً حين اختارت هذه المهنة السحرية وكانت تسحر الناس من على مسرح «ليما» منذ نصف قرن. أوضحت أنها حتى لو أرادت فإنها لاتستطيع أن تحوّل المسرح إلى دير لأن الله لن يتزوجها بعد ثلاث زيجات استمتعت بها بشكل كامل.

عالم جديد قديم

رغم أن المفتشين جرّدها من زوجها ورغم أن مراسيم الحكومة تحاول إخافة الجمهور، تُقسم ماريّا أنها لن تنام مع نائب الملك.
- «أبدأ، أبدأ».

ضدّ الجحيم والمياه العالية وحيدة وبنفسها سوف تستمر في تقديم أعمالها الجريئة في مسرحها الكوميدي خلف أبرشية سان أوغسطين. بعد وقت قصير ستحيي مسرحية الراهبة الملائمة. التي كتبها الإسباني الساخر المشهور خوان بيريز دي مونتالبان وستنتج مسرحيتين جديدتين لاذعنين لكي يرقص الجميع ويغنون ويمتلئون بالعواطف في هذه المدينة المضجرة التي لا يحدث فيها شيء.

١٦٣١ : غواتيمالا القديمة

- أمسية موسيقية في دير كونسيبسيون -

تغني جوانا وهي تعزف على العود في حديقة الدير. ضوء أخضر. نسيم أخضر: كان الهواء ميثاً إلى أن لمستته بكلماتها وموسيقاها.

جوانا ابنة القاضي مالدونادو الذي يوزّع الهنود على المزارع والمناجم والمشاغل. كان مهر زواجها ليسوع ألف دوقية وستة عبيد سود كرسوا لخدمتها في الدير. حين تغني جوانا كلماتها وكلمات الآخرين يصغي العبيد الذين يجلسون بعيداً منتظرين.

لا يستطيع الأسقف الجالس أمام الراهبة أن يسيطر على عينيه. ينظر إلى رأس جوانا المنحني فوق المزمار، إلى حنجرتها العارية، إلى فمها المتوهج الفاجر ويأمر نفسه بأن يلزم الهدوء. إنه مشهور بأنه لا يغير تعابير وجهه أبداً حين يمنح قبلة أو عزاء. إلا أن هذا الوجه الثابت يرتدي الآن تقطبية يلتوي فمه ويرفّ جفناه، يبدو نبضه الصارم غير منسجم مع اليد التي تحمل كأس خمرة وهي مرتجفة.

كانت الألحان، مدائح الخالق أو اتهامات التجديف تصعد بين الأوراق. في الخلف، كان ينتصب بركان الماء الأخضر. يودّ الأسقف أن يركّز على حقول الذرة والحنطة والينابيع التي تتدفّق على المنحدرات.

ذلك البركان يأسر المياه. كلّ من يقترب منه يسمع هيجانات. كما يحدث في إناء ماء يغلي. كانت آخر مرة تقيّاً فيها منذ أقل من قرن فأغرق المدينة التي أسّسها بدرو دي ألفارادو في سفوحه. هنا ترتجف الأرض في كلّ صيف واعدة بالغضب. هنا تعيش المدينة في قلق وتوتر بين بركانيين يقطعان نفسها: واحد يهدّد بالطوفان والآخر بالجحيم.

خلف الأسقف، يقع البركان الناري مواجهاً للبركان المائي. يمكن أن يقرأ المرء على ضوء ألسنة اللهب الصاعدة من فمه رسالة على بعد فرسخ واحد. يسمع من وقت لآخر رعد كأنه قصف

مدافع عديدة ويقصف البركان العالم بالأحجار: يطلق الصخور الضخمة التي لا يستطيع أن يحركها عشرون بغلاً ويملاً السماء بالرماد والهواء بزئج الكبريت. يحلق صوت الفتاة.

ينظر الأسقف إلى الأرض راغباً أن يعدّ النمل إلا أن عينيه تنزلقان على قدمي جوانا اللتين يخبئهما حذاؤهما ويكشفهما بطريقة ما. تحلق عيناه فوق الجسد المتناسق الذي يخفق تحت العباءة البيضاء بينما تستيقظ ذاكرته فجأة وتعود به إلى الطفولة. يتذكر الأسقف تلك الاندفاعات التي لا يمكن السيطرة عليها والتي كان يشعر بها ليعض خبز القربان المقدس في منتصف القداس ويتذكر هلعه من أن ينزف ثم يبدأ بحراً من الكلمات غير المنطوقة والرسائل غير المكتوبة والأحلام التي لم تروَ أبداً.

بعد وهلة، يصدر الصمت صوته. يلاحظ الأسقف وهو يجفل أن جوانا توقفت لبعض الوقت عن الغناء واللعب. ستريح الزمار على ركبتيهما وتنظر إلى الأسقف بابتسامة عريضة، بتلك العينين التي لاتستحقهما حتى هي. يعوم عطر أخضر حولها. يعاني الأسقف من نوبة سعال. يسقط اليانسون على الأرض ويؤلم يديه من التصفيق ثم يصرخ. - «سأجعلك الأم الرئيسية للدير. سأجعلك رئيسة الدير».

- دو بيتتات شعبية للعاشق الخجول -

أريد أن أقول ولا أريد
أنا أتحدث دون أن أنطق بكلمة.
أريد أن أحب ولا أريد.
وأنا أحب دون أن يسمعني أحد.
يعتريني ألم لا أعرف أين موضعه.
ولا أعرف سببه.
ولا أعرف متى سيشفيني منه
شخص ما نسيت اسمه.

في كل مرة تنظرين إلي
وأنا إليك
بعيني أقول
ملا أقوله.
وبما أنني لأجذك
أبحث لأذكرك.

١٦٣٣ : بينولا

- المجد لله في الأعمال -

إن برغوث الرمل^(١) أصغر من برغوث عاديّ وأشرس من نمر يدخل من القدمين وبصرعك إذا حككت. إنه لا يهاجم الهنود بيد أنه لا يرحم الأجانب.

حاربه الأب توماس كيج لمدة شهرين عندما يحتفل بنصره على البرغوث يوطد إقامته في غواتيمالا إنه لن يتذمر من أي شيء لولا البرغوث نرحب به القرى بالأبواق تحت مظلات من الأغصان والأزهار يمتلك ما يريده من الخدم ويقود سانس حصانه من لجامه.

يجمع راتبه في الوقت المناسب فضة وقمحا وذره وكاكوا ودجاجاً ويُدفع له بشكل منفصل مقابل القداسات الني يتلوها هنا في بينولا والمكسيك. هذا بالإضافة إلى عمليات التنصير والخطوبات والدفن والصلوات التي يؤديها رداً على دعوات لمحاربة الجراد والأوبئة أو الزلازل. وبالمقارنة مع ما يعطى للقديسين الكثيرين الذين يرأسهم وأولئك الذين يعملون أثناء عيد الميلاد وعيد الفصح يأخذ الأب كيج أكثر من ألفي «أسكود» كل عام دون أن يقوم بأي عمل. بالإضافة إلى الخمرة والملابس مجاناً.

يأخذ القسيس راتبه من الجزية التي يدفعها الهنود لدون خوان دي كوزمان مالك هؤلاء الرجال وهذه الأراضي بما أن المتزوجين فقط يدفعون الجزية، والهنود سريعون في نشر الفضيحة وفضوليون. يجبر المسؤولون الأطفال الذين هم في سن الثانية عشرة والثالثة عشرة على الزواج، ويزوجهم الكاهن بينما أجسادهم ماتزال تنمو.

١٦٣٤ : مدريد

- من كان يختبئ تحت مهد زوجته؟ -

يقرّر المجلس الأعلى لمحكمة التفتيش الذي يدقّق بمسألة نقاء الدم أنه سيجري تحقيقاً دقيقاً جداً مع موظفيه قبل أن يتزوجوا.

يجب على جميع من يعمل في محكمة التفتيش ومن الحمال إلى النائب العام، إلى المعذب والجلاد والطبيب ومساعد الطاهي أن يوضحوا نسب المرأة التي يخنارونها لمدة قرنين وذلك لتجنب الزواج من المرضى.

وهؤلاء المرضى هم كل من يوجد فيه قطرات من الدم الهندي أو الأسود أو كل من ينتمي أجدادهم أو أجداد أجدادهم إلى الدين اليهودي أو الثقافة الإسلامية أو لهم أية علاقة بأية هرطقة.

(١) - برغوث الرمل: هامة من جنس دود الجبن تورث لسعتها حكاكاً شديداً وتنقر الجلد.

١٦٣٦ : كويتو

- النصف الثالث -

أمضى الصياد الكبير ورئيس الحكومة وملك الحب وطاولة الورق والقدّاس أكثر من عشرين عاماً في منطقة كويتو. إن الجميع يمشون أو يركضون وفق سرعة حصانه.

اكتشف مجلس الآنديز في مدريد أنه مذنب ارتكب ستة وخمسين جنحة، إلا أن الأنباء السيئة لم تكن قد عبرت المحيط بعد. يجب أن يدفع غرامة الحانوت الذي افتتحه في الفناء الملكي لبيع الحرير والنسيج الصقيل الذي هرب، وغرامة الفضائح التي لاتحصى مع النساء المتزوجات والأرامل والعذارى وغرامة المقمرة التي افتتحها في منزله في غرفة التطريز قرب الكنيسة الصغيرة التي كان يمارس فيها عبادته كلّ يوم. لقد ربح دون أنطونيو دي مورغا من قلب ورق اللعب مائتي ألف بيزو هذا دون أن نحصى بطولات أصابعه الرشيقة الغشاشة (لقد حكم أنطونيو على عدد كبير من الهنود بأن يمضوا بقية حياتهم مقيدين إلى الأنوال، وذلك بسبب ديون تبلغ عشر قطع نقدية).

إلا أن قرار مجلس الآنديز لم يكن قد وصل إلى «كويتو» بعد: لكنّ هذا لم يكن الشيء الذي يقلق دون أنطونيو.

يقف في غرفته عارياً أمام المرأة المؤطرة بالذهب ويرى شخصاً آخر. ينظر إلى جسده البقري ولا يعثر عليه. كان يتدلى تحت البطن المترهل وبين الساقين النحيلتين صامتاً، المفتاح الذي عرف التوافق مع أقفال أنثوية كثيرة.

يبحث عن روحه إلا أن المرأة لا تحتوي عليها. من الذي سرق النصف المقدّس من الرجل الذي قدّم المواعظ للربّان وكان أكثر قداسة من الأسقف؟ من الذي سرق بريق عينيه اللتين تشبهان عيني المتصوّف؟ كان يوجد فقط ظلمة وتجاويد فوق اللحية الشائبة.

يتقدّم دون أنطونيو دي مورغا إلى الأمام إلى أن يلمس المرأة، ويسأل عن نصفه الثالث. يجب أن يكون هناك منطقة لاذت إليها الأحلام التي حلم بها مرة ونسيها. يجب أن يكون هناك مكان تستعيد فيه العينان اللتان أعطبهما النظر الكثير، ألوان العالم، وتستعيد فيه الأذنان اللتان هما الآن صمّاوان تقريباً ألحانه. يبحث عن ذوق لم يختف عن رائحة لم تتلاش، عن دفء تستطيع اليد أن تشعر به.

لا يعثر على أيّ شي تمّ انقاذه أو يستحق الإنقاذ. تعكس المرأة فقط رجلاً عجوزاً فارغاً سيموت الليلة.

١٦٣٧ : مصب نهر سوكراي

- ديبغيلو -

تعلم الأب توماس كيج منذ بضعة أيام كيف ينجو من التماسيح. إذا هربت من التماسيح بشكل متعرج فإنها ترتبك لأنها تستطيع أن تسبح فقط في خط مستقيم.

لكن لم يعلمه أحد كيف ينجو من القراصنة. لكن هل يوجد أحد يعرف فعلاً كيف ينجو من تلك السفن الهولندية الكبيرة وهو يبحر في فرقاطة بطيئة غير مسلحة؟

تخفض الفرقاطة أشرعتها في البحر الكاريبي وتستسلم. تستلقي روح الأب كيج منبطحة أكثر انكماشاً من الأشرعة. كان يوجد معه في السفينة المال الذي جمعه في الإثني عشر عاماً التي قضاها في أميركا يحارب انتهاك المقدسات ويسحب الموتى من الجحيم

تأتي المراكب الصغيرة وتذهب. يأخذ القراصنة اللحم والطحين والعسل والدجاج والدهون والجلود. يأخذون تقريباً جميع الثروة التي يحملها القس من الذهب والالآء. إلا أنه بقي شيء منها داخل المخدة لم يستولوا عليه لأنهم احترموا فراشه.

يستقبله زعيم القراصنة الخلاسي الجبار في حجرته. لا يقدم سوى مقعد وكأس من الرّم. يتدفق عرق بارد على عنق القس ويجري على ظهره. يتجرّع جرعة سريعة كان قد سمع عن هذا الكابتن ديبغيلو. يعرف أنه اعتاد أن يقوم بالقرصنة تحت أوامر المخيف «بيكليك»، إلا أنه الآن يشتغل لوحده بإجازة قرصنة من الهولنديين. يقولون أن «ديبغيلو» يقتل كي لا يفشل في تحقيق هدفه.

يتوسّل القس. يتطايّر اللعاب من فمه وهو يقول إنه لم يبق معه شيء سوى رداثه الذي يرتديه. يعيد القرصان ملء كأسه ويخبر عن سوء المعاملة التي تعرّض لها حين كان عبداً لحاكم «كامبيتشي».

«ما تزال أمي عبدة في هافانا. ألا تعرف أمي؟ إنها تمتلك قلباً طيباً يا للمسكينة - يكللك بالعار».

يعوي القس: «أنا لست إسبانياً. أنا انكليزي». يكرّر كلامه عبثاً. «إن بلادي ليست عدوة لك. ألا تجمع علاقة ودية بين بريطانيا وهولندا؟».

يقول القرصان: «إربح اليوم واخسر غداً». يحبس في فمه جرعة كبيرة من الرّم ويرسلها ببطء عبر حنجرته.

يأمره وهو ينزع سترته ويكشف عن ظهره المرتفع آثار السياط: «انظر».

يشكر القس الله لأنه كان يوجد صخب على ظهر السفينة يغطي على خفقات قلبه الوحشية.

- «أنا انكليزي».

يخفق ويريد في جبهة الأب كيج بيأس. يرفض اللعاب أن يهبط عبر حنجرته.

- «خذني إلى هولنده أتوسل إليك. خذني إلى هولنده من فضلك! لا يمكن أن يتركني رجل كريم هكذا عارياً وبدون...».

يحرّر القرصان بهزة واحدة ذراعه من أيدي القس الألف. يضرب الأرض بقصبة فيدخل رجالان: «أخرجوه من هنا!».

يدير ظهره مودعاً، ناظراً إلى نفسه في المرآة ويقول له: «إذا ذهبت إلى هافانا في أي وقت، ابحث عن أمي، اذكرني أمامها. قل لها... قل لها: أنا بخير».

حين يعود إلى فرقاطته يشعر الأب كيج بتشنج في معدته. الأمواج تنشط والقس يلعن الذي قال هناك في «جيزديلا فورنتير» منذ اثني عشر عاماً إن اميركا مرصوفة بالذهب والفضة وأنه عليك أن تمشي بحرص كي لا تدوس على الألماس.

١٦٣٧: خليج ماسا تشوسيتس

- الله رجل إنكليزي -

قال الورد وراعي الأرواح جون إلر منذ بضعة أعوام إن الله رجل إنكليزي ويقول جون وينثروب مؤسس مستعمرة خليج ماستشوسيتس أن الإنكليز يستطيعون أن يستولوا على أراضي الهنود شرعياً كما فعل أبراهام مع اللواتيين: إن كل ما هو مشاع ليس ملكاً لأحد. إن هذا الشعب المتوحش يحكم أراضي كثيرة دون لقب أو ملكية. إن وينثروب هو رئيس البيوريتانيين الذين وصلوا في سفينة آرابيلا منذ أربعة أعوام. جاء مع أبنائه السبعة. ودّع جون كوتون الحجّاج في مرفأ ساوثمبتن مؤكداً لهم أن الله سيظهر فوق رؤوسهم ويقودهم من إنكلترا القديمة، أرض الآثام إلى أرض الميعاد.

جاء البيوريتانيون ليشيدوا قدساً جديدة على قمة هضبة. قبل «الأرابيلا» بعشرة أعوام، وصلت «زهرة أيار» إلى بليموث في وقت كان قد وصل فيه إنكليز آخرون جائعون للذهب إلى شواطئ فيرجينيا جنوباً. تهرب الأسر البيوريتانية من الملك وأساقفته. تخلف وراءها الضرائب والحروب والجوع والأمراض. إنها تهرب أيضاً من الخطر الذي يهدّد في تغيير النظام القديم وكما يقول وينثروب، محامي كامبردج الذي ولد في مهد نبيل: «إن الله جَلّ جلاله رتب بعنايته الأكثر قداسة وحكمة الوضعية البشرية بطريقة، كما في جميع الأزمنة، تقتضي أن يكون البعض أغنياء والبعض في أعلى مراكز القوة والهيبة وأن يكون الآخرون وضعاء وخاضعين».

لأول مرة شاهد الهنود جزيرة عائمة. كانت الصارية شجرة والأشعة غيوماً بيضاء. حين توقفت الجزيرة خرج الهنود في قواربهم ليقطفوا الفراولة، إلا أنهم وجدوا الجدري بدلاً من الفراولة.

التهمت الجدري القبائل الهندية ونظفت الأرض لرسل الله ، للذين اختارهم الله ، لشعب إسرائيل على رمال الأرض الكنعانية. الذين عاشوا هنا أكثر من ثلاثة آلاف عام يموتون كالذباب. يقول وينثروب . «أرسل الله الجدري ليلزم المستعمرين الإنكليز باحتلال أراضٍ أفرغها المرضُ من سُكَّانها».

١٦٣٧ : حصن ميستك

- من وصية جون أندرهل

بخصوص المجزرة التي ارتكبتها ضد هنود بيكوت.

لم يعرفوا شيئاً عن مجيئنا. سلّمنا أنفسنا لله ونحن نقترّب من الحصن وتوسّلنا طالبيين مساعدته في مشروع كبير....

لم نستطع سوى أن نعجب بالعناية الإلهية في هذا الأمر، إذ أن الجنود غير الخبراء في استخدام أسلحتهم أطلقوا وابلاً نارياً وكأن إصبع الله لمست الفتيل وحجر القداحة. أُطلقَ الواابل فجراً حين كانوا نائمين فارتعبوا وصرخوا من الحزن وكأن الله لم يصنع قلوب الرجال بشكل يناسب الخدمة، كان لابد أنه ولد فيهم شفقة نحوهم لكن بما أن كل رجل مجرد من الشفقة، تابعوا عملهم دون عطف. سفحوا دم سكان بلدنا الأصليين وتعاملوا معهم بشكل بربري وذبحوا حوالي ثلاثين شخصاً. اقتربنا من الحصن حاملين سيوفنا في أيدينا اليمنى وبنادقنا في اليسرى.

حرق كثيرون في الحصن وأجبر آخرون على الخروج.. استقبلهم جنودنا وتسلّوا بهم بحدّ السيف. سقط الرجال و النساء والأطفال، أما الذين نجوا فقد وقعوا في أيدي الهنود الذين كانوا في مؤخرتنا. لقد رووا ذلك بأنفسهم. كان يوجد في الحصن أربعمئة روح ولم ينج أكثر من خمسة منهم من أيدينا. كان عظيماً ومحزناً بالنسبة للجنود الشبان الذين لم يشاركوا أبداً في حرب أن يشاهدوا أرواحاً كثيرة تشهق على الأرض وكثيفة جداً في بعض الأماكن بحيث لا تستطيع أن تمر إلا بصعوبة. يمكن أن يسألنا أحد ما لماذا كان عليكم أن تكونوا متوحشين؟ ألا يجب أن يمتلك المسيحيون بعض الرحمة والشفقة؟ لكن سأحيلكم إلى حرب داوود. حين يسفح شعب الدم ويذنب ضد الله والإنسان ويشترك الجميع في الفعل هناك يجب ألا يحترم الأشخاص ولكن يجب أن ينكل بهم بالسيف وبأكثر الميئات رعباً. أحياناً يصرّح النصّ المقدس أن النساء والأطفال يجب أن يعانون مع آبائهم وأحياناً تتغيّر الحالة ولكن لن نتنازع حول هذا الآن. نمتلك ضوءاً كافياً من كلام الله من أجل أعمالنا.

١٦٣٩ : ليما

- مارتن دي بوريس -

تدق أجراس كنيسة سانتودومينغو دقة الموت. ففي ضوء الشمعة، مغتسلًا بالعرق، أسلم مارتن دي بوريس روحه بعد عراك طويل مع الشيطان بمساعدة مريم المقدسة والقديسة كاترين، العذراء والشهيدة. مات في فراشه، حيث أسند رأسه إلى حجر بدلاً من المخدة ووُضعت جمجمة إلى جانبه، بينما ركع نائب الملك في ليما وقبّل يده وتوسّل إليه أن يتوسّط له من أجل مكان صغير في الفردوس.

كان مارتن دي بوريس من ذرية عبدة سوداء وسيدها، الذي كان من نسب إسباني نقي والذي لم يحبّها ليستخدمها كأداة، بل ليطبّق المبدأ المسيحي الذي يقول إن الجميع متساوون في الفراش أمام الله.

منح مارتن لأبرشية رهبان دومينيكانيين في سن الخامسة عشرة. هناك قام بأعماله واجترح معجزاته. لم ينصب أبداً كقسّ كونه خلاصياً، إلا أنه يعانق المكنسة بحب ويكنس كل يوم الغرف والأروقة والمشفى والكنيسة. كان يحلق كل يوم بالموسى لمائتي قسّ ويعتني بالمرضى ويوزّع الملابس الجديدة المعطرة بحصى البان^(١).

حين عرف أن الأبرشية أفلست مالياً ذهب ليقابل رئيسه: «سلاماً لك يا مريم».

- «سلاماً لك يا مريم الطاهرة».

عرض عليه: «يجب أن يبيع نيافتكم^(٢) هذا الكلب الخلاسي».

وضع في فراشه شحاذين متقرّحين وصلّى راکعاً على ركبتيه طوال الليل. أضفى عليه ضوء غير عادي لوناً أبيض كالثلج. خرجت السنة لهب بيضاء من وجهه حين عبر الرواق في الليل هارباً كشهاب مقدّس متجهاً إلى عزلة حجرته. مشى عبر أبواب مقفلة وصلّى أحياناً وهو راکع في الهواء مرتفعاً عن الأرض. رافقته الملائكة إلى الكورس حاملة في أيديها شموعاً. قدّم العزاء للأسرى في الجزائر دون أن يغادر ليما وأنقذ أرواحاً في الفيليبين، والصين واليابان، وقرع دون أن يتزحزح من مكانه، ناقوس التبشير شفى الميتين بخرق غمست في دم الديكة السوداء ومسحوق الضفادع وبرقى تعلّمها من أمه. أوقف آلام الأسنان بلمسة إصبع وحول الجراح المفتوحة إلى ندوب والسكر الأسمر إلى أبيض وأطفأ النيران بنظرة فتوجّب على الأسقف أن يمنعه من اجترّاح معجزات كثيرة بدون إذن.

(١) - حصى البان: نبات عطر من الفصيلة الشفوية.

(٢) - نيافة: لقب شرف لرئيس أساقفته.

بعد صلوات الصبح سيشقّ ظهره بسوط مصنوع من جلد ثور فيه عقد سميكة ويصرخ وهو ينزف: «أيها الكلب الخلاسيّ الشرير، كم ستطول حياتك المذنبة؟». يطلب دائماً الصفح بعينين متوسلتين غاصتين بالدموع، كان أول إضافة داكنة الجلد إلى قائمة الكنيسة الكاثوليكية المقدّسة الناصعة البياض كالزنبق.

١٦٣٩: سان ميغيل دي توكومان

- من بيان شجرة الأسقف توكومان أرسل إلى محكمة التفتيش في ليما -

بالحقيقة والإخلاص الذي يجب أن تخاطب بهما محكمة مقدّسة، أشجب المبجل، أسقف توكومان دي سافيردا الذي سمعت عنه أشياء منيرة للشك بشكل خطير في ديننا الكاثوليكي المقدّس والتي هي منتشرة في الأبرشية كلها. لقد حدث في «سالتا» أثناء احتفالات تثبيت العمادة أن جاءت فتاة جميلة وقال لها: «من الأفضل أن تنتزع قداسك بدلاً من أن تؤكّد». وأنه حدث في قرطبة العام المنصرم ١٦٣٨ أن جاءت فتاة أخرى فقال لها، وبحضور بشر عديدين وهو يرفع رداءه: «أخرجي يجب ألا أعمدك من الأسفل بل من الأعلى». ولقد تعايش مع الأولى بدون زواج بشكل معروف.

١٦٣٩: بوتوسي

- وصية رجل أعمال -

ينتأ أنف الكاتب بالعدل من خلال الستائر. تفوح رائحة غرفة النوم بالشمع والموت. يمكن أن تشاهد في ضوء الشمعة الوحيدة الجمجمة تحت جلد الرجل الذي يحتضر.
- «ما الذي تنتظره أيها العقاب؟».

لا يفتح رجل الأعمال عينيه إلا أن صوته يعلو بحزم.
يقول متنهداً: «لقد تناقشتُ أنا وظليّ». ثم يأمر الكاتب بالعدل: «يجب ألا تضيف أو تحذف أي شيء، أسمعني؟. سأمنحك طيوراً يبلغ ثمنها مائتي بيزو، بحيث تستطيع أن تطير بريشها وبالريش الذي تكتب به إلى الجحيم، هل تسمعني؟ إن كل يوم أعيشه هو وقت مستعار. وكل يوم يمرّ يكلفني أكثر. اكتب. أسرع بالكتابة أيها الرجل. أمر أن يبني بجزء رابع من ثروة الفضة التي

أخلفها، مرحاض كبير في الساحة العامة لكي يمجّدي في كل يوم نبلاء وعامة «بوتوسي». أمر أن يدفن جزء آخر رابع من سبائك الذهبية وقطعي النقدية في ساحة منزلي وأن يوضع على المدخل أربعة كلاب شرسة مربوطة بالسلاسل وأن تزود بكمية كبيرة من الطعام لتحرس هذا الكنز. لايتدلى لسانه. يتابع الكلام دون أن يأخذ نفساً: «وأوصي أن يطبخ طعام عباي الجودة بجزء آخر رابع من ثروتي ويوضع في آنيتي الفضية ويدفن في حفرة مع كل شيء تبقى في موضع حفظ اللحوم لأنني أريد أن تتخم الديدان نفسها حتى تمرض كما ستفعل بي. وأمر...». يحرك سبّابته راسماً ظلاً كالهراوة على الجدار: «وأمر أن لا يحضر أحد كائناً من كان جنازتي وأن ترافق جثتي جميع البغال الموجودة في بوتوسي مزينة بأعلى الألبسة وأفضل المجوهرات ويفعل هذا بالجزء المتبقي من ثروتي».

- يقول الهنود -

الأرض مالك؟ كيف حصل هذا؟ كيف تُشترى؟ إذا لم تكن لنا، إذن ماذا حدث؟ نحن منها. نحن أبناؤها. هكذا كان الأمر دائماً. الأرض حيّة وتغذي الديدان كما تغذيها. لها عظام ودم. فيها حليب وهي ترضعنا. لها شعر وعشب وقش وأشجار. تعرف كيف تنجب البطاطا. تنجب المنازل تنجب الناس. تعتني بنا ونعتني بها. تشرب الشيكات وتقبل دعوتنا. نحن أبناؤها. كيف إذاً يمكن أن تباع؟ كيف يمكن أن تُشترى؟

١٦٤: ساو سلفادور دى باهيا

- فييرا -

يطلق الفم شرراً وهو يتفوه بالكلمات المهلكة كقذائف المدافع. إن أخطر خطيب في البرازيل هو قس برتغالي نشأ في «باهيا» وهو باهي إلى روحه.

غزا الهولنديون هذه الأراضي وأنطونيو فييرا الجزويتى يسأل الأرستقراطيين المستعمرين: «ألسنا سوداً بالنسبة للهولنديين كما هم الهنود بالنسبة إلينا؟».

من على المنبر يوبّخ لورد الكلمة لوردات الأرض والشعب قائلاً: «أجعلني سيداً أنني ولدت بعيداً عن الشمس ويجعل الآخريين عبيداً أنهم ولدوا قربها؟ لا يوجد سوء فهم فادح كهذا وخطأ فادح في الحكم كهذا بين البشر».

في كنيسة آيودا الصغيرة، أعرق كنيسة في المكسيك، يتهم أنطونيو فييرا أيضاً الله الذي أذنب بمساعدة الهولنديين الغزاة: «رغم أننا جميعاً مذنبون يا إلهي، أنت يجب من يتوب اليوم».

١٦٤١ : ليما

- آفيل -

حقّق مع آلاف مؤلفة من الهنود دون أن يجد أحداً منهم برتياً من الهرطقة. دمر الأوثان والمعابد، أحرق المومياءات حلق الرؤوس وسلخ الظهور بالسوط. أثناء مروره، طهرت ريح الإيمان المسيحي البيرو.

وصل القسّ فرانسيسكو دي آفيل إلى سن الخامسة والسبعين ليجد أن قوته تخونه. إنه نصف أصم ووثابه تؤله ويقرر أن لا يغادر العالم قبل أن يحصل على ما كان يريد منذ أن كان طفلاً. وهكذا يقدّم طلباً ليدخل إلى صحبة يسوع.

يقول الكاهن الجزويتي أنطونيو فاسكويز: «لا».

«لا»، لأنه رغم أنه يدّعي بأنه رجل متعلّم ولغوي كبير فإن فرانسيسكو آفيل لا يستطيع أن يخفي وضعه كهجين.

١٦٤١ : موروري

- الإرساليات التبشيرية -

المماليك قادمون من إقليم سان بابلو. يتقدّم صائدو الهنود، ملتهم الأراضي على إيقاع الطبول رافعين علمهم. يتقدّم منفذو الأمر العسكري كعاصفة من الرياح الحربية عبر البارغواي. يحملون حبلاً طويلة بياقات للهنود الذين سيصطادونهم. ويبيعونهم عبيداً في مزارع البرازيل.

كان المماليك أو قطاع الطرق يدمرون طوال أعوام كثيرة إرساليات الجزويتيين. لم يبق شيء من البعثات التبشيرية الثلاث عشرة في غويرا سوى الأحجار والفحم. خرجت مجموعات تبشيرية جديدة في هجرة جماعية (سفر خروج) نحو اتجاه مجرى نهر «البارانا» إلا أن الهجمات لم تتوقف. يجد الثعبان في البعثات التبشيرية الطيور مجتمعة وسمينة، آلاف الهنود المدربين على العمل والبراءة، غير مسلحين، ومن السهل اصطيادهم. يتقاسم الكورانيون حياة منظمة تحت رعاية الأساقفة دون ملكية خاصة أو نقود أو عقوبات قتل بدون رفاه أو ندرة ويتقدمون إلى العمل وهم يغنون على ألحان المزمارة. لا تفيد سهامهم المصنوعة من قصب السكر في وجه بنادق المماليك الذين يختبرون شفرات سيوفهم بقطع الأطفال إلى نصفين ويحملون أودية الكهنة الممزقة وقوافل من العبيد كغناتم حرب.

لكن مفاجأة تنتظر الغزاة في هذا الوقت. أمر ملك إسبانيا الذي خاف من هشاشة هذه الجبهات منح الكورانيون الأسلحة النارية. يهرب المماليك مشتتين.

يتصاعد ريش الدخان وأغاني المديح لله فوق المنازل. هذا الدخان الذي ليس صاعداً من المباني المحترقة بل من المداخل، يحتفل بالنصر.

صديق: ١٦٤١

- الأبدية ضد التاريخ -

يقضم كونت ودوق أوليفاريس قبضتيه ويطلق اللعنات. يصدر أوامر كثيرة بعد عشرين عاماً من الأعمال والتعطيل في المحكمة، إلا أن خطوة الله أقوى.

كان مجلس اللاهوتيين قد رفض مشروعه بفتح قناة تصل بين نهري تاكوس ومنزناريس والتي سترحب بها سهول قشتالة. ستبقى الأنهار كما خلقها الله وستنتهي مخططات المهندسين كاردوشس ومارتيللي في الملفات.

أعلن في فرنسا أن قناة «لأنكويديوك» ستفتتح حالاً لتصل بين البحر الأبيض المتوسط ووادي «غارون». أثناء ذلك وفي إسبانيا التي غزت أميركا يقرر مجلس اللاهوتيين: «إن كل من يحاول أن يحسن كل ما أرادته العناية الإلهية أن يبقى غير مكتمل يذنب ضدها. لو كان الله يرغب في أن يجعل الأنهار صالحة للملاحة لجعلها كذلك».

١٦٤٤: جيمس تاون

- أوكانكانوف -

قبل أن يطلق جندي إنكليزي النار على ظهره، يسأل أوكانكانوف نفسه: «أين الحارس اللامرئي لخطواتي؟ من الذي سرق ظلي؟».

حين وصل سنه إلى المائة هزم. جاء إلى ساحة المعركة محملاً على محفة.

أخذه الأميرال بدرو ميندينيز دي آفيلز إلى «كاديوز» منذ ثمانين عاماً. قدمه في بلاط الملك فيليب الثاني قائلاً: «هنا أمير هندي رائع لفلوريدا»، ألبسوه بنطالاً قصيراً وسترةً وطوقاً. علّموه في أبرشية دومينيكانية في سيفيل لغة ودين قشتالة ومنحه نائب الملك في المكسيك اسمه فأصبح اسم أوكانكانوف لوي دي فيلايسكو. عاد فيما بعد إلى أرض أجداده مترجماً ودليلاً لليسوعيين. ظن قومه أنه عاد من الموت. بشر بالمسيحية وبعد ذلك نزع ثيابهم وذبح اليسوعيين وعاد إلى اسمه القديم.

قتل الكثير منذ ذلك الوقت ولم يشاهد إلا قليلاً. رأى قرى وحقولاً تلتهمها النار وأخوته يباعون إلى الذي يدفع الثمن الأعلى، في هذا الإقليم الذي عمّده الإنكليز باسم فيرجينيا تخليداً

لذكرى ملكة عذراء روحياً. رأى رجالاً ابتلعتهم الجدي وأراضي التهمها التبغ المستعبد. شاهد سبع عشرة قبيلة من القبائل الثمانية والعشرين التي كانت هنا تكتسُ عن الخارطة ورأى آخرين منحوا الخيار بين الشتات أو الحرب رَحَب ثلاثون ألف هندي بالبحارة الإنكليز الذين وصلوا إلى خليج «تشيسابيك» في صباح عذب من عام ١٦٠٧. بقي منهم فقط ثلاثة آلاف على قيد الحياة.

١٦٤٥ : كويتو

- مريم المسيح -

يحلّ عام من الكوارث في المدينة. يتدلّ قوس أسود على كل باب. لقد غزت ودمّرت الجيوش اللامرئية للحصبة والخناق. خيم الليل تماماً بعد الفجر وانفجر البركان «بيتشينشا»، ملك الثلج: تقياً كمية كبيرة من الماغما والنار سقطت على الحقول واعصاراً من الرماد - «مذنبون، مذنبون!».

يقذف الأب ألونزودي روخاس اللهب من فمه كالبركان. على المنبر المتوهج لكنيسة اليسوعيين المشيدة من الذهب يضرب الأب ألونزو على صدره الذي يرجع الصدى وهو يبكي ويصرخ صاخباً: «اقبل يا إلهي تضحية الأكثر تواضعاً بين خدمك اجعل لحمي ودمي يكفران عن ذنوب «كويتو».

بعد ذلك تنهض امرأة شابة عند قدم المنبر وتقول: «أنا».

تعلن مريم أمام الناس الذبن ملأوا الكنيسة أنها هي المختارة. سوف تهدى غضب الله. سوف تتحمل جميع العقوبات التي تستحقها مدينتها.

لم تعرف مريم السعادة أبداً ولم تحلم بأنها كانت سعيدة. ولم تنم أكثر من أربع ساعات كل يوم. كانت المرة الأولى التي لمسَ فيها رجل يدها حين أصيبت بالحمى. قرّرت وهي طفلة أن تصبح عروس الله ومنحته حبها ليس في الدير فحسب، بل في الشوارع والحقول، وليس بالتطريز وصناعة الحلوى والمربيات في الأديرة بل بالصلاة ركوعاً على الأشواك والحجارة وهي تبحث عن خبز للفقراء وعلاج للمرضى وعن ضوء اللراتعين في ظلمة الجهل بالقانون الإلهي.

تشعر مريم أحياناً أن صوت المطر أو صوت النار يدعوها، إلا أن صوت رعد الله يعلو أكثر دائماً: إله الغضب، الذي له لحية من الأفاعي وعينان من البرق، والذي يظهر عارياً في أحلامها ليختبرها.

تعود مريم إلى البيت. تتمدد في فراشها وتجهز نفسها للموت بدلاً من الجميع. تدفع لتحصل على صفح الله. تقدّم جسدها له ليأكل ودمها ودموعها ليشرب حتى يدوخ وينسى.

بهذه الطريقة سيتوقف المرض وسيهدأ البركان وتكفّ الأرض عن الإرتجاف.

١٦٤٥ : بوتوسي

- قصة إستيفانيا،

امراة بوتوسي المذنبه -

(عرض موجز للأحداث نقله بارتولومي آرزانز أورسواري ميلا)

ولدت إستيفانيا في البلدة الملكية واكتسبت جمالاً تعجز الطبيعة عن زيادته. غادرت الشابة الجميلة المنزل في سن الرابعة عشرة متأثرة بنصائح نساء أخريات ضالّات. حين شاهدت أمها هذا التصميم البغيض الذي دفع ابنتها إلى الرحيل أسلمت روحها بعد بضعة أيام. لم يجعل هذا الأمر الفتاة تعود إلى الطريق المستقيم. بعد أن فقدت سابقاً كنز عذريتها المجاني بدأت تلبس ثياباً فضائحية وأصبحت مذنبه علنية مثيرة للفضائح.

بعد أن طالت السمعة شقيقها استدعاها إلى منزله وقال: «مهما تأملت يجب أن تسمعينني. إن استمرارك في هذه الخطايا المهلكة سيجعلك عدوة لله وعبدة للشيطان وستلطخين نبالتك وتسيئين إلى شرف سلالتك. فكّري أيتها الأخت. إن ما تفعلينه يخرج من هذه القذارة خافي الله وتوبي». أجابت إستيفانيا: «ماذا تريد مني أيتها المنافق؟». حين وبّخها شقيقها تناولت بسرعة هائلة خنجراً كان معلقاً على الجدار وهجمت عليه بوحشية شيطانية قائلة: «هذا هو الجواب الوحيد الذي تستحقه كلماتك». تركته ميتاً في بحيرة من الدم. قنّعت بعد فترة فعلها السيء بالتظاهر بالحزن وارتدت ثياباً سوداء وعبرت عن أحزانها الكثيرة.

نجح والدها المتقدم في السن والمتأسف على موت ولده الطيب وفضيحة ابنته السيئة في التصدي لها بكلمات مقنّعة، استمعت إليها الفتاة القاسية القلب ضد إرادتها وبدلاً من أن تصلح نفسها، اشمازت من العجوز، أشعلت ليلاً النار في سقف منزله، قفز العجوز المتألم من فراشه صارخاً بأعلى صوته: «حريق! حريق!»، إلا أن الأعمدة التي تدعم السقف انهارت والتهمه العنصر المريع. بعد أن وجدت نفسها حرة كرّست إستيفانيا نفسها للآثام والخطايا بفسوق أكبر.

جاء إلى بوتوسي في تلك الأيام رجل من إسبانيا. كان تاجراً غنياً، جاء في سفينة شراعية إلى البيرو ولفت انتباهه جمال وفتنة المذنبه. أغراها. بينما كانا يتمتعان بفحشهما قرّر عاشق سابق للسيدة مسلّح بجميع أصناف الأسلحة أن ينتقم لهذه الإساءة.

وجد العاشق السابق المرأة وحيدة إلا أنها كبحت روحه الغاضبة بكلمات مخادعة وحين هدأت غضبه أخرجت سكيناً من كمّها بسرعة كبيرة وطعنته فسقط المسكين ميتاً على الأرض.

ذكرت إستيفانيا الحادثة للتاجر الغني. هدّد بعد عدة شهور وبعد أن عذّبته الغيرة كثيراً أن يحاكمها من أجل الجريمة. في تلك الأيام ذهباً ليستحما في بحيرة «تارابايا». خلعت ثيابها

الفاخرة كاشفة ثلج جسدها المنقّط باللون القرمزي الجميل ورمّت نفسها في الماء عارية. تبعها التاجر السعيد، وعندما أصبحا في وسط البحيرة دفعت رأس الرجل المنحوس في الماء بكل قوة ذراعيها.

لا يظنّ أحد أن أفعالها الشنيعة انتهت هنا. بضربة سيف واحدة أنهت حياة سيّد من دم نقيّ وقتلت إثنين آخرين بالسّم الذي دسّته في وجبة الغذاء. أنهت ألعابها الماكرة حياة الآخرين بطعنات سيف في الصدور وأفرحها أن هذا الدم كله يسفك من أجلها.

واستمر الأمر إلى عام ١٦٤٥ حين سمعت المرأة المذنبة موعظة ألقاها الأب فرانسيسكو ماتينو خادم الله الذي كانت فضائله المثيرة للإعجاب ممتعة جداً في ذلك الوقت في بوتوسي. كان حزن إستيفانيا كبيراً فبدأت تبكي وترخي جداول الدموع من عينيها مطلقة تنهدات عظيمة. وشهقات بدت وكأنها تمزّق روحها وحين انتهت الموعظة رمت نفسها على قدمي الكاهن متوسلة من أجل الإعراف.

حثّها الكاهن على التوبة وغفر لها إذ أنه معروف بشكل جيد بأية سعادة تسلم النساء أنفسهم ليدي الأفعى وذلك عائد إلى ذنوب موروثّة منها تلك التي أغرت آدم. نهضت إستيفانيا عن قدمي كاهن الاعتراف كأنها ماجدولين أخرى وحين كانت في طريقها إلى البيت - آه للمذنبة السعيدة - اكتسبت مظهر مريم الأكثر قداسة التي قالت لها: «يا ابنتي لقد صفح عنك. توسلت لإبني من أجلك لأنك صليت في طفولتك وأنت تحملين مسبحتي».

١٦٧: سانتياغو - تشيلي

- منع لعبة الهنود التشيليين -

يعلن القائد العام دون مارتن موخिका منع لعبة «الشويكا» التي يلعبها الأروكانيون وفق تقاليدهم ضاربين كرة بعصي محنية في ساحة محاطة بأغصان خضراء.

يعاقب بمائة جلدة الهنود الذين لا ينفذون الأمر وتفرض ضرائب على الآخرين لأن لعبة «الشويكا» السيئة انتشرت بشكل واسع بين الجنود الكريبوليين.

يقول مرسوم القائد العام أن المنع فرض ليتم تجنب الذنوب المخالفة لشرف الله أبينا ولأن مطاردة الكرة تدرب الهنود على الحرب وتسبب اللعبة إزعاجات وبعد ذلك تأتي السهام. يقول القرار إنه من غير اللائق أن يتجمّع الرجال والنساء عراة تقريباً من أجل اللعبة، لا يرتدون شيئاً سوى الريش وجلود الحيوانات التي يعقدون عليها آمالهم في الربح. يستحضرون في بداية اللعبة الآلهة لتدعم شجاعتهم وسرعة أقدامهم وفي النهاية يشرب الجميع وهم يتعانقون محيطات من شراب «الشويكا».

١٦٤٨ : أوليندا

- مغني المدفع -

كان طفلاً حين اقتادوه من قريته الأفريقية ورحلوه بحراً من لواندا وباعوه في ريسيف. كان رجلاً حين فرّ من حقول القصب ولاذ إلى أحد المعاقل التابعة للسود في الماريس.

حالما دخل الهولنديون إلى البرازيل وعد البرتغاليون أن يعتقوا كل من يقاتل من العبيد ضد الغزاة. قرّر الهاربون إلى الماريس أن الحرب ليست حربيهم ولم يكن يهم كثيراً إذا كان الذين يحملون السوط في حقول القصب وطواحين السكر برتغاليين أم هولنديين. إلا أن «هنريك دياز» ذهب وتطوّع وأصبح قائداً لفوج من السود الذي يقاتلون من أجل التاج البرتغالي في شمال شرق البرازيل. منحه البرتغاليون لقب نبيل.

أرسل القائد هنريك دياز من أوليندا رسالة تهديد إلى الجيش الهولندي المتمركز في «ريسيف». قال فيها: إن فوجه يتألف من أربعة أمم. من المينيّين والآرديين والأنغوليّين والكريبوليّين. وهؤلاء المينيّون حاقدون لا يعرفون الخوف ومتوحشون تخضع سمعتهم من لا يستطيعون الوصول إليهم. والآرديون غاضبون يريدون أن يقطعوا الجميع بضربة واحدة والأنغوليّون خشنون لا يتعبهم العمل. فكروا الآن إذا لم يكن الرجال الذي حطّموا كل شيء مقدّر عليهم أن يحطّموا كل هولندا.

١٦٤٩ : هريم، قديسة قبيلة الهورن

- لغة الأحلام -

يفكر الأب راغوينو وهو يراقب هنود «الهورن» يحيطون بالهدايا والطقوس رجلاً حلم البارحة حلمًا غامضاً ويقول: «إنهم مساكين». تضع القبيلة الطعام في فمه وترقص له تضربه الشابات ويدلكنه بالرماد. بعد ذلك يتحلق الجميع وهم جالسون ويبدؤون تفسير الحلم. يطاردون الحلم بصور لامعة أو كلمات ويتابع هو القول: «لا لا!»، إلى أن يقول شخص ما: «النهر». ثم ينجح الجميع في التقاطه: النهر، جدول غاضب، امرأة وحيدة في زورق. فقدت المجذاف. يجرفها النهر بعيداً. تسأل إحدى النساء: «أهذه أنا؟»، تسأل أخرى. تدعو القبيلة المرأة التي تخترق عيناها الرغبات الأكثر غموضاً لتفسّر رموز الحلم. حين تشرب شاي الأعشاب العطرية تستحضر العسارة روحها العارفة وتفك رموز الرسالة.

يؤمن هنود الهورن مثل جميع شعوب «الأوركوا» أن الأحلام تحوّل الأشياء الأكثر وضاعة إلى رموز حين تلمس بأصابع الرغبة. يؤمنون أن الأحلام هي لغة الرغبات غير المتحققة ويستخدمون

كلمة «أوندينوك» من أجل الرغبات السرية للروح التي لا تعرفها اليقظة. وتأتي الرغبات السرية في الرحلات التي تقوم بها الروح حين يكون الجسد نائماً.

يفكر الأب راغوينيو: «مساكين».

يعتبر الهورنيون كل من لا يحترم ما تقوله الأحلام أنه يرتكب جريمة كبيرة. يأمر الحلم. إذا لم ينفذ الحالم الأوامر تغضب الروح وتمرضُ الجسدُ أو تقتله. تعرف جميع شعوب «الأوركوا» أن المرض يمكن أن يجيء من الحرب أو الصدفة أو من الساحرة التي تغرز أسنان الدب أو نتف العظام في الجسد، إلا أنه أيضاً يجيء من الروح حين ترغب بشيء ولا يمنح لها. يناقش الأب راغوينيو الموضوع مع يسوعيين فرنسيين آخرين يبشرون في المنطقة يدافع عن هنود كندا: «من السهل أن ننعت باللادين ببساطة كل ما هو غباء...».

يرى بعض الكهنة قرني الشيطان يبزغان من هذه الخرافات مرتعبين لأنه عند نزع قبعة سوف يحلم الهنود ضد الوصية السادسة وسينغمسون في اليوم التالي في طقوس الشفاء العريضية. ينتقل الهنود عراة وينظرون إلى بعضهم ويلمسون بعضهم بحرية شيطانية ويتزوجون ويطلقون متى شاؤوا. ويكفي أن يأمر الحلم ليبدأ الإحتفال الذي هو دائماً مناسبة لارتكاب الذنوب المسعورة. لا يستطيع الأب راغوينيو أن ينكر أن الشيطان يستطيع أن يجد أرضاً خصبة في هذا المجتمع الذي هو بلا قضاة أو شرطة أو ملكية حيث تتقاسم النساء القيادة مع الرجال ويعبدون سوية آلهة مزيفة إلا أنه يصّر على البراءة الأساسية لهذه الأرواح البدائية التي ما تزال تجهل شريعة الله.

وحين يرتجف اليسوعيون الآخرون من الهلع لأن بعض الأوركوانيين يمكن أن يحلموا في إحدى الليالي بقتل كاهن، يتذكر راغوينيو ما حصل سابقاً عدة مرات وأنه حين حصل هذا، كل ما كان ضرورياً هو أن تجعل الحالم يمزق رداءً وهو يرقص حلمه في إيماء غير مؤذ.

يقول الأب راغوينيو: «هذه عادات غبية إلا أنها ليست إجرامية».

- قصة إركوية -

إنها تثليج في الخارج وفي وسط المنزل يتحدث الحكواتي المسن ووجهه إزاء النار. يصغي الجميع جالسين على جلود حيوانية وهم يخيطنون الثياب ويصلحون الأسلحة.

يقول العجوز: «لقد نمت الشجرة الفاتقة الحسن والبهاء في السماء. امتدت جذورها البيضاء الأربعة في جهات أربع. ولدت جميع الأشياء من هذه الشجرة...».

يروى العجوز أنه في أحد الأيام اقتلعت ريحُ الشجرة من جذورها. من الثغرة التي فتحت في السماء سقطت زوجة الزعيم العظيم حاملة حفنة من البذار. أحضرت لها سلحفاة التربة في درعها

فاستطاعت أن تزرع البذار وهكذا بزغت النباتات الأولى التي منحتنا الطعام. فيما بعد أنجبت المرأة فتاة كبرت وأصبحت زوجة الريح الغربية. نفخت الريح الشرقية الكلمات في أذنيها.. يروي الحكواتي الجيد قصة ويجعلها تحدث. تهبُّ الريح الغربية الآن على المنزل الكبير، تدخل من المدخنة ويحجب الدخان جميع الوجوه.

يعوي الأخ الذئب الذي علّم «الإوروكوانيين» أن يجتمعوا سوية ويصغوا. إنه وقت النوم. في أحد الصباحات لن يستيقظ الحكواتي. إلا أن واحداً من الذين سمعوا قصصه سيرويها للآخرين. وفيما بعد سيموت هذا الشخص أيضاً وستبقى القصص حية طالما توجد منازل كبيرة وبشر مجتمعون حول الموقد.

- أغنية عن الأغنية للأوروكوانيين -

حين أغني
يمكن أن يساعدك ذلك
نعم يمكن، نعم.
إنه غناء قوي

حين أغني
يستطيع ذلك أن يوقظها
نعم، يمكن، نعم
إنه غناء قوي

حين أغني ينبسط ذراعها
نعم، يمكن ذلك، نعم
إنه غناء قوي.

حين أغني
يتمدّد جسدها
نعم، يمكن ذلك. نعم
إنه غناء قوي.

١٦٥٠ : مدينة المكسيك

- الغزاة والمغزؤون -

تتدلى شارة العائلة بأبهة على الحديد المزخرف فوق البوابة وكأنها فوق مذبح. ينطلق سيد المنزل في عربة من خشب الماهو غاني مع حاشيته من الأتباع والأحصنة المزينة. يتوقف أحد ما في الداخل عن العزف على موتر المقاتيح. يُسمعُ حفيفُ الحرير والأنسجة وأصوات بناتٍ قابلاتٍ للزواج ووقعُ خُطىٍّ على سجّادٍ ناعمٍ مستسلمٍ ثم يُسمعُ رنينُ الملاعق الفضية المنقّشة على الخزف الصيني.

إن مدينة المكسيك هذه، أو مدينة القصور هي من أضخم المدن في العالم. ورغم أنها بعيدة عن البحر، تحضر السفن الصينية والإسبانية بضائعها وفضّتها إلى شمال المدينة. إنّ غرفة تجارتها القوية تنافس تلك التي في سيفيل. ومن هنا تتدفّق البضائع إلى البيرو ومانيل والشرق الأقصى.

إن الهنود الذين بنوا مدينة الغزاة هذه على خرائب مدينتهم تينوشيتلان يحضرون الطعام في القوارب. يمكن أن يعملوا هنا أثناء النهار، إلا أنهم يُنقلون في الليل تحت ألم ضربات السياط إلى أحيائهم القذرة خارج الأسوار.

يرتدي بعض الهنود الجوارب والأحذية ويتحدثون الإسبانية آملين أن يُسَمَحَ لهم بالبقاء وبهذه الطريقة ينجون من دفع الجزية والعمل الإجباري.

- من أغنية النواقل حول سرعة زوال الحياة -

نعيش دورة حياة واحدة

نتلاشى في يوم ونهبط في ليلة

إلى إقليم اللغز.

جئنا إلى هنا لنعرف أحدنا الآخر

نحن هنا فقط في العبور

فدعونا نمضي الحياة في سلامٍ وامتعةٍ

تعالوا ودعونا نستمتع بها.

إن الأرض ليست واسعة .

لأولئك الذين يعيشون غاضبين.
كم هو جميل أن نحيا إلى الأبد.
وأن لا نموت أبداً.

وبينما نحن نحيا، وروحنا محطمة
هنا يضايقوننا باستمرار ويتجسسون علينا
ولكن رغم كل المصائب
وكل جراح الروح
يجب ألا نحيا عبثاً.
كم هو جيد أن نحيا إلى الأبد
وأن لا نموت أبداً.

١٦٥٤ : أوهاكا

- الطب والسحر -

أخبر هنود الزابوتيك، الذين كانوا قبل أن يسقطوا على الأرض طيوراً متألفة الألوان، غونزالو بالسالوبر بعض الأسرار. بعد أن عاش بينهم وبعد البحث في أسرار الدين والطب، كتب دون غونزالو تقريراً مفصلاً في أوهاكا سيرسله إلى مدينة المكسيك. يشتكي التقرير الهنود إلى محكمة التفتيش المقدسة، ويطلب معاقبتهم بسبب الشعوذات التي لم يقدر الكهنة والعدالة الطبيعية على قمعها. منذ فترة غادر «الآركون» الجامعة ليعيش عشرة أعوام مع قبيلة «كويهو» الهندية. عرف الأعشاب السرية التي تشفي المرضى وشجب فيما بعد الممارسات الشيطانية للهنود.

أثار الطب المحلي في الفترة الأولى للغزو فضولاً كبيراً في أوروبا وأضيفت العجائب على نباتات أميركا. جمع فراي بيرناندو ساهاغن ونشر حكمة ثمانية أطباء «آزتيكيين» وأرسل الملك فيليب الثاني طبيبه الخاص فرانسيسكو هرنانديز إلى المكسيك ليقوم بدراسة شاملة للطب المحلي.

يعتقد الهنود أن الأعشاب تتحدث وتمارس الجنس وتشفي. إنها نباتات صغيرة تستطيع بمساعدة كلمات إنسانية أن تسحب المرض من الجسم وتكشف الأسرار وتقوم الأقدار وتثير الحب أو النسيان. تبدو أصوات الأرض هذه كأصوات الجحيم بالنسبة لإسبانيا القرن السابع عشر المشغولة بالإستجواب والرقى والتي تعتمد على سحر الصلاة في الشفاء وعلى الاستحضارات والطلاسم أكثر من اعتمادها على الشراب والتطهير والتشبيب.

١٦٠٠ : سان ميغيل نيبانتلا

- جوانا في سن الرابعة -

تتحدث جوانا باستمرار مع روحها التي هي صديقتها الداخلية حين تمشي على ضفة الجدول. تشعر بسعادة كبيرة لأنها مصابة بالحازوقة. تقف وتنظر إلى ظلها الذي ينمو معها وتقيسه بغصن بعد كل قفزة صغيرة لبطنها. نمت البراكين أيضاً وهي مصابة بالحازوقة حين كانت حية، قبل أن تحرقها نيرانها. ما يزال يوجد بركانان يدخان إلا أنهما غير مصابين بالحازوقة الآن. إنهما لا ينموان. تكبر جوانا وهي مصابة بالحازوقة وتزداد كبراً.

يجعلك البكاء أحياناً أكثر صغراً. لهذا السبب العجائز وندابو الجنازات هم بحجم الصراصير. ليس هذا موجوداً في كتب والدها التي تقرأها، إلا أنها تعرف ذلك. تعرف هذه الأشياء لأنها تتحدث كثيراً مع روحها. تتحدث جوانا أيضاً مع الغيوم. لتتحدث مع الغيوم يجب أن تتسلق التلال أو قمم الأشجار.

- «أنا غيمة. نحن الغيوم لنا وجوه وأيد. ليس لنا أقدام».

١٦٠٦ : سانتياغو لافيكا

- كيچ -

مات الراهب الأنجليكاني توماس كيچ في جامايكا، في أرجوحة شبكية معلقة بين شجرتي نخيل.

حلم أن يصبح نائب الملك الإنكليزي الأول للمكسيك منذ الأيام القديمة عندما طاف في أراضي أميركا في رداء راهب كاثوليكي مبشراً ومتجسّساً ومستمتعاً بالشوكولاته وثمار الجوافة. حين عاد إلى لندن حرك الأحزاب وأقنع اللورد كرومويل أنه من الضروري والممكن تجهيز أسطول جيد لغزو المستعمرات الإسبانية.

في العام الماضي غزت قوات الأميرال «ويليام بن» جزيرة جامايكا. انتزعت انكلترا من إسبانيا الجزء الأول من امبراطوريتها الأميركية وفقد ورثة كولومبس مركيزات جامايكا أفضل ممتلكاتهم. بعد ذلك ألقى المبجل توماس كيچ موعظة بروتستانية وطنية من على منبر أضخم كنيسة في سانتياغو لافيكا بينما كان الحاكم الإسباني قادماً بين أذرع عبيده ليسلم سيفه.

١٦٥٨ : سان سيغيل نيبانتلا

- جوانا في السابعة -

ترى في المرآة أمها قادمةً فترمي السيف الذي يسقط محدثاً جلباً كطلقة مدفعٍ وتجفل جوانا بطريقةٍ تجعل كل وجهها يختفي خلف القبة العريضة الحواف.

تقول بغضب حين تضحك أمها: «أنا لا ألعب». تنزع القبة وتظهر شاربها المرسوم بالسخام. تتحرك قدما جوانا بارتباك في البوط الجلدي الضخم. تزل وتسقط وترفس الهواء مذلةً غاضبةً وأمها لا تستطيع التوقف عن الضحك.

تحتج جوانا والدموع تبزغ في عينيها. «أنا لا ألعب. أنا رجل. سأذهب إلى الجامعة لأنني رجل».

تضرب الأم رأسها: «يا ابنتي المجنونة. يا حبيبتي جوانا يجب أن أجلك بسبب هذه الأعمال غير المحتشمة».

تجلس قربها وتقول بنعومة: «من الأفضل لو أنك ولدت غبية يا ابنتي التي تعرف كل شيء».

تداعبها بينما تبلل جوانا رداء أمها الفضفاض بالدموع.

- جوانا تحلم -

تتجول في سوق الأحلام. وضعت نساء السوق أحلاماً على قطع قماش كبيرة على الأرض.

يصل جد جوانا إلى السوق حزيناً جداً لأنه لم يحلم منذ زمن طويل. تمسكه جوانا من يده وتساعدته على اختيار الأحلام. يختاران أحلاماً من الحلوى أو من القطن، أجنحةً للطيران أثناء النوم ويقلعان سوية محملين بأحلامٍ لن يكون أي ليلٍ كافياً لها.

١٦٦٣ : غواتيمالا القديمة

- دخول المطبعة -

إن الأسقف انركويز ريبيرا هو من أشد المحامين المتحمسين لفرض العمل الإلزامي على الهنود بدون أن يفكر بإعطاء الهنود شيئاً يفكر الأسقف بمن سيحرث الحقول وإذا لم يكن هناك أحد لحرثتها، بمن سيحرث الأرواح؟.

حين كان الأسقف يعد سجلاً عن ذلك يتلقى من بويبلا أول مطبعة وصلت إلى غواتيمالا. طلب الرأس الروحي المثقف للكنيسة معها مجموعة حروف مطبعية وأسلوب المادة الطباعية وكل شيء لكي يقدر على طباعة أطروحته اللاهوتية.

إن الكتاب الأول الذي نشر في غواتيمالا ليس مكتوباً بلغة المايا أو باللغة القشتالية، بل باللاتينية.

١٦٦٣: ضفة نهر بارايبا

- الحرية -

استمر نباح الكلاب وتبويق صيادي العبيد طويلاً قبل أن يتلاشى. يعبر الهارب حقلاً من الجذامة المقترسة الطويلة ويجري نحو النهر.

يرمي نفسه على الأعشاب مديراً وجهه إلى الأسفل فاتحاً ذراعيه، ماداً رجليه. يسمع أصوات الجنادب والزيزان والضفادع الصغيرة: «لست شيئاً. إن تاريخي ليس تاريخ الأشياء». يقبل الأرض ويعضّها: «أخرجت قدمي من الفخ. لست شيئاً». يضغط جسده العاري على الأرض المبللة بالندى ويسمع صوت نباتات صغيرة تنمو في التراب متلهفة للولادة. إنه يتصور جوعاً ولأول مرة يمنحه الجوع السعادة. جسده مغطى بالجراح ولا يشعر بذلك. يلتفت نحو السماء وكأنه يعانقها. يطلع القمر ويضربه ضربات ضوء عنيفة. تهبط عليه سياط ضوئية من القمر والنجوم. ينهض وينظر إلى جهته.

الآن إلى الأدغال. الآن إلى الشاشة الكبيرة للخضرة.

يسأل الهارب نملة تزحف على يده: «هل أنت ذاهبة أيضاً إلى الماريس؟ دليني على الطريق».

- الخنية بالماريس -

استرح أيها الرجل الأسود

فالرجل الأبيض لا يجيء إلى هنا

وإذا جاء

سيتكفل به الشيطان

استرح أيها الرجل الأسود

إذا جاء سيفادر

بعد أن يتذوق طعم هراواتنا.

١٦٦٣: سيرا باريكا

- بالماريس -

حين يلمع البرق في بعض الليالي يمكن أن تشاهد القمم البرّاقة لسلسلة الجبال من الشواطىء. أباد البرتغاليون على تلالها السفحية هنود الكايتي الذين حرّمهم البابا كنسياً إلى الأبد لأنهم أكلوا الأسقف البرازيلي الأول. وهنا المكان الذي يؤوي إليه العبيد السود الهاربون بعد أن وجدوا ملاذاً في السنوات العديدة الأخيرة في قرى بالماريس المختبئة.

تشكّل كل مجموعة حصناً وتمتدّ الحقول المزروعة الشاسعة وراء الأسيجة الخشبية المرتفعة ومصائد الأوتاد الخشبية الحادة. يعمل المزارعون وأسلحتهم في متناول أيديهم وحين يعودون في الليل إلى الحصن يحصون الأجساد ليتأكدوا أنه لا يوجد مفقودون.

يحصلون هنا على موسمي ذرة سنوياً وعلى اللوبياء والنيهوت والسكر والبطاطا والتبغ والخضار والفاكهة ويربّون الخنازير والدجاج. يأكل سود بالماريس أكثر وأفضل من سكان الساحل حيث يأكل الجميع قصب السكر الذي ينتج لأوروبا ويسرق أوقات الجميع وأمكنتهم.

كما في أنغولا، تعتبر شجرة النخيل ملكةً عند هذه الجماعات السوداء ينسجون من خيوطها الملابس ويصنعون السلاسل والمراوح ويستخدمون السعف لبناء السقوف والأسرة ويأكلون لحم فاكهتها ويصنعون منها الخمرة ويستقطرون زيت النار من قشورها ويجعلون دهونها للطبخ ويصنعون منها أيضاً الغلايين. وكما في أنغولا يؤدي الزعماء الشعائر النبيلة للحدّاد ويحتلّ مشغل الحدّاد مكان الشرف في الساحة حيث يجتمع الناس.

إلا أن أنغولا متعددة وأكثر أفريقية. ينحدر سكان بالماريس من ألف إقليم وألف لغة. إن لغتهم المشتركة الوحيدة هي التي سمعت من أفواه أسيادهم مترافقة مع أوامر يصدرها السوط على ظهر سفن العبيد وفي حقول القصب. إن اللغة البرتغالية المختلطة بكلمات أفريقية وكوارانية هي الآن عقد اتصال بين أولئك الذين أدلّتهم سابقاً.

منذ أن طرد الهولنديون من بيرنامبكو شنّ البرتغاليون أكثر من عشرين حملة عسكرية ضد أرض الأحرار هذه. يكتب راو من البرازيل إلى لشبونة: «إن جيشنا الذي يستطيع أن يروّض كبرياء هولندا لم يصل إلى نتيجة مع هؤلاء البرابرة في غزواته الكثيرة والمتعاقبة لبالماريس».

ولم يحالف الهولنديين حظّ أفضل. انتهت حملاتهم بالفشل أيضاً. حرق البرتغاليون والهولنديون قرى فارغة وضاعوا في الأدغال ملتفتين حولهم كالمجانين تحت أمطار عنيفة. شنّوا الحرب ضدّ ظلّ يعضّ ويهرب وكانوا يدعون النصر في كل مرة. لم يقلح أي منهما في تدمير بالماريس أو منع هرب العبيد الذين يغادرون «ملك السكر» وبلاطه دون عمل رغم أن الهولنديين صلبوا سوداً متمردين والبرتغاليون جلدوا وبتروا ليبثوا الخوف والعبرة.

عادت إحدى الحملات البرتغالية على بالمريس لتوها إلى ريكتيف فارغة اليد. كان يقودها ضابط أسود يقود مئتي جندي أسود يدعى كونكالو ريبيلو، ذبحوا بعض الأسرى الذين استطاعوا القبض عليهم.

١٦٦٠ : مدريد

- تشارلز الثاني -

يهتز الملك الجديد ويبكي. يرفعونه من الخلف بحملات مربوطة إلى الإبطيين والخصر. لا يعرف أن يتحدث ويمشي في سن الرابعة ويجب أن ينتزعوه عن حلمات أربعين حاضنة ليجلسوه على عرش إسبانيا.

إنه يبكي الآن لأن التاج المنزلق فوق عينيه يؤلمه ولأنه يريد أن يعود ليلعب مع الأقزام ويشرب الحليب الدافئ للجنيات.

عاش هذا الضعيف بفعل معجزة أو شكراً لحقيقة أنهم لم يغسلوه حتى عندما ولد رغم أن رأسه وعنقه مغطيان بالجروح المتقيحة للجرب (لأحد يستحم في البلاط حتى منذ أن توفي دومينغو سينتوريون من البرد منذ عشرة أعوام).

«آرورو» ، يتلعثم الملك ويضع قدمه على أذنه.

١٦٦٦ : أمستردام الجديدة

- نيويورك -

يسقط الإنكليز ببضع طلقات من مدافعهم العلم الذي يرفرف فوق الحصن ويحتلون جزيرة مانهاتن من الهولنديين الذين اشتروها من هنود «الديلاوير» مقابل ستين «فلورينا».

يقول هنود «الديلاوير» متذكرين وصول الهولنديين منذ أكثر من نصف قرن: «أراد الرجل العظيم فقط أرضاً صغيرة بمساحة جلد ثور ليزرع فيها الخضار من أجل حسائه. كان أول شيء لاحظناه هنا أرواحهم المخادعة».

تصبح أمستردام الجديدة، أهم سوق عبيد في شمال أميركا وتدعى الآن نيويورك وسمي «وول ستريت» باسم الجدار الذي شيد ليمنع هرب العبيد.

١٦٦٦: لندن

- الخدم البيض -

تنحدر ثلاث سفن مليئة بالخدم البيض في «التيمة» متجهة إلى البحر. حين يفتحون بوابات الهبوط في جزيرة «باربادوس» البعيدة سيذهب الأحياء إلى مزارع السكر والقطن والتبغ وسيذهب الموتى إلى قاع الخليج.

يسمّون المتاجرين بالخدم البيض أرواحاً وهم ماهرون جداً في تبخير البشر. يرسلون إلى جزر «الانتيل» العاهرات والمتشردين الذين خطفوا في أحياء لندن الفقيرة والشبان الكاثوليكيين الذين اصطيدها في إيرلندا واسكوتلندا والسجناء الذين ينتظرون المقصلة في السجن. يستيقظ السكارى الذين أسروا على رصيف المرفأ ومعهم في الرحلة إلى أميركا بعض الفتيان الذين أغروا بالحلويات ومغامرون كثيرون خدعوا بوعود ثروة سهلة. هناك سيعتصرون في مزارع باربادوس أوجاماكا أو فيرجينيا إلى أن يردوا الثمن الذي دفع لشرائهم وأجرة الطريق.

يحلم الخدم البيض بأن يصبحوا مالكيين للأرض وللأسود. حين يستعيدون حريتهم بعد أعوام من الندم والكدح بلا مقابل، كان أول ما يفعلونه هو أن يشتروا زنجياً ليهوئ لهم في ساعة القيلولة.

يوجد أربعون ألف عبد أسود في «باربادوس». سجّلت الولادات في كتب إحصاء المزرعة. يسرّ الزنجي الصغير عند الولادة بنصف جنيه استرليني.

١٦٦٦: جزيرة تورتوكا

- طوالت القراصنة -

حين نهب ديفيدنو، المعروف باسم إيل أولونيس مدينة ريميديوس ماراكا يبو فرم بقطلسه^(١) كثيراً من الإسبانين. تعود سفنه بنصف سرعتها بسبب وزن الثروة المسروقة.

يرسو إيل أولونيس، وبين قدميه يهزّ ذيله وينبح صديقه الوحيد الذي يثق به ورفيقه في مغامراته. تجيء خلفه مجموعة من الرجال خرجت حديثاً من نسيج عنكبوت حبال الأشرعة والصواري، جائعة للخمّارات والنساء والأرض الصلبة.

على هذه الرمال الحامية التي تقدر أن تسلق بيض السلاحف يقف القراصنة صامتين أثناء قدّاس طويل بأجسادهم المرقّعة وستراتهم المتسخة ولحاهم المدهنة ووجوههم التي تشبه السكاكين

(١) - قطلس: سيف قصير ثقيل.

التي نلقتها السنين. إذا تجرأ أي شخص على السعال أو الضحك أثناء القداس يسقطونه بطلقة ويصلّبون. إن كل قرصان يشكّل مستودع أسلحة. يحمل على خصره أربعة سكاكين وحربة موضوعة في غمد مصنوع من جلد تمساح ويحمل مسدسين وسيفاً وبندقية معلقة على الصدر. توزّع الغنائم بعد القداس بدءاً بالمبتورين. كلّ من فقد ذراعه اليمنى يحصل على ستمائة بيزو أو على ستة عبيد. وكل من فقد الذراع اليسرى يحصل على خمسمائة بيزو أو خمسة عبيد. وينطبق هذا الثمن على القدمين وكل من فقد عيناً أو إصبعاً على شواطئ كوبا وفنزويلا له الحق بمائة بيزو وعبد واحد.

يبدؤون عمل اليوم بكؤوس الرّم وينهونه بشواء شرائح لحم السلاحف. يطهى لحم السلاحف المقطّع ببطء تحت الرمل المغطى بالجمر داخل الدروع مع محّ البيض والبهارات وهذا يعتبر أفضل طبق للحفلات في الجزيرة. يشعل القراصنة غلايينهم مستلقين على الرمال مسلمين أنفسهم للدخان والحنين.

حين يخيم الليل يغطون بالآلئ جسد امرأة خلاسية ويهمسون لها قصص الرعب والعجائب، قصصاً عن الشنق والتحميل والكنوز ويقسمون لها أنهم لن يبحروا ثانية في وقت قريب. يشربون ويمارسون الحب دون أن ينزعوا أبوابهم: الأبواب التي ستصل غداً حصى المرفأ باحثة عن سفينة من أجل غارة أخرى.

١٦٦٧: مدينة المكسيك

- جوانا في السادسة عشرة -

يحدّد الجرس في السفن أوقات المراقبة وفي المناجم وحقول القصب يستدعي الهنود الأقنان والعبيد السود إلى العمل. يحدّد المواعيد في الكنائس ويعلن عن القداسات والوفيات والحفلات. لكن، في البرج الذي يقع فوق قصر نائب الملك يتدلى جرس صامت. قيل إن المفتشين أخذوه من برج الأجراس في قرية إسبانية قديمة وأزاحوا لسانه ونفوه إلى «الأنديز» ولا يعرف أحد متى حصل هذا. منذ أن صنعه المايسترو رودريغو عام ١٥٣٠ كان هذا الجرس دائماً نظيفاً ومطيعاً. قيل كان له مائة نغم على هوى قارعه وكانت القرية كلها فخورة به. إلى أن جاءت ليلة جعل فيها رنينه العنيف المتواصل الجميع يقفزون من أسرّتهم. كان الجرس يعلن الخطر بدافع من الفرح أو الخوف أو بما لا يعرف أحد ماذا، وكانت هذه هي المرة الأولى التي لم يفهمه فيها أحد. اجتمع حشد في الرّدهة بينما كان الجرس يرنّ بجنون وذهب رئيس البلدية والقس إلى البرج وأكدا وهما متجمدان من الخوف أنه لا يوجد أحد هناك. لم تحركه يد بشرية. نقلت السلطات القضية إلى محكمة التفتيش. أعلن مجلس محكمة التفتيش أن قرع الجرس لاقيمة له إطلاقاً وأنه أصمت إلى الأبد ونفي إلى المكسيك.

تمشي جوانا آنيز أسباخي خارج قصر حاميها، نائب الملك مانسيرا وتعبر الساحة الكبيرة يتبعها هنديان يحملان صندوق ثيابها. تصل إلى الزاوية. تقف وتنظر إلى البرج وكأن الجرس الصامت يناديها. إنها تعرف قصة حياته، تعرف أنه عوقب لأنه كان يغني لوحده. تتجه جوانا إلى دير سانتا تيريزا لأنتيغوا. لم تعد سيدة في البلاط. ستبحث في الضوء الهاديء للأروقة وعزلة الحجرة عما لا تستطيع أن تجده في الخارج. كانت تود أن تدرس ألغاز العالم في الجامعة إلا أن النساء يولدن محكوما عليهن بالتطريز وبالزواج الذي يتم اختيارهن له. ستصبح جوانا راهبة حافية القدمين وستلقب نفسها سور جوانا آنيز لأكروز.

١٦٦٨ : جزيرة تورتوكا

- الكلاب -

لا يبقى هنود في هذه الجزيرة التي تقع شمال هايتي، إلا أن الكلاب التي أحضرها الإسبان لاصطيادهم ومعاقتهم تبقى. تتنازع كلاب الدّرواس التي تكاثرت وتتحرك في قطعان مع القراصنة الفرنسيين للسيطرة على هذه الأرض. يسمع نباحها ليلة بعد أخرى من الأدغال. يرتجف القراصنة وهم نائمون وراء متاريسهم.

تنتمي جزيرة تورتوكا إلى المشروع الذي أسسه الوزير الفرنسي كولبرت لإدارة تجارة العبيد والقرصنة. عين المشروع برتراند دي أوغبيرون حاكماً وهو سيد له مقام رفيع بين القراصنة وقطاع الطرق.

يحضر الحاكم من فرنسا شحنة سم ستستخدم لقتل بعض الأحصنة التي ستنتشر أجسادها في الجزيرة وتملاً بطونها بالسم. وبهذه الطريقة يتوقع أن يضع حداً لتهديد الكلاب المتوحشة.

١٦٦٩ : بلدة جبالتر

- كل ثروة العالم -

يتابع رجال هنري مورغان البحث على طول شواطئ بحيرة ماراكيبو عن كنز إيل أولينسو المدفون والذي لم يستطع حمله معه، فرغم كل الوقت والجهد الذي بذل لم يكن أولينسو يمتلك الوقت الكافي والسفن الكبيرة لتحميله.

يبدأ الهبوط بعد رشق المدافع المضاد. يقفز القراصنة من مراكبهم الصغيرة ويدخلون المدينة التي يتصاعد منها الدخان بسيوفهم المشهورة.

لا أحد هناك لا شيء هناك.
يستقبلهم شاب رث الملابس في وسط الساحة ضاحكاً. تمتلك القبعة الكبيرة التي تغطي عينيه.
حافة مكسورة تتدلى على كتفه.
يصيح: «سر، سر». يحرك ذراعيه كطاحونة هواء ضارباً ذباباً متخيلاً ولا يتوقف عن الضحك.
حين يחדش حدّ سيف حنجرته يهمس: «لاتناموا وأقدامكم عارية وإلا ستأكلها الخفافيش». يغلي الجو كثيفاً بالدخان والبارود يغلي مورغان من الحرارة وفقدان الصبر. يقيّدون الشاب.
«أين أخبأوا المجوهرات؟»، يضربونه: «أين الذهب؟»، يفتحون الجراح الأولى في خديه وصدره.
يصرخ: «أنا سيباستيان شانشيز! أنا شقيق حاكم ماراكايبو، أنا شخص مهم جداً». يقطعون نصف أذنه.
يجرونه. يقود الشاب القراصنة إلى كهف عبر غابة ويكشف كنزه. كان هناك صحنان من الصلصال مخبأان تحت الأغصان وحدّ صدى، لمسة ودرع فارغ وبعض الريش الملون والحجارة ومفتاح وثلاثة قطع نقدية صغيرة.
يكرّر مالك الكنز قائلاً: «أنا سيباستيان شانشيز»، وهم يقتلونه.

١٦٦٩: ماراكايبو

- الطوق المحطّم -

يكتشف مورغان فجراً أن سفناً إسبانية خرجت من الليل وأغلقت المدخل إلى البحيرة. يقرر الهجوم. يرسل أمام أسطوله مركباً أحادي الصاري ضدّ بارجة الأميرال. كانت راية الحرب ترفرف متحدية فوق المركب المليء بالزفت والقار والكبريت الذي حصل عليه مورغان في ماراكايبو، ووزعت علب البارود في جميع الزوايا. كان الطاقم مؤلفاً من بعض الدمى الخشبية التي ترتدي القمصان والقبّعات. انفجر الأميرال الإسباني دون ألونزو ديل كامبو في الجو دون أن يكتشف أن مدفعيته أطلقت على برميل بارود.
يهجم أسطول القراصنة. تكسر فرقاطات مورغان الطوق الإسباني بنيران المدفعية ويربح البحر المفتوح. يبحر محملاً بالذهب والمجوهرات والعبيد.
يتبختر هنري مورغان في ظلّ الأشرعة مرتدياً من رأسه إلى قدميه غنائم ماراكايبو. يمتلك منظراً ذهبياً وبوطاً أصفر اللون مصنوعاً من جلد قرطبي، أما أزرار ستروته فزمرّد صناعه صائغو أمستردام. ترفع الريح التخريم الزبديّ لقميصه الحريري الأبيض وتحمل من بعيد صوت امرأة تنتظر مورغان في جامايكا، تلك الخلاسية النارية التي حذّرت على رصيف المرفأ حين ودّعته قائلة: «إذا متّ فسوف أقتلك».

١٦٧: ليما

- « احزن من أجلنا » -

قال له هنود مناجم بوتوسي بلا كلام: «احزن من أجلنا»، وكتب العام الماضي الكونت ليموس، نائب الملك في البيرو إلى ملك إسبانيا: «لا يوجد شعب في العالم مرهق هكذا، إنني أريح ضميري وأعلم جلالتك بكل وضوح: إن ما يجلب إلى إسبانيا ليس فضة بل دم الهنود وعرقهم». رأى نائب الملك الجبل الذي يأكل الرجال. يحضر الهنود من القرى مقيدون معاً بياقات حديدية وكلما ابتلع الجبل مزيداً من الهنود يزداد جوعه. أفرغت القرى من الرجال. بعد أن يرسل التقرير إلى الملك يحظر الكونت ليموس فترات العمل التي تستمر أسبوعاً في الأنفاق الخائفة. تفرع الطبول ويعلن في الشوارع: يأمر نائب الملك أن الهنود سيعملون في المستقبل من الشروق إلى الغروب لأنهم ليسوا عبيداً ليقضوا الليل في المناجم. لا ينتبه أحد إلى ذلك.

يتلقى جواباً في قصره في ليما من مجلس «الآنديز» في مدريد. يرفض المجلس قمع العمل الإجباري في مناجم الفضة والزئبق.

١٦٧: سان خوان آتيتلان

- متطفل في المذبح -

يحمل الحمار في منتصف الصباح الأب ماركوز رويز إلى قرية سان خوان آتيتلان. من يعرف فيما إذا كانت الموسيقى اللطيفة للماء والأجراس التي يحملها النسيم تجيء من القرية أو من الحلم؟ يلف ويدور كثيراً قبل أن يصل آتيتلان القرية التي تقع عميقاً في الريف الوعر. من المعروف جيداً أن الهنود يزرعون محاصيلهم في الزوايا الأكثر خفاءً في الجبال ليباعوا في تلك المخابىء آلهتهم الوثنية.

حين يصل إلى المنازل الأولى يبدأ فراي ماركوز بالاستيقاظ. كانت القرية مهجورة ولم يأت أحد لاستقباله. ترف عيناه بعنف لدى وصوله إلى الكنيسة. كانت تغص بالبشر. يخفق قلبه بشدة وهو يشق طريقه إلى الداخل ويحك عينيه ليرى ما يحدث: كان الهنود في الكنيسة مزينين بالأزهار ومعطرين كما لم يحدث من قبل ويعبدون أبله القرية. كان جالساً على المذبح مغطى من رأسه إلى قدميه بالثياب المقدسة، ويتلقى هدايا البخور والفاكهة والطعام الساخن وسط جدول من الخطب والترنيمات الغامضة. لا يسمع أحد صرخات فراي ماركوز الساخطة الذي ينسحب بسرعة ليجتنب عن الجنود.

يُغضبُ المشهَدُ الراهبَ الورعَ إلا أن دهشته لاتستمر طويلاً. فبعد كل شيء ماالذي يستطيع المرء أن يتوقعه من هؤلاء الوثنيين الذين يعتذرون من الشجرة حين يقطعونها ولايحفرون بثراً إلا بعد أن يعتذروا من الأرض؟ ألا يخلطون الله بحجر أو بآخر؟ بصوت جدول متدفق أو رذاذ مطر؟ ألا يسمّون الخطيئة الجسدية لعباً؟

١٦٧: ماسايا

- الأبله -

تشرق الشمس لحظة من خلال السحب ثم تختبئ خجلة أو خائفة من تألق البشر هنا في الأسفل لأن الأرض مضاءة بالفرح: رقص حواري، مسرح للرقص، مسرحيات هزلية موسيقية ظريفة على شفا الوضوح. يدير الأبله المهرجان ليس باللغة النواتلية أو الإسبانية بل بلغة هجينة نمت في نيكاراغوا وغذاها ألف مصطلح طوره الناس لأنهم تحدّثوا بجرأة وابتكروا وهم يتحدثون فلفلاً حاراً من مخيلة شعب يسخر من أسياده.

يشغل هندي عريق ومتحدث سريع أجش الصوت وسط المسرح. إنه الأبله أو المعروف باسم الفأر ماشو الذي يسخر من المنوعات، الذي لايقول أبداً ما يقوله ولا يصغي لما يسمعه ويتجنب ببراعة أن يتمّ تحطيمه من قبل الأقوى: حين لايستطيع أن ينجز إنسحاباً يرتبك.

١٦٧: كوزكو

- العجوز مولبي -

تنوء جدران الكاتدرائية بالذهب. تهيمن على العذراء الداكنة ذات الشعر الأسود الذي يتدفق من تحت قبعتها القشّية والتي تحمل لامة صغيرة بين ذراعيها. يحيط صورتها البسيطة بحر مزبد من الزبد المخرم. تريد كاتدرائية كوزكو أن تتقيأ من جوفها الغني هذه العذراء الهندية، عذراء اليأس وكأنه لم يحدث منذ زمن بعيد أن منع بوابوها امرأة عجوزاً حافية من الدخول.

صرخ الكاهن عن المنبر: «اتركوها وشأنها. دعوا هذه الهندية تدخل. إنها أمي».

يسمي الجميع الكاهن خوان إسبينوزا ميدرانوا باسم العجوز ذو الشامات لأن الله غطى وجهه بالشامات. حين يعظ العجوز ذو الشامات تتجمع الحشود في الكاتدرائية، ولايوجد في الكاتدرائية البيروفية خطيب أفضل منه. والأكثر من ذلك أنه يدرّس اللاهوت في معهد سان أنطونيو اللاهوتي ويكتب المسرحيات. تشبه ملهاته «أحبب موتك» التي كتبها بالإسبانية لغة والده، المنبر الذي

يلقي منه مواظمه : أشعار فخمة تدور في بناء أرابيسكي متباهية ومسرقة كالكنائس الإستعمارية. وفي نفس الوقت كتب بلغة «الكوينشو» ، لغته الأم مسرحية دينية طقسية تركيبها بسيط وأسلوبها تسلسلي ولغتها واضحة تدور حول موضوع الإبن الضال. في هذه المسرحية الشيطان مالك أراض بيروفي والخمرة هي الشيكو والعجل التوراتي خنزير سمين.

١٦٧١ : مدينة بنما

- حول حقة المواجهيد -

مر أكثر من عامين على وصول هنري مورغان إلى بنما في سفينة على رأس حفنة من الرجال وعصف بمتاربس بورتو بيللو حاملاً سكيناً بين أسنانه. استولى بقوته الصغيرة وبدون بنادق ومدافع على هذا المعقل المنيع وطلب كي لا يحرقه جبلاً من الذهب والفضة كغدية. أرسل حاكم بنما الذي هزمه وحرره من وهمه هذا العمل الفذ ليطلب من مورغان مسدساً كالذي استخدمه في الهجوم. قال القرصان : «ليحتفظ به لمدة عام وسأذهب لأعيده».

يدخل الآن إلى مدينة بنما متقدماً بين أسنة الذهب. يرفرف العلم الإنكليزي في إحدى يديه وتمسك الأخرى بقطلس. يتبعه ألفا رجل وعدة مدافع. تحول النار الليل إلى نهار. يعلو صيف آخر فوق الصيف الأبدى لهذه الشواطئ يلتهم المنازل والأديرة والكنائس والمستشفيات ويلعق شفتي القرصان الذي يصرخ : «أنا هنا من أجل المال وليس من أجل الصلوات».

بعد كثير من القتل والحرق يتحرك متبوعاً بقافلة لانهائية من البغال المحملة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة.

يرسل مورغان اعتذاراته إلى الحاكم عن تأخره.

١٦٧٢ : لندن

- محبة الرجل الأبيض -

أسس دوق يورك ، شقيق ملك إنكلترا شركة المغامرات الملكية منذ تسعة أعوام. اشترى المزارعون الإنكليز في «الانتيل» عبيدهم من تجار عبيد هولنديين إلا أن التاج لم يسمح بالحصول على هذه المواد من الأجانب. رتب المشروع الجديد التجارة مع أفريقيا وضم مالكي أسهم من ذوي المكانة الرفيعة : الملك تشارلز الثاني ، ثلاثة دوقات ، ثمانية إيرلات ، سبعة لوردات وكونتيسة وسبعة وعشرين فارساً. تمجيداً لدوق يورك طبع الضباط الحرفيين الأولين من اسمه على صدور ثلاثة آلاف عبد من الذين كانوا ينقلونهم سنوياً إلى باربادوس وجامايكا بالحديد المحمى.

سيدعى المشروع الآن شركة أفريقيا الملكية. يشجع الملك الإنكليزي الذي يملك معظم الأسهم على شراء العبيد في مستعمراته حيث تزيد كلفة العبيد ستة مرات عنها في أفريقيا. تبدأ أسماك القرش رحلتها إلى الجزيرة وراء السفن منتظرة الأجساد التي ترمى عن ظهورها. يموت كثيرون لأنه لا يوجد ماء كاف والأقوياء جداً يشربون ماهو متوفر، أو يموتون من الزحار والجذري ويموت كثيرون من الكآبة. يرفضون أن يتناولوا الطعام ولا توجد طريقة لفتح أفواههم. يستلقون في صفوف، محطمين فوق بعضهم، تلمس أنوفهم ظهر المركب. تُقَيَّدُ رسوغهم وتسُلخُ الأغلالُ كعابهم. حين يتوجَّب إغلاق فُتَح الرمي في البحار العاصفة أو في المطر، ترتفع حرارة كمية الهواء القليلة إلى درجة الحمى ولكن حين تنفتح الكوى يفوح المعتقل برائحة الكراهية والحقْد المتخمر، أكثر إنتاناً من زئج المسالخ وتصبح الأرضية زلقة من الدم والتقيؤ والخراء. يصغي البحارة الذين ينامون على السطح في الليل إلى الأنين الذي لا يتوقَّف الصاعد من الأسفل وعند بزوغ الفجر يصغون لصرخات أولئك الذين حلموا أنهم كانوا في بلادهم.

- أغنية شعب الماندينغو عن طائر الحب -

دعني، آه ياديامبير
أنت أيها الذي يرتدي حزاماً بهدابات طويلة
دعني أغني للطيور
التي تصني للأميرة الراحلة
وتتلقى آخر أسرارها
وأنتن ياعذراوات، غنّين، غنّين
بنعومة
للطائر الجميل
وأنت ياسيد البندقية المربعة
دعني أنظر إلى طائر الحب
الطائر الذي أحبه أنا وصديقي
دعني ياسيد الرداء الرائع
يامالك الثياب المتألقة
أكثر من ضوء النهار
دعني أحب طائر الحب

١٦٧٤: ميناء رويال

- مورغان -

كان طفلاً حين باعوه لتاجر في بريستول. استبدله الضابط الذي أخذه إلى «الانتيل» ببضعة قطع نقدية في باربادوس.

تعلم في تلك الجزر أن يكسر بضربة فأس واحدة أي غصن يصدم وجهه، وتعلم أنه لا يوجد ثروة لاتجرم الأب أو لا تسيء إلى الأم. أمضى أعواماً يسرق السفن ويرمل النساء. كان يقطع ببساطة الأصابع التي ترتدي الخواتم الذهبية. إنه أميرال القراصنة. يعلق دائماً على عنقه التي تشبه الضفدعة رخصة القرصنة التي تضفي طابعاً قانونياً على وظيفته وتحميه من المشنقة.

منذ ثلاثة أعوام وبعد نهب بنما، نقلوه إلى لندن كسجين.. حرره الملك من الأغلال وسمّاه فارس البلاط وعيّنه حاكماً على جامايكا.

صاغ الفيلسوف جون لوك تعاليمه عن الحكومة الجيدة من هذه الجزيرة التي هي مقرّ القراصنة الإنكليز. وسيؤكد مورغان أن الكتب المقدسة والكلاب التي تصطاد الهاربين ستكون موجودة وسيشقى أخوته القراصنة في كل مرة يقرّر فيها ملكه تحسين علاقاته مع إسبانيا.

يهبط حديثاً في ميناء رويال، ينزع قبعته المريشة. يسكر من الرّم ويفرغ الإناء على شعره المستعار الكثير الإلتفاف، يصيح القراصنة ويلوحون بسيوفهم وهم يتبادلون الأنخاب. الحصان الذي ينقل مورغان إلى قصر الحكومة مُنعل بالذهب.

١٦٧٤: بوتوسي

- كلوديا الساحرة -

حركت الغيوم بيدها وسلّطت ومنعت العواصف. أعادت البشر برقة عين من أراض بعيدة ومن الموت. مكّنت حاكم مناجم بوركو أن يشاهد مدينته مدريد في مرآة وقدمت على مائدة دون بدرو دي آيامونت الذي جاء من «أتريرا» كعكات مطهوءة حديثاً في فرن «أنزيرا». جعلت الحقائق تزهر في الصحارى وحولت العاشقات المحترفات إلى عذراوات. أنقذت أسرى لاذوا إلى منزلها بتحويلهم إلى كلاب وقطط. تقول إن الأوقات السيئة بحاجة إلى وجه متألق وتصرع الجوع بالغيتار. كانت تعزف على غيتارها وتهزّ دفها لتشفى المرضى وتبعث الموتى. إذا كنت صامتاً ستجعلك تتحدّث وإذا تحدّثت كثيراً تستطيع أن توقفك عن الكلام. مارست الحب علناً مع شيطان أسود في الريف. وهربت بعد منتصف الليل.

ولدت في توكامان وماتت هذا الصباح في بوتوسي. استدعت وهي على فراش موتها كاهناً يسوعياً وطلبت منه أن يخرج من الدرج قطع شمع معينة ويزيح الدبابيس الملصقة عليها لكي يشفى خمسة كهنة زرعت فيهم المرض. عرض عليها الكاهن الاعتراف والرحمة الإلهية، إلا أنها ضحكت وماتت وهي تضحك.

١٦٧٤ : يورك تاون

- الجواد الأولمبي -

تحدّى جيمس بلوك وهو خياط من يورك تاون، ماثيو سيلدر في سباق أحصنة. غرّمته المحكمة الإقليمية بسبب جرّاته وحذّرت أنه من المخالف للقانون أن يشارك في سباق لأن هذه الرياضة خاصة بالسادة. يجب أن يدفع بلوك ما يعادل مئتي باوند من التبغ. بشر على أقدامهم، أرستقراطيون على خيولهم: هالة الأرستقراطية هي الغبار الذي ترفعه الحوافر على طول الطريق. تصنع حوافر الأحصنة أو لا تصنع الثروة. يخرج فرسان التبغ من عزلة المزرعة مرتدين ثياباً حريرية وشعراً مستعاراً مجعداً من أجل السباق بعد ظهر أيام السبت ومن أجل الحديث عن الخيول في أوقات المساء. يتناقشون فوق أكواز عصير التفاح والبراندي ويتراهنون بينما يُرمى النرد على الطاولة. يقامرون بالمال أو التبغ أو العبيد السود أو الخدم البيض، ويرهنون فقط في ليالي العظمة أحصنتهم. يقاس الحصان الجيد بقيمة مالكة، مزارع التبغ الفرجيني الذي يعيش ويحكم وهو على ظهر الحصان وعلى ظهره يموت طائراً كالريح إلى البوابات السماوية. لا يوجد وقت في فيرجينيا لأي شيء آخر. استطاع الحاكم ويليام بيركلي منذ ثلاثة أعوام أن يلاحظ بفخر: أشكر الله. لا يوجد مدارس مجانية ولا طباعة وآمل أن لا يحصل على كليهما لمئات السنين لأن التعليم يولد العصيان والهرطقة والإنقسام وتنتشر الطباعة ذلك.

١٦٧٦ : وادي كونيكتيكت

- فأس المعركة -

ينتفض هنود الوامبانوغ حين تسقط الثلوج الأولى. لقد تعبوا من رؤية حدود نيوانجلاند تمتد جنوباً وغرباً بقدمين سريعتين. خربوا وادي كونتيكت وهم يقاتلون على بعد أقل من عشرين ميلاً من بوسطن. يجرّ الحصان راكبه على الأرض بعد أن علقت رجله بالركاب. لقد قتله سهم. يضرب المحاربون الرشيقيون، ضحايا السلب والنهب، يختفون. وهكذا يدحرون الغزاة نحو الساحل حيث جاؤوا منذ أعوام.

١٦٧٦ : بليموث

- ميتاكوم -

مات نصف السكان الهنود في الحرب. تستلقي اثنا عشر بلدة انكليزية في الرماد. يحضر الإنكليز في نهاية الصيف رأس ميتاكوم زعيم الوامبانوغ إلى بليموث. إن ميتاكوم هو الشيطان الذي حاول أن ينتزع من البيوريتانيين المستعمرين الأراضي التي خصّهم الله بها. تتناقش محكمة بليموث العليا: ماذا نفعل بولد ميتاكوم؟ أنرسله إلى المشنقة أم نبيعه؟ آخذين بعين الاعتبار سفر تثنية الإشتراع وأول كتاب الملوك والمزامير من رقم ١٣٧ إلى ١٣٩، يقرر القضاة أن يبيعوا ولد ميتاكوم الذي يبلغ التاسعة من العمر في أسواق النخاسة في جزر الآنتيل. وكدليل على الكرم يقدم المنتصرون للهنود قطعة أرض صغيرة ممّا كان لهم: في المستقبل ستوضع القبائل الهندية التي قاتلت أو لم تقاتل مع متياكوم في أربعة أراض مفردة في خليج ماساتشوسيتس.

١٦٧٧ : بلدة الطريق القديم

- موت هنا، ولادة هناك -

إن الجسد الذي يعرف القليل، لا يعرف ذلك ولا الروح التي تتنفس بل الروح التي تحلم، التي تعرف أكثر، تعرف ذلك. إن الرجل الأسود الذي يقتل نفسه في أميركا يولد في أفريقيا. مات كثير من عبيد جزيرة القديسة كيتس رافضين تناول الطعام أو أكلوا فقط التراب والرماد والكلس. شنق الآخرون أنفسهم بالحبال. وفي الغابات بين الأعشاب المتعرّشة التي تعلق بالأشجار يتدلى عبيد انتحروا لا ليمحوا ذكرى الألم بل لينطلقوا في قوارب بيضاء في رحلة العودة الطويلة إلى أرض أسلافهم

يتقدّم شخص من البوارو مالك للمزارع، عبر الأوراق ويقطع بمنجله رؤوس المشنوقين. ينصح الأحياء: «اشنقوا أنفسكم إذا أردتم. لن يكون لكم رؤوس هناك في بلدانكم ولن تقدرُوا على الرؤية والسمع والكلام وتناول الطعام». يدخل مزارع آخر يدعى «كريبز» خاصي الرجال إلى الغابة ومعه عربة مليئة بورق السكر وقطع آلة الطحن. يبحث ويعثر على عبيده الفارين الذين تجمعوا سوية وكانوا يجهزون أنفسهم للإنتحار. يقول لهم:

- «سأشنق نفسي معكم. سأرافقكم. اشتريت مطحنة سكر كبيرة في أفريقيا وهناك ستعملون عندي».

يختار «كريبز» شجرة كبيرة، يربط الحبل حول عنقه ويزلق العقدة المنزلقة. يراقبه السود منذهلين، إلا أن وجهه كان فقط ظلاً تحت القبعة القشّية ويردّد: «هيا بنا جميعاً! هيا بسرعة أحتاج إلى سواعد في غينيا».

١٦٧٧: بورتوكالفو

- يعد القائد بالأراضي والعبيد والألقاب الرفيعة -

ينطلق الجيش باكراً في الصباح من بورتوكالفو. يتقدّم الجنود والمتطوعون والذين وقعت عليهم القرعة لمحاربة السود الأحرار في بالماريس الذين يحرقون حقول القصب في جنوب بيرانمبكو. يخاطب فيرناوكاريلهو القائد الأعلى مقاماً في الحرب جنوده بعد القدّاس: «إن جيش أعدائنا كبير وهو جيش عبيد. لقد خلقتهم الطبيعة ليطيعوا لا ليقاوموا. إذا سحقناهم سنحصل على أراض لمزارعنا وعلى سود لخدمتنا وعلى شرف لأسمائنا إن السود يقاتلون كالفارين ونحن سنطاردهم كاللوردات».

١٦٧٨: ريسيف

- غانكا زومبا -

في عيد قدّاس الشكر الذي يقام في الكنيسة الأم يلتقط حاكم بيرانمبكو آيريس سوسا كاسترو أذيال معطفه ويركع أمام عرش الأكثر قداسة. كان يركع إلى جانبه غانكا زومبا، الرئيس الأعلى لفيدرالية بالماريس.

ترنّ الأجراس. تصخب المدفعية والطبول. يمنح الحاكم غانكا زومبا لقب ضابط النظام وكدليل على الصداقة يتبنى اثنين من أولاده اللذين سيحملان اسمه. حدّدت الإتفاقية في نهاية محادثات السلام التي عقدت في ريسيف بين وفد ملك البرتغال وممثلي بالماريس: سيتم إفراغ المعابد البالماريسية. أعلن أن جميع الذين ولدوا هنا أحرار أما الذين يحملون علامة الوشم فيجب أن يعودوا إلى أسيادهم.

إلا أن زومبي ابن أخ غانكا زومبا قال: «لن أستسلم». يبقى زومبي في ماكاكوس عاصمة بالماريس ويعير أذنأ صماء للجماعات المتعاقبة التي تمنحه الصفح.

من بين ثلاثين ألف بالماريسي، يرافق غانكا زومبا خمسة آلاف شخص فقط، إذ أن الآخرين يعتبرونه خائناً يستحق الموت والنسيان.

يقول زومبي: «لا أصدق كلمة أعدائي. إن أعدائي أنفسهم لا يصدقونها».

- رقية يوروبا ضد العدو -

حين يحاولون اصطياد حرباء
من بين الأغصان
تتقمص الحرباء لون الأغصان
فلا يستطيعون التمييز بينهما
حين يحاولون اصطياد تمساح
في قاع النهر
يتقمص التمساح لون المياه
ولا يستطيعون تمييزه عن الجدول.
حين يحاول الساحر أن يصطادني
يمكن أن أتقمص سرعة الريح
وأنجو.

١٦٨: سانتا في، المكسيك الجديدة

- صليب أحمر وصليب أبيض -

تعلن عقد الحبل المصنوع من ألياف الصبار عن التمرد وتحصي أيام الانتظار. ينقله الرسل
الأكثر سرعة من قرية إلى أخرى في المكسيك الجديدة إلى أن يشرق أحد الغضب.
تنتفض أربع وعشرون قبيلة هندية بقيت من القبائل الستة والستين التي عاشت في الأراضي
الشمالية حين وصل الفاتحون. نجح الإسبان في قمع التمرد في قرية أو قريتين.
- «استسلم».

- «أفضل الموت».

- «ستذهب إلى الجحيم».

- «أفضل الجحيم».

يتقدم الذين ينتقمون لألمهم ويدمرون الكنائس والحصون ويصبحون بعد بضعة أيام أسياد الإقليم
بأسره. يغتسل الهنود في النهر ويدلّكون أجسادهم بنباتات الأمول ليزيلوا زيت التعميد ويتخلصوا

من الأسماء المسيحية. يرتدون ثياباً كالكهنة ويشربون أنخاب استعادة أراضيتهم وآلهتهم. يعلنون أنهم لن يعملوا ثانية أبداً للآخرين وأن اليقطين سينمو في كل مكان وسوف تثلج الدنيا قطناً.

ترسم أنشطة حول مدينة «سانتا في» آخر معقل إسباني في هذه الأقاليم البعيدة. يعدو زعيم الهنود إلى الأسوار مسلحاً ببندقية وخنجر وسيف مرتدياً قطعة نسيج حريرية وجدها في دير ويرمي عند قدم السور صليبين أحدهما أبيض والآخر أحمر.

- «إن الصليب الأحمر هو المقاومة والأبيض هو الإستسلام. اختاروا أحدهما».

يدير ظهره إلى العدو المحاصر ويختفي في هبة غبار.

يقاوم الإسبان، إلا أنهم يرفعون العلم الأبيض بعد عدة أيام. جاؤوا منذ فترة بحثاً عن مدن سيبولا الذهبية الأسطورية. الآن يبدوون الإنسحاب جنوباً.

١٦٨١ : مدينة المكسيك

- جوانا في سن الثلاثين -

بعد صلوات الصبح وتسابيح الضحى تنصب خذروفاً وتدوره في الطحين وتدرس الدوائر التي يرسمها. تفحص الماء والضوء والهواء والأشياء. لماذا تتجمع بيضة في الزيت المغلي وتتفرق في شراب الفاكهة؟ تشكّل مثلثاً من الدبابيس وتبحث عن خاتم سليمان. تصطاد النجوم بعين واحدة ملتصقة على المنظار.

هددوها بإبلاغ محكمة التفتيش ومنعوها من فتح الكتب إلا أن سور جوانا آنيز كروز، تدرس الأشياء التي خلقها الله والتي تخدمها لتتعلم منها كتاب العالم.

تبدأ جوانا جدلاً بين الحب الإلهي والحب الإنساني، بين الألفاظ الخمسة عشر للمسيحة التي تتدلى حول عنقها وألفاظ العالم تمضي ليالي عديدة دون أن تنام وهي تصلي وتكتب حين تبدأ الحرب اللانهائية ثانية في داخلها بين الهوى والعقل. يدخل في نهاية كل معركة الضوء الأول للفجر إلى حجرتها في الدير الجيرونيمي ويساعد سور جوانا على تذكر ما قاله لوبريسيو ليوناردو بأنه بإمكان المرء أن يتفلسف وأن يحضر العشاء. تبتكر القصائد على الطاولة وتعد الفطائر في المطبخ وكل هذا سيمنح للآخرين، قيثارة داوود المهدئة لسول كما هو الأمر لداوود، متع الروح والفم التي يشجبها محامو الألم.

يقول لها كاهن الاعتراف: إن المعاناة فقط ستجعلك تستحقين رضا الله. يأمرها أن تحرق ما تكتب وتجهل ما تعرف وأن لا ترى ما تنظر إليه.

١٦٨١: مدينة المكسيك

- سيكوينزا غونكورا -

أضاء شهاب سماء المكسيك منذ نهاية العام الماضي. أية شرور يعلنها النبي الغاضب؟ أية مشاكل سيسبب؟ هل ستضرب الشمس الأرض كقبضة الله الكبيرة؟ هل ستجف المحيطات وتتلاشى آخر قطرة من الأنهار؟ يقول الحكيم للبشر المرتعبين: «لا يوجد سبب يوضح أن النيازك تجلب الحظ السيء».

ينشر كارلوس سيكوينزا غونكورا بيانه الفلسفي ضد النيازك الضالة التي تبقّيها الإمبراطورية فوق رؤوس الجبناء، والذي شكّل اتهاماً مرعباً للخرافة والخوف. ينفجر جدل بين علم التنجيم وعلم الفلك، بين الفضول البشري والوحي الإلهي. يضع اليسوعي الألماني أوسيبيو فرانسيسكو كينو الذي يزور هذه الأقاليم ستة أسس توراتية لتأكيد أن جميع النيازك تقريباً هي بشائر بحوادث شريرة ومخرّبة وكارثية.

يحاول كينو بازدراء أن يصلح نظرية سيكوينزا غونكورا، وابن كوبرنيكوس وغاليليو وهراطقة آخرين، ويجيب الكريبولي المتعلم: «هل ستسلمون على الأقل أنه يوجد أيضاً علماء رياضيات خارج ألمانيا يمكن أن يوجدوا بين خيزران وديس^(١) بحيرة مكسيكية».

يحدث كوزموغرافي^(٢) الأكاديمية الأول سيكوينزا غونكورا بقانون الجاذبية ويؤمن أن نجومًا أخرى، يجب أن يكون لها مثل الشمس، كواكب تدور حولها. معتمداً على الكسوفات والنيازك، ثبتت تواريخ أحداث تاريخ المكسيك الطبيعي وكما أن الأرض من اختصاصه كما السماء ثبتت بدقة خطوط طول هذه المدينة ورسم الخريطة الأولى للإقليم وقال كل هذا في أعمال شعرية ونثرية لها عناوين طنانة متناسبة مع عصره.

١٦٨٢: أكرا

- أوروبا كلها تبّيع اللحم البشري -

غير بعيد عن الحصون الإنكليزية والدنمركية، في المدى المجدي لطلقة مسدّس، ينتصب المكتب التجاري البروسي. يرفرف علم جديد على هذه السواحل فوق سقوف مستودعات العبيد المصنوعة من جذوع الأشجار وعلى صواري السفن التي تبحر بحمولة كاملة.

(١) - الديس: عشب مائي من الفصيلة السعدية.

(٢) - الكوزموغرافيا: وصف عام للعالم أو الكون، علم يبحث في مظهر الكون وتركيبه العام وهو يشمل علوم الفلك والجغرافيا والجيولوجيا.

ينضمُّ الألمان إلى العمل الأكثر إدراكاً في تلك الفترة بشركتهم التي تدعى أفريقيا. يصطاد البرتغاليون ويبيعون السود عبر شركتهم التي تدعى غينيا. تعمل شركة أفريقيا الملكية للتاج البريطاني. يرفرف العلم الفرنسي على سفن شركة «السينغال» وتعمل الشركة الهولندية للآنديز الغربية بشكل جيد. ويدعى أيضاً المشروع الدنماركي المتخصص بتسويق العبيد شركة الآنديز الغربية. وتملاً شركة البحر الجنوبي جيوب السويديين.

ليس لإسبانيا عمل في تجارة العبيد، إلا أن غرفة التجارة في سيفيل أرسلت إلى الملك منذ قرن تقريراً موثقاً يشرح أن بيع العبيد هو التجارة الأربح في أميركا. تدفع المؤسسات التجارية الأجنبية للصناديق الملكية من أجل حقوق بيع العبيد في المستعمرات الإسبانية. بنيت بهذه الإيداعات من بين أشياء أخرى قصور مدريد وطليلة. تجتمع لجنة الزوج في القاعة الرئيسية لمجلس الآنديز.

١٨٦٢ : ريميديوس

- بأمر من الشيطان -

يرتجف. يلتوي. يزار. يسيل لعابه. يهز أحجار الكنيسة. يتصاعد البخار في كل مكان من أرض كوبا الحمراء.

- «أيتها الشيطانة، أيتها الكلبة! أيتها الكلبة السكرانه، تكلمي وإلا سأبول عليك». يهدد المفتش خوسيه غونزاليس لاکروز، كاهن أبرشية ريميديوس ويرمي أرضاً المرأة السوداء ليوناردو أمام المذبح الرئيسي. ينتظر بارتولومي دي كاستيلو الكاتب بالعدل دون أن يتنفس. يمسك كومة ورق سميكة في يد ويلوح بريشة طائر في الأخرى.

يلهو الشيطان مرتاحاً في الجسد الساحر لليوناردو السوداء.

يضربها المفتش فتسقط على وجهها، تأكل الغبار وترتد. ترفع نفسها إلى الأعلى وتلتفت، محترقة ونازفة على الرقعة الآجرية.

- «أيتها الشيطانة! لوسيفر! الزنجية! تكلمي أيتها الخراء النتن».

يخرج من فم ليوناردو اللهب والرغوة وأصوات صاخبة لا يفهمها أحد سوى الأب خوسيه الذي يترجم ويملي على الكاتب بالعدل:

- «تقول إنها لوسيفر. تقول إنه يوجد ثمانمائة شيطان في ريميديوس».

تخرج أصواتاً أكثر صخباً من فم المرأة.

- «ماذا أيضاً؟ ماذا أيضاً أيتها الكلبة؟»، يرفعها الكاهن ليوناردو من شعرها.

- «تكلمي أيتها الخراء!». لا يلحن أمها لأنه ليس للشيطان أم.

قبل أن يُغمى على العبد يصرخ الكاهن ويكتب الكاتب بالعدل: «تقول إن ريميديوس ستنهار إنها تعترف بكل شيء. تقول إن الأرض ستبتلعنا».

يزأر: «فم الجحيم! تقول إن ريميديوس هي فم الجحيم!».
يصرخ الجميع. يقفز جميع سكان ريميديوس صارخين وصاخبين. يغمى على أشخاص
عديدين. يرخي الكاهن المستحم بالعرق، ذو الجلد الشفاف والشفيتين المرتجفتين، قبضته عن عنق
ليوناردو. تنهار المرأة السوداء.
لا أحد يسعفها.

١٦٨٢ : ريميديوس

- إلا أنهم يمكثون -

ثمانمائة شيطان! إذا يوجد شياطين في سماء ريميديوس أكثر مما يوجد بعوض. يخصّص
١٣٠٥ شياطين لتعذيب كل مواطن.

إن الشياطين عرجاء منذ السقوط الذي يعرف العالم كله عنه. ولها لحى ماعز وقرون وأجنحة
خفافيش وأذيال جردان وجلود سوداء. ولهذا فإن الدوران في جسد ليوناردو أكثر متعة لها لأنها
سوداء.

تبكي ليوناردو وترفض أن تأكل.

. يقول لها الأب خوسيه: «إذا كان الله يريد أن يطهرك فسوف يبيّض جلدك».

تصدر الأغاني الحزينة للزيزان والجنادب عن الأرواح التي تتعذب. السراطين مذنبه مكتوب
عليها أن تمشي عرجاء. تعيش في المستنقعات والأنهار عفاريت تسرق الأطفال. حين يسقط المطر
يسمع شجار الشياطين من الكهوف والشقوق عنيماً وصاحباً لأن الشر الذي تطلقه لحرق السماء
يصبح رطباً. والنقيق الحاد للضفادع في مرجة بوكويرون هل يتنبأ بالمطر أم يلعن؟ هل يأتي ذلك
الضوء الذي يشع في الظلام من الحباحب؟ هل هاتان العينان لليومه حقاً؟ ضدّ من يهسهس
الثعبان؟

يسمع طنين الخفّاش الليلي الأعمى: إذا مشطك بجناحه. ستذهب إلى الجحيم مباشرة،
الجحيم تقع تحت ريميديوس، هناك ألسنة اللهب تحرق ولا تصدر ضوءاً ويجعل الجليد الأبديّ
أسنان الذين أذنبوا واتبعوا شهواتهم على الأرض، تصطك وترتعش.

- «ابق. مكانك».

يقفز القس في جرن المعمودية المقدّس.

- «ابقى مكانك أيها الشيطان».

يغسل الخسّ بالماء المقدّس. يتثائب البشر وأفواههم مغلقة.

- «يسوع! يا يسوع!». يصلب الأساقفة.

لا يوجد منزل غير مزين بجداول الثوم ولا يوجد هواء لا يحبله دخان الحبق العذب.
- «يملكون أقداماً إلا أنهم لا يصلون إليّ وحديداً إلا أنهم لا يجرحونني وأنشوطات إلا أنهم لا يقيدونني...».
إلا أن الناس يمكنون. لا يغادر أحد. لا أحد يهجر مدينة ريميديوس.

١٦٨٢ : ريميديوس

- بأمر من الله -

ترن أجراس الكنيسة المنصوبة إزاء السماء من أجل الخدمة. يغادر جميع سكان ريميديوس منازلهم. يجلس الكاتب بالعدل إلى يمين المذبح. ينضغط الحشد عبر الأبواب المفتوحة.
تدور شائعة تقول إن الأب خوسيه سيسمع شهادة من الله. كان يؤمل أن المسيح سينزع يده اليميني عن الصليب ويُقسم أن يقول الحقيقة، الحقيقة كاملة ولا شيء سوى الحقيقة.
يتقدم الأب خوسيه إلى المذبح الرئيس ويفتح وعاء خبز القربان. يرفع كأس القربان وخبز القربان المقدس ويركع أمام جسد ودم الإله على ركبتيه ويصيغ طلبه. يدون الكاتب بالعدل ملاحظاته. سيظهر الله لسكان ريميديوس أين يجب أن يعيشوا.
إذا تحدث الشيطان من خلال فم ليوناردو فستكون ليوناردو أداة عدوه الذي لا يقهر يغطي الكاهن عيني الصبي ليوناردو الذي لا يصل إلى خصره بعصاة ويغمس ليوناردو يده في حق القربان المقدس الفضي الذي يحتوي على بعض القطع الورقية التي كتبت عليها أسماء الأمكنة.

يلتقط الولد قطعة ورقية. يفتحها الكاهن ويقرأها بصوت مرتفع: «سانتا ماريا دي كوادليوب! دون أيها الكاتب!» ثم يضيف بانتصار: «لقد أشفق الله علينا. هو، برحمته اللانهائية، يقدم لنا الحماية. هيا يا أبناء ريميديوس لقد آن أوان الرحيل».

يذهب الكاهن.

ينظر خلفه. يتبعه البعض.

يأخذ الأب خوسيه معه كل شيء: كأس القربان، خبز القربان، المصباح والشمعدانات الفضية، الصور والنقوش الخشبية. يرافقه فقط النساء العزل والرجال الخائفون إلى أرض الميعاد.
تجر ممتلكاتهم الأحصنة والعبيد. يأخذون الأثاث والثياب الأرز واللوبياء، الملح والزيت والسكر واللحم المجفف والتبغ وكتباً من باريس وقطناً من «روين» وبعض الأشياء الأخرى المهربة إلى كوبا.

الطريق طويلة إلى سانتا ماريا دي كوادليوب. هناك تقع أراضي هاتو ديل كيوبي التي يملكها الأب خوسيه. كان الكاهن يبحث منذ سنوات عن مشترين لها.

١٦٨٨ : هافانا

- بأمر الملك -

كان الموضوع الرئيسي للمحادثة في كل أنحاء كوبا. كانت المراهنات تُعقد أينما اجتمع الناس. هل سيطيع سكان ريميديوس؟ يبقى الأب خوسيه الذي هجره أتباعه وحيداً ويعود إلى ريميديوس. إلا أنه يتابع حربه العنيدة المقدسة التي تردّد صداها في القصر الملكي. أمر تشارلز الثاني من مدريد أن سكان ريميديوس يجب أن ينتقلوا إلى أراضي «هاتو ديل كيوبي» في سانتا ماريا دي كوادليوب. يعلن رئيس الحكومة وأسقف هافانا أن أمر الملك يجب أن يُحترم. ينفذ الصبر. يستمر سكان ريميديوس بالتظاهر بالصمم.

١٦٩١ : ريميديوس

- هاليزالون لا يتحركون -

يصل الضابط بيريز دي موراليز فجراً من هافانا مع أربعين رجلاً مسلحين جيداً. يذهبون إلى الكنيسة. يتلقى الجنود العشاء الرباني وبيبارك الأب خوسيه بنادقهم وفؤوسهم القتالية. يجهزون المشاعل. تتحول بلدة ريميديوس ظهراً إلى نار كبيرة. يراقب الأب خوسيه الدخان المتدرج نحو الزرقة متصاعداً من الحطام الملتهب. حين يخيم الليل يظهر الناس من مخابئهم في الأدغال ويعودون إلى الحطام. يجلسون في حلقة، أعينهم مثبتة على سحب الدخان المتواصلة. يلعنون ويتذكرون. لقد سرق القراصنة هذه البلدة مرات عديدة. وحملوا في السنوات الماضية حتى كأس القربان الأكثر قداسة وقيل أن أسقفاً مات من القرف، وقالوا إنه من الجيد أن وشاحه بقي على صدره إلا أن أي قرصان لم يشعل النار في ريميديوس. يعقد الناس في ضوء القمر، تحت شجرة سيبة مجلساً للبلدة. يقرر الذين ينتمون إلى أرض التربة الحمراء هذه في الغابة أن يعيدوا بناء ريميديوس. تضمّ النساء الأطفال إلى صدورهن ويحدّقن بأعين أمهات النمر الجاهزة للقفز. يفوح الهواء بالاحتراق، لكن ليس برائحة الكبريت، أو روث الشيطان. الأصوات المتصاعدة بين الأشجار هي أصوات تتناقش وصوت طفل حديث الولادة، يبكي من أجل الحليب، واسم يعرف به.

١٦٩١ : مدينة المكسيك

- جوانا في سن الأربعين -

يضيء جدول من ضوء أبيض كلسي سور جوانا آنيز لأكروز وهي راكعة في وسط المسرح. ترفع ظهرها وتنظر نحو الأعلى حيث ينزف مسيح كبير، ذراعه مفتوحتان على السلم الرفيع المخطط بالمخمل الأسود والمللي بالصلبان والسيوف والرايات. يقف على المنصة مدعيان يوجهان اتهاماتهما.

كان كل شيء أسود حتى القلنسوتين اللتين تغطيان وجه المدعين. كان أحدهما يرتدي ثياب راهبة ومن تحت القلنسوة تظهر التجمعات المائلة إلى الأحمر للشعر المستعار: إنها لأسقف «بويبلا»، مانويل فرنانديز من سانتا كروز في دور الأخت فيلوتي. الآخر هو أنطونيو نونيز دي ميراندا، راهب اعتراف الأخت جوانا، يمثل نفسه. ينتأ أنفه الأعقف من تحت القلنسوة، يتحرك وكأنه يريد أن يتحرر من ماله.

الأخت فيلوتي (تطرز على إطار): غامض هو الله. لماذا يضع رأس رجل على جسد الأخت جوانا، لكي تهتم بقضايا الأرض البائسة؟ إنها ترفض ما تنص عليه الكتب المقدسة.

كاهن الإعراف: (مشيراً إلى الأخت جوانا بصليب خشبي): العاقبة!

الأخت جوانا (عيناها مثبتتان على المسيح فوق رؤوس المدعين): إنني فعلاً أردت على كرم الله بشكل سيء. أنا أدرس لأرى إن كانت الدراسة ستجعلني أقل جهلاً لأقود خطواتي نحو قمم اللاهوت المقدس. إلا أنني درست أشياء كثيرة ولم أتعلم شيئاً. إن الحقائق المقدسة تبقى بعيدة عني، دائماً بعيدة. أشعر أحياناً أنها قريبة مع ذلك أعرف أنها بعيدة. منذ أن كنت فتاة صغيرة في الخامسة أو السادسة من عمري بحثت عن تلك المفاتيح في كتب جدي تلك المفاتيح... قرأت وقرأت وحين عاقبوني بدأت أقرأ بشكل سري.

كاهن الإعراف (مخاطباً الأخت فيلوتي). لم تقبل أبداً إرادة الله. إنها تكتب الآن مثل رجل لقد رأيت مخطوطات قصائدها.

الأخت جوانا: ... البحث.. عرفت باكراً أن الجامعات ليست للنساء وعرفت أن النساء اللواتي يعرفن ما هو أكثر من الصلاة الربانية يُعتبرن فاحشات. كنت أملك كتباً خرساء لمدرسين. ومحبرة من صديقة مدرسة حين منعت الكتب عني كما حصل أكثر من مرة في هذا الدير، درست أشياء العالم. إن المرء يستطيع أن يكتشف أسرار الطبيعة حتى وهو يطبخ

الأخت فيلوتي: الجامعة الملكية والأسقفية للفظائر المحلاة. مقلاة حرم الجامعة.

الأخت جوانا: ما الذي نستطيع أن نعرفه نحن النساء ماعدا فلسفة المطبخ؟ إن أرسطو لو طبخ لكتب أكثر مما كتبه. هذا يضحككم أليس كذلك؟ حسناً! اضحكوا! إذا كان هذا يسركم. يشعر الرجال أنهم حكماء جداً لمجرد كونهم رجالاً. لقد توجّ المسيح أيضاً بالشوك، وضحك عليه. كاهن الإعتراف: (يمحو ابتسامته يضرب الطاولة بقبضته). هل سمعت مثل هذا الكلام؟ هذه الراهبة الصغيرة المتفكّهة؟ تستطيع أن تكتب بعض الأغاني وتريد أن تقارن نفسها بالمسيح. الأخت جوانا: لقد عانى المسيح أيضاً من هذه اللاعدالة. هل هو واحد منهم؟ وهكذا عليه أن يموت. لقد اتهم، ولهذا السبب يجب أن يعاني.

كاهن الإعتراف: يجب أن تتواضعي.

الأخت فيلوتي: فعلاً يا ابنتي، إنك تخيفين الله بكبريائك.

الأخت جوانا: كبريائي؟ (تبتسم بحزن) لقد استخدمت هذا منذ وقت طويل.

كاهن الإعتراف: لقد صفّق العامة لشعرها وهكذا تظنّ نفسها من النخبة. إنها أشعار تجلب العار إلى منزل الله هذا، إنها تمجيد للجسد (يسعل) إنها القنون الشريرة للحيوان الذكري.

الأخت جوانا: أسعاري المسكينة! إن التصفيق مجرد غبار، ظلّ، عظمة متلاشية هل طلبت أنا هذا؟ أيّ وحي إلهي يمنع النساء من الكتابة؟ بنعمة الله أو بلعنته، إن السماء هي التي جعلتني أصبح شاعرة.

كاهن الإعتراف (ينظر إلى السقف ويرفع يديه مبتهلاً): إنها توسّخ طهارة الإيمان وتلوم السماء على ذلك.

الأخت فيلوتي: (تضع الإطار المطرز جانباً وتضع يديها على معدتها): تمتلك جوانا كثيراً من الأغاني للروح الإنسانية وقليلاً منها للروح المقدسة.

الأخت جوانا: ألا تعلّمنّا الأناجيل أن السماوي يعبر عن نفسه في الدنيوي؟ إن قوة جبارة تدفع يدي.. كاهن الإعتراف: (ملوحاً بالصليب الخشبي وكأنه يريد أن يضرب جوانا من بعيد) أهذه قوة الله أم قوة الشيطان؟

الأخت جوانا: سأستمر في الكتابة، سأظل خائفة ما دام يوجد ظل لجسدي. لقد هربت من نفسي حين ارتديت رداء الراهبة وسبّبت البؤس لنفسي.

الأخت فيلوتي: إنها تستحمّ في العري. يوجد أدلة.

الأخت جوانا: يا إلهي أطفئ ضوء فهمي واترك فقط مايكفي لحفظ شريعتك. أليس الباقي غير ضروري للمرأة؟

كاهن الإعتراف (صارخاً بحدة كغراب): لقد جلبت العار إلى نفسك. أميتي قلبك أيتها العاقّة.

الأخت جوانا: أطفئني! أطفئني يا إلهي!

(تستمر المسرحية بحوار مشابه إلى عام ١٦٩٣)

١٦٩١: بلاسنتيا

أداريو، زعيم هنود المهورون يتحدث مع البارون لاهونتان، المستعمر الفرنسي لنيوفاوندلاند

إنك بائس بما يكفي ولا أستطيع أن أراك خارج ذلك. أي نوع من الرجال هم الأوروبيون؟ إلى أيه أنواع من المخلوقات ينتمون؟ إن هؤلاء الأوروبيين يجب أن يُجبروا على القيام بالأعمال الجيدة. ولا يوجد لديهم باعث آخر لتجنب الشر سوى الخوف من العقاب.

من منحكم هذه البلدان التي تسكنونها الآن؟ بأية حق تمتلكونها؟ لقد كانت سابقاً «للألكونكونيز». إنني يا أخي العزيز آسف عليك من أعماق قلبي وبشكل جدي. اسمع نصيحتي وتحول إلى «هورني»، لأنني أرى بوضوح فرقاً كبيراً بين وضعيتك ووضعتي. أنا سيد نفسي ووضعي. أنا سيد جسدي. أمتلك السيطرة على نفسي.؟ أفعُل ما يسرني. أنا الأول والآخر في أمتي، لا أخاف من أي رجل وأعتمد فقط على الروح العظيمة، إلا أن روحك وجسدك مقدر عليهما أن يعتمدا على الضابط الكبير، نائب ملككم، وليس لك حرية أن تفعل ما تريد. أنت خائف من اللصوص وشهود الزور ومن القتل.. الخ. وتعتمد على عدد لانهايني من الأشخاص الذين رفعتهم منزلتهم فوقك. أصحيح هذا أم لا؟

١٦٩٢: قرية سالم

- ساحراته سالم -

لا يعلم سوى المسيح كم شيطان يوجد هنا؟ يزأر المحترم صموئيل باريس، راعي أبرشية بلدة سالم ويتحدث عن يهوذا والشيطان الجالس على مائدة الرب الذي باع نفسه بثلاثين قطعة فضية تعادل ٣,١٥,٠ من الباوندات الإنكليزية، وهو سعر عبدة أنثى يثير السخرية.

يصيح راعي الأبرشية أنه لا يوجد حياد ممكن أو ملاذ مؤكد في حرب الحملان ضد التنانين. لقد زرعت الشياطين نفسها في منزله: كان أول من عذبت الشياطين ابنة المحترم باريس وابنة

أخيه أيضاً، الشياطين التي عصفت بهذه البلدة البيوريتانية. ربتت الفتاتان الصغيرتان على كرة كريستالية لتعرفا قدرهن فشاهدتا الموت. منذ أن حدث هذا بدأت كثيرات من فتيات «سالم» يشعرن بحمى الجحيم في أجسادهن، الحمى المهلكة التي تحرقهن من الداخل، فيلتوين ويدرن ويتدحرجن على الأرض وتمتلىء أفواههن بالرغوة ويجفن ويفحشن بكلمات وضعها الشيطان على شفاههن.

يشخص الطبيب ويليم كريكرز رقى شريرة تقدّم لكلب كعكة من طحين الشعير خلطت ببول الفتيات المسوسات، يأكلها الكلب ويهزّ ذيله وينام بسلام. يفضل الشيطان المساكن البشرية. بين تشنج وآخر، تتهم الضحايا.

كان أول من شنق النساء والفقراء. شنقت امرأتان بيضاوان وواحدة سوداء: سارة أوسبورن، عجوز محنية التي دعت منذ سنوات خادمتها الإيرلندية، التي كانت تنام في الاصطبل ومنحتها مكاناً في فراشها. وسارة كود الشحاذة الفوضوية التي تدخن غليوناً وتدمدم حين تقدّم لها الصدقات وتيتوبا، العبداء السوداء سيدة شيطان مشعر له أنف طويل، وابنة سارة كود، ساحرة صغيرة في سن الرابعة وضعت في سجن بوسطن مغلولة القدمين.

إلا أن الصرخات المؤلمة لفتيات سالم لا تتوقف وتتكاثر الاتهامات والأحكام وينتشر اصطلياد الساحرات من قرية سالم التي تقع في الضواحي إلى مركز بلدة «سالم»، من البلدة إلى المرفأ ومن الأضعف إلى الأقوى. لم تنج حتى زوجة الحاكم من إصبع الاتهام. تدلى على المشانق مزارعون أثرياء ورجال أعمال، مالكو حوانيت يتاجرون مع لندن، أعضاء الكنيسة أصحاب الامتيازات الذين يتمتعون بحق العشاء الرباني.

قيل أن مطراً كبريتياً انهمر على بلدة «سالم»، مرفأ ماساتشوسيتس الثاني، حيث الشيطان يعمل بجَد ويطوف واعداء المدن البيوريتانية بالذهب والأحذية الفرنسية.

١٦٩٢: كوابولو

- تأميم الفن الإستعماري -

يبدأ ميغيل الذي هو من سانتياغو بعرض لوحاته الزيتية في حرم كوابولو، القرية التي تطلّ على كويتو.

يرسم ميغيل، تمجيذاً للعداء المحلية، مجترحة المعجزات العظيمة، هذه الجبال والسهول والسماء والمناظر الطبيعية التي ستحتوي حياة فقيرة لو أن الناس الذين يتحركون فيها لا يضيئونها. يتحرك بشر محليون في خلفيات محلية، في مواكب أو لوحدهم. لم يعد ينسخ الفنان أعمالاً من مدريد أو روما عن حياة القديس أوغسطين. يرسم الآن مدينة كويتو المضيئة المحاطة

بالبراكين، أبراج الكنائس، هنود بوجيلي وماشفازا، هضبة بيلافستا ووادي كوابولو والشموس التي خلف الجبال، سحب دخان النار الصاعدة والأنهار الضبابية التي لا تتوقف أبداً عن الغناء والتي تنتمي كلها إلى هنا.

لا يعمل ميغيل وحده. تهرب الأيدي المجهولة لرسامين محليين أو هجن لامات، إلى لوحاتهم المتعلقة بعيد الميلاد بدلاً من الجمال وأناناساً وبلحاً وقرون ذرة وأفوكاتة إلى النقوش الخضراء لواجهة الكنيسة، وشموساً معصوبة الرأس إلى قرب المذبح. يوجد في جميع الجوانب عذراوات حبالى، ومسيح يحزن كالبشر، كبشر هذه الأماكن، من أجل حزن هذا العالم.

١٦٩٣: مدينة المكسيك

- جوانا في الثانية والأربعين -

دموع بطول الحياة، تنبع من الزمن والألم وتبلل وجهها. ترى العالم حزينا وضبابيا مثلها. تودعه منهزمة.

كانت تعترف طوال أيام بذنوب وجودها كله للأب أنطونيو نونيز ميراندا الذي لا يعرف الصفح وكرست أيامها الأخرى للتوبة. تكتب رسالة، مستخدمة دمها حبراً، إلى المحكمة المقدسة وتطلب الغفران.

إن سفينتها ستتوقف عن الإبحار في بحار الشعر. تهجر جوانا دراساتها البشرية وتشجب الأدب. تطلب من الله هبة النسيان وتختار الصمت أو تقبله، وهكذا تخسر أميركا أفضل شعرائها.

لن يعيش جسدها طويلاً بعد انتحار الروح هذا. «يلحق العار بالحياة لأنها استمرت طويلاً معي...»

١٦٩٣: سانتافي، المكسيك الجديدة

- ثلاثة عشر عاماً من الاستقلال -

مرّ ثلاثة عشر عاماً على احتفال الأجراس في «سانتا في» بموت إله المسيحيين وأمه مريم. احتاج الإسبان إلى ثلاثة عشر عاماً لإعادة فتح أراضي الشمال الوحشية. حين كانت هدنة الاستقلال مستمرة استعاد الهنود حريتهم وأسماءهم ودينهم وعاداتهم، وأدخلوا في خدمتهم المحراث والعجلة وأدوات أخرى أحضرها الإسبان.

لم تكن إعادة الفتح سهلة على القوى الإستعمارية. كانت كل قرية هندية في المكسيك الجديدة حصناً محكم الإغلاق محاطاً بأسوار حجرية وطوبية عالية. يعيش في وادي ريوكراند بتسر غير معتادين على الطاعة أو على العبودية.

- أغنية هنود المكسيك للصورة التي تهرب من الرمل -

ومكذا يمكن أن أعالج نفسي
رسم الساحرة
صورتك في الصحراء
عيناك من رمل ذهبي
وفمك من ثلج رملي أحمر
ومن رمل أزرق شعرك
ودموعي هي من رمل أبيض.
رسم طوال النهار.
ترعرعت كإلهة
على ضخامة القماش الأصفر
ستبعثر ريح الليل ظلك
والوان ظلك
ولن يبقى شيء لي وفق القانون القديم
لأشياء ماعدا بقية دموعي
التي هي الرمال الفضية.

١٦٩٤ : ماكاكوس

- الحملة الأخيرة على بالمابريس -

وُلد صياد الهنود العظيم، الذي يقتلهم على بعد فراسخ عديدة، من أم هندية، يتحدث اللغة الكورانية وقليلًا من البرتغالية، إنه دومينغوز خورخي فيلهو، قائد مماليك «سان باولو»، قائد الهجن الذين بذروا الرعب في نصف البرازيل باسم سادتهم المستعمرين وطهروا بوحشية نصف دمهم.

أجر دومينغوز خدماته في الأعوام الستة الماضية للتاج البرتغالي ضد هنود «الجانديوم» المتمردين في المناطق الواقعة خلف ساحل «برناميكو» وفي ريوجراندي دي نورتي. بعد حملة طويلة من الذبح يصل منتصراً إلى «ريسييف» وهناك تعقد معه إتفاقية لتدمير بالماريس. يقدمون له غنيمة مدهنة من الأرض والعبيد السود ليبيعهم في ريودي جانيرو وبيونس آيرس ووعدوه بإعفاءات لانهائية وبأربعة رتب دينية وبثلاثين رتبة عسكرية ليوزعها على رجاله.

يمشي الضابط دومينغوز باستعراض على ظهر حصانه بمنظار معلق على صدره العاري وبسترتة الملوثة بالشحم في شوارع ريسيف على رأس ضباطه الهجن وضباط صفه قاطعي رؤوس الهنود. يركبون وسط سحب من الغبار وهبات من بارود المدفعية والرّم وسط التصفيق وخفق المناديل البيضاء: سينقذنا هذا المسيح من السود المتمردين. يؤمن الناس أو يأملون، مقتنعين أن الهاربين يجب أن يلاموا على قلة الأيدي في مطاحن السكر وعلى الأمراض والقحط الذي يلتهم الشمال الشرقي، بما أن الله لن يرسل الصحة أو المطر مادامت فضيحة بالماريس قائمة.

تنظم الحملة الصليبية الكبيرة. يأتي المتطوعون من جميع الجهات يدفعهم الجوع للبحث عن أرزاق مؤكدة. تفرغ السجون وينضم المجرمون المزمنون إلى أكبر جيش تمت تعبئته في البرازيل. يتقدم الكشافة الهنود إلى الأمام ويحمي الحمالون السود المؤخرة. يعبر تسعة آلاف رجل الدغل ويصلون إلى الجبال. يتسلقون إلى القمة حيث تنتصب تحصينات الماكاكوز. أحضروا معهم المدافع هذه المرة.

يستمر الحصار عدة أيام، تحطم المدفعية المتاريس الثلاثية المصنوعة من الخشب والصخر. يقاتلون رجالاً لرجل على حافة الهاوية. تكدّس الكثير من الموتى ولم يبق مكان للساقطين واستمرّ الذبح بين الأشجار. يحاول كثير من السود الهرب ويسقطون عن الجرف في الفراغ. يختار كثيرون الجرف ويسقطون.

تلتهم السنة اللهب عاصمة بالماريس. يمكن أن تشاهد من مدينة بورتو كالفو البعيدة النار الكبيرة المشتعلة في الليل، تحرق ذاكرتها. تعلن الأبواق دون توقف النصر. يهرب الزعيم زومبي الذي جرح. يصل من القمم الشامخة إلى الأدغال. يتجول عبر الأنفاق الخضراء باحثاً عن قومه في الأجسام.

- شكوى شعب أزاندي -

الطفل ميت.

لنغطي وجوهنا

بتراب أبيض.

أنجبت أربعة أبناء

في كوخ زوجي
عاش منهم الرابع فقط.
أريد أن أبكي
إلا أن الحزن
ممنوع في هذه القرية.

١٦٩٥: سيرا دوا إرموس

- زومبي -

ينبسط منظر الأدغال، تنبسط أدغال الروح. يدخن زومبي في غليونه وعيناه تراقبان الصخور الحمراء العالية والكهوف المفتوحة كجراح ولا يرى أن النهار يشرق بضوء العدو ولا يرى أن الطيور تحلق مرتعبة.

لا يرى الخائن يقترب. يشاهد رفيقه سورييس وينهض ليعانقه. يطعنه أنطونيو سورييس عدة طعنات بالخنجر في ظهره. يثبت الجنود رأسه على رأس رمح ويأخذونه إلى ريسيف، ليتركوه يتعفن في الساحة وليخبروا العبيد أن زومبي ليس خالداً.

توقفت بالماريس عن التنفس. استمرت فسحة الحرية الواسعة هذه التي تأسست في أميركا المستعمرة قرناً وتصدت لأكثر من أربعين حملة. طيرت الريح رماد المتاريس السوداء بعيداً عن ماكاكوز وسوبوبيرا ودامبرابانكا وأوبينغا وتابوكاز وآروتيرين. انتهى قرن بالماريس بالنسبة للفتحين حين قضى الخنجر على زومبي. سيخيم الليل ولن يبقى شيء تحت النجوم الباردة. لكن ما الذي يعرفه المستيقظون إذا ما قورن بما يعرفه الحالم؟

يحلم المقهورون بزومبي ويعرف الحلم أنه طالما يبقى رجل مالكا لرجل آخر في هذه الأراضي، سيظل شبحه يمشي. سيمشي أعرج لأن رصاصة أعطبت رجله، سيمشي صعوداً وهبوطاً في الزمن وأعرج سيقاقل في أدغال النخيل وفي جميع أراضي البرازيل سيسمى جميع زعماء التمردات السوداء التي لا تتوقف باسم زومبي.

١٦٩٥: ساو سلفادور دي باهيا

- عاصمة البرازيل -

يوجد في هذه المدينة المضيئة كنيسة لكل يوم من أيام العام وكل يوم هو يوم قديس. تتوهج الأبراج والأجراس والنخيل السامق. تتوهج الأجساد والهواء الدبق بالزيت: سيحتفل اليوم بقديس

وغداً بعاشق في مدينة جميع القديسين واللاقداصة التي تدعى باهيا. إن ساو سلفادور دي باهيا، مقر نائب الملك والأسقف هي أكثر المدن البرتغالية اكتظاظاً بالسكان بعد لشبونة وتثير حسد لشبونة بأبرشياتها وكنائسها الذهبية وبنسائها المثيرات وبمهرجاناتها وبحفلاتها التنكرية ومواكبها. هنا تلبس العاهرات الخلاسيات بالملكات ويحمل العبيد أسيادهم على المحفّات في ممرات ورقية وسط قصور من العظمة التي تثير الهذيان. هكذا يصوّر غريغوريو دي ماتوس المولود في باهيا، الأرستقراطيين النبلاء لمزارع السكر:

إن نبلاء البرازيل

ليسوا نبلاء

وليس سلوكهم الجيد جيداً

إذاً إلى ماذا ينتمون؟

إلى كومة من المال.

إن العبيد السود هم آجر وملاط هذه القلاع. يصرّ الأب أنطونيو فييرا من على منبر الوعظ على أن يشكر أنغولا، لأنه بدون أنغولا لما كان هناك برازيل وبدون البرازيل لن توجد البرتغال، لهذا من العدل أن يقال إن جسد البرازيل هو في أميركا أما روحها في أفريقيا. أنغولا التي تباع عبيد البانتو وأنياب الفيلة، أنغولا، كما تعلن موعظة الأب التي ربّت البرازيل بدمها الباتس وروحها السوداء السعيدة وقوتها ودعمتها وخدمتها وحفظتها.

يبقى هذا الكاهن الجزويتي إلى سن التسعين العدوّ الأسوأ لمحكمة التفتيش ومحامياً للهنود المستعبدين والمتهم الملحّ لأسياد الاستعمار، الذين يؤمنون أن العمل هو للحيوانات ويبصقون على الأيدي التي تغذيهم.

١٦٩٦ : ريغلا

- محذراء سوداء، إلهة سوداء -

تجيء العذراء إلى ميناء ريغلا التي تربطها علاقة ضعيفة مع هافانا، تجيء لتستقر. جاء النقش الأرزي من مدريد ملفوفاً في كيس بين ذراعي نصيرها وتابعها بدر وآراندا. إن اليوم هو ١٨ أيلول، يوم المهرجان في مدينة الحرفيين والبحارة العابقة بالقار والمحار حيث يأكل الناس اللحم والذرة واللوبياء والمنيهوت والطبخات الكوبية والأفريقية والإيكو والأوليلي والإيكرو والكويمبومبو والفوفو، بينما ترحّب أنهار الرّم وزلازل الطبول بالعذراء السوداء الصغيرة راعية وحامية خليج هافانا. البحر منقّط بقشور الجوز وأغصان الريحان الزكية وبنسيم من الأصوات التي تغني حين يخيم الليل.

إن عذراء «ريغلا» السوداء هي أيضاً العذراء الأفريقية «يمايا» إلهة البحار الفضية وأم الأسماك وأم وعاشقة «شانغو» الإله المحارب، المحب للمشاكل، وزير النساء.

١٦٩٧: كاب فرانسيز

- دوكاسي -

تصل سفن دوكاسي حاكم هايتي وزعيم القراصنة الفرنسيين في جزر الأنتيل محملة بالذهب وبالعملة الذهبية الصعبة وبدبلونات مضاعفة ومجوهرات وصحون وكؤوس قربان ذهبية وتيجان عذراوات وقديسين. أذلّ دوكاسي «كارتاجينا» وحولّ وابل مدفعيته المتاريس الصخرية للحصن إلى غبار وترك الكنيسة دون جرس والحاكم بلا خواتم.

إلى فرنسا يذهب ذهب المستعمرة الإسبانية المسروقة. يتلقى دوكاسي في فرساي لقب أميرال وصولجناً جديراً بملك.

قبل أن يصبح حاكم هايتي وأميرالاً للأسطول الملكي، كان دوكاسي يشتغل وحده ويسرق العبيد من السفن الهولندية والكنوز من السفن الإسبانية. كان يعمل منذ عام ١٦٩١ للويس الرابع عشر.

١٦٩٩: مدريد

- المسحور -

رغم أن البواق لم يعلنها، طارت الأنباء في شوارع مدريد: لقد اكتشف المفتشون من سحر الملك تشارلز وستحرق الساحرة إيزابيل في المحرقة في الساحة الرئيسية.

كانت إسبانيا كلها تصلي لتشارلز الثاني. عندما يستيقظ كان يتناول مسحوق الثعبان الناجع في منح القوة إلا أنه لم يتحسن. استمر عضوه التناسلي مخدراً غير قادر على إنجاب الأطفال واستمرت الرائحة الكريهة والرغوة بالخروج من الفم الملكي. ولم تخرج كلمة واحدة تستحق الإصغاء.

لم تأت اللعنة من كوب شوكولاتة معين وضعت فيه خصى المشنوقين كما ادّعت بعض ساحرات «كمانغار» ولا من الطلسم الذي يرتديه الملك حول عنقه كما اعتقد الساحر فراي مورو. اقترح أحدهم أن أم الملك سحرته بتبغ أخضر من أميركا أو باللبان الجاوي وأشيع أيضاً أن مدير الخدم في القصر، دوق قلعة فلوريت قدّم للمائدة الملكية فخذ خنزير وضعت فيه أظافر امرأة مغربية أو يهودية أحرقتها محكمة التفتيش.

أخيراً عثر المفتشون على مجموعة الدبابيس وعلى دبابيس الشعر وعلى السمك الصدي وعلى شعرات جلالته الشقراء التي أخبأتها إيزابيل قرب المخدع الملكي.
يميل الأنف إلى الأمام، تتدلى الشفة، يتدلى الذقن، تبدو عيناه وقد لمعتا. يرفع قزم شمعة لينظر إلى الصورة التي رسمها له كارينو منذ أعوام.
أثناء ذلك، لا يوجد خارج القصر خبز أو لحم سمك أو خمرة كأن مدريد مدينة محاصرة

ماكوبا: ١٦٩٩

- شرح عملي -

أخبر الأب جان بابتيست لابات عبيده ليزرع فيهم النشاط في أرض الكسل والنعاس هذه أنه كان أسود قبل أن يأتي إلى المارتينيك وأن الله وهبه اللون الأبيض مكافأة على حماسة خضوعه الذي خدم به أسياده في فرنسا.
يحاول بخار الكنيسة الأسود أن يضع تعشيقاً صعبة في لوح خشبي ولا يستطيع الحصول على الزاوية الصحيحة يرسم الأب لابات بعض الخطوط مستخدماً مسطرة وبوصلة ويأمر «اقطعه من هنا».

كانت الزاوية صحيحة.

يقول العبد ناظراً إليه في عينيه: «أصدّقك الآن. لا يستطيع أي رجل أبيض أن يفعل هذا».

.. ١٧ : أورو برييتو

- البرازيل كلها، إلى الجنوب -

أظهرت الخريطة في الأيام القديمة باهيا قريبة من مناجم بوتوسي المكتشفة حديثاً وكتب الحاكم إلى لشبونة قائلاً إن أرض البرازيل والبيرو واحدة. ليحولوا جبال البارانا بياكابا إلى سلسلة جبال الأنديز أحضر البرتغاليون مئتي لامة إلى سان باولو وجلسوا لينتظروا ظهور الذهب والفضة.
اكتشف الذهب بعد قرن ونصف. كانت مجاري الأنهار والجداول المتدفقة على منحدرات جبال «اسبينهاكو» مليئة بالأحجار المشعة. وعثر مماليك «ساو باولو» على الذهب حين كانوا يصطادون هنود «كاتاكواز».

نشرت الرياح الأنباء في كل أنحاء البرازيل واستجاب الكثيرون. كان كل ما عليك أن تفعله للحصول على الذهب في إقليم «ميناس جيراس» هو أن تجمع حفنة رمل أو تقلع باقة عشب وتهزّها.

جاء الجوع مع الذهب. كان سعر القطة أو الكلب في المعسكرات (١٠٥) غراماً من الذهب وهو المبلغ الذي يحصل عليه العبد مقابل عمل يومين.

١٧٠٠: جزيرة القديس توماس

- الرجل الذي يجعل الأشياء تتحدث -

تدق أجراس حزينة وتقرع طبول كثيبة في الجزيرة الدنماركية في جزر الآنتيل، والتي هي مركز للتهريب والقرصنة. يتوجه عبد إلى المحرقة. حكم عليه الرئيس الكبير «فانبل» بالإعدام لأنه يتحول إلى مطر حين يشعر بذلك ولأنه ركع أمام ثلاث أشجار برتقال ويمتلك تمثالاً طينياً يجيب على أسئلته كلها ويريحه من جميع الشكوك.

يتقدم الرجل المحكوم نحو المحرقة ناظراً إليها مبتسماً ابتسامة عريضة.

يعترضه فانبل: «لن تثرثر مع وثنك مرة أخرى أيها الساحر الأسود»

يجيب العبد بهدوء دون أن ينظر إليه: «أستطيع أن أجعل قصبتك هذه تتكلم».

«قف». يصيح فانبل بالحرس: «حلّوا وثاقه»

يرمي القصة إليه أمام الحشد المنتظر ويقول له: «افعل هذا»

يركع العبد ويهوي بيديه على القصة المركوزة في الأرض. يدور حولها عدة دورات ويركع ثانية ويلطفها.

يقول السيد: «أريد أن أعرف إذا كانت السفينة التي ستأتي إلى هنا قد أبحرت ومتى ستصل ومن عليها وماذا حدث...».

يتراجع العبد عدة خطوات إلى الوراء ويقول:

- «اقترّب ياسيدي. سأخبرك».

حين يقرب فانبل أذنه إلى القصة يسمع أن السفينة قد أبحرت منذ فترة من هلسنغور في الدنمارك ولكن عاصفة حطمت شراعها الثاني وحملت شراع المؤخرة حين وصلت إلى المنطقة الإستوائية. يرتعش عنق فانبل كبطن ضفدع. يرى المراقبون أنه ابيضّ.

يقول فانبل بينما تتابع القصة كلامها وتقول له أسماء الكابتن والبحارة: «لأسمع أي شيء».

يصرخ: «لا شيء».

تهمس القصة له: «ستصل السفينة بعد ثلاثة أيام ستجعلك حملتها سعيداً». ينفجر فانبل.

يكسر صولجانه، يصرخ: «أحرقوا الزنجي».

يزأر: «أحرقوه».

يعوي: «أحرقوا الساحر».

- أغنية شعب البانتو عن النار -

أيتها النار التي يراقبها البشر في الليل،
 في الليل العميق.
 أيتها النار التي تلتهب دون أن تحرق
 التي تشع دون أن تلتهب
 أيتها النار التي تطير بلا جسد
 أيتها النار التي لا تملك قلباً ولا تعرف
 منزلاً أو أكواخاً
 يانار ورق النخيل الشفافة
 يحرضك الإنسان بدون خوف
 يانار السحرة أين والدك؟
 أين أمك؟
 من غذاك؟
 أنت والدك وأمك
 تعبرين ولا تتركين أثراً
 لا يولدك الخشب الجاف
 ولا تملكين شرارات للبئات
 تموتين ولا تموتين
 تتحول فيك الروح الرحالة
 ولا يعرفها أحد.
 يانار السحرة،
 ياروح المياه في الأسفل والهواء في الأعلى
 أيتها النار المتوقدة، أيتها الدودة المتوهجة التي تضيء
 المستنقع.
 ياطائراً بلا جناحين، ياشيئاً بلا جسد
 ياروح قوة النار
 اسمعي صوتي:
 ثمة إنسان يحرضك
 دون خوف.

١٧٠٠ : مدريد

- المظلّ الناقص للخريف -

لم يستطع أبداً أن يرتدي ثيابه لوحده أو أن يقرأ بطلاقة أو أن يقف معتمداً على نفسه. يستلقي في سن الأربعين رجلاً صغيراً عجوزاً بلا سلالة محتضراً ومحاطاً بكهنة الاعتراف وطاردي الأرواح الشريرة وبالحاشية والسفراء الذين يتنازعون على العرش.

أزاح الأطباء المنهزمون الحمامات الميتة وأحشاء الخروف عنه. لم يعد الأطباء يغطّون جسده ولا يقدمون له الرّم ليشرب أو ماء الحياة الذي أحضر من «مَلَقَة» لأنه لم يبق شيء سوى انتظار الشهقة التي ستزيله من العالم. في ضوء المشاعل، يترأس مسيخ نازف على رأس السرير الطقس الأخير. يرشّ الكاردينال ماء مقدساً من أشنات داوود. تفوح غرفة النوم برائحة الشمع والبخور والوسخ. تضرب الريح مصاريع القصر المغلقة بشكل سيء.

سيأخذونه إلى مقبرة الإسكوريال حيث ينتظره المدفن الرخامي الذي نقش عليه اسمه منذ أعوام. كانت هذه هي رحلته المفضلة وكان قد مرّ وقت لم يزر فيه مدفنه أو يخرج من قصره. مليئة مدريد بالحفر وبالقمامة وبالمتشرددين المسلحين وبالجنود الذين يعيشون على الحساء الرقيق للأبرشيات ولا يخرجون للدفاع عن الملك. في المرة الأخيرة التي تجاسر أن يخرج فيها ركضت النساء الغاسلات وفقراء الشوارع خلف عربته وقذفوه باللعنات والأحجار.

تشارلز الثاني، ذو العينين الجاحظتين المحمرّتين يرتجف ويهذي. أصبح قطعة صغيرة صفراء من اللحم تنفذ تحت الأغذية كما ينفذ القرن أيضاً، وهكذا تنتهي السلالة التي غزت أميركا.



لمحة عن المؤلف

ولد ادواردو كاليانو في مونتفيدو، الأرجواي عام ١٩٤٠ دخل عالم الصحافة كرسام كاريكتير سياسي لمجلة «الشمس» وأصبح فيما بعد محرراً لمجلة مارشا.

في عام ١٩٧٣ نفي إلى الأرجنتين حيث أسس وحرر مجلة «الأزمة». عاش في إسبانيا من عام ١٩٧٦ إلى عام ١٩٨٤ وبعد ذلك عاد إلى الأرجواي.

من كتبه:

١ - الشرايين المفتوحة لأميركا اللاتينية (١٩٧١)

٢ - أيام وليالي الحب والحرب (١٩٧٨).

٣ - أغنية أنفسنا (١٩٧٥).

٤ - ذاكرة النار:

أ - سفر التكوين.

ب - الوجوه والأقنعة.

ج - قرن الريح.

الفهرس

7 مقدمة
	الفصل الأول
9 الأصوات الأولى
	الفصل الثاني
43 عالم جديد قديم
247 لمحة عن المؤلف

صدر من دار الطليعة الجديدة

- الحضارة البشرية أمام
مفترق طرق
- الكتاب الأبيض لأبخازيا
- حوارات سجين
- العمل الشيوعي الفلسطيني في سوريا
- الدراما التلفزيونية
- ميثاق الموج
- آكان، أحرث صوتك بناي
- ثلاث ليالٍ لقمر أريحا
- علم السلوك (بحث)
- محاولة في رصد ما حدث
- ما الذي حصل يا إلهي
- خالد بكداش (كلمات - أحاديث - مقالات)
- حول الصراع الإيديولوجي
- آه منا نحن معشر الحمير
- تأليف: د. قدرى جميل
- ترجمة: د. تيسير كم نقش
- تدقيق: د. أحمد باكير
- تأليف: فكتور أنبيلوف
- ترجمة: عدنان جاموس
- تأليف: حمد موعد
- إعداد: عماد نداف
- محمد نداف
- شعر: أسامة اسبر
- شعر: أكرم قطريب
- شعر: وليد عيسى الزوكاني
- بإشراف: أ.د. زياد درويش
- د. منال المختار
- تأليف: أمين الحسن
- تأليف: عماد نداف
- تأليف: ديمتري تسيخوف
- ترجمة: زياد الملاً
- تأليف: عزيز نيسن
- ترجمة: جمال دورمش

- حكايات من الشام

- وردة غان

- نقد أفكار زعماء الردة في

الفكر الماركسي اللينيني المعاصر

- خالد بكداش يتحدث

- على المبدأ

- جلجامش والبحث عن الخلود

- سامبو، الطاحونة السحرية

- إبرة الساحر

تأليف: محمد خالد رمضان

تأليف: عماد نداف

تأليف: صالح بوزان

إعداد وحوار: عماد نداف

تأليف: ن.ك نيفيوديغا

ترجمة: زياد الملاً

ترجمة: سهام شاهين

ترجمة: سهام شاهين

ترجمة: عمار مصطفى

يُصدر قريباً عن دار الطليعة الجديدة

- مولوتوف.. مائة وأربعون حديثاً

تأليف: فيليكس نشويف

ترجمة: زياد الملاً

فايز البرشة

- الإنسان والروح

تأليف: يو.م. إيفانوف

ترجمة: عاطف أبو جمرة

فايز البرشة

- غريب في المقبرة

تأليف: وليم فوكنر

ترجمة: د محمد علي حرفوش

- إنها ساحة معركة

تأليف: غراهام غرين

ترجمة: حسام خضور

- قاعة الرقص الرومانسية

تأليف: وليم تريفور

ترجمة: فاضل السلطاني

